المبحث الثالث

أنماط الصُّورة

الصورة الممتدَّة :

ونعني بالصُّورة الممتدَّة هنا : أن يتجاوز الشاعرُ فيها مجرَّد العلاقة الجزئية بين المشبه والمشبَّه به إلى خلق صورةٍ كلِّيةٍ ممتدَّة (نامية) ، من خلالِ الخيال الشعري ، يربط بينها خيط نفسي وشعوريّ واحد .

فهي ((تركيبٌ جميلٌ ذو وحدة فنية ، منبعهُ الخيال ، ينبثق من أعماقِ النفس ليعبِّر عن تجربةِ الأديب مصحوباً بعاطفةٍ قويَّة ، ومشتملاً على مجموعةٍ من الصُّور الجزئية النامية ، التي تتماسك وتتلاحم تلاحماً عضويًّا فيما بينها ، وتؤدي إلى غايةٍ واحدةٍ ، وشعور نفسيٍّ متكامل ، وتأخذ هذه الصُّورة الجزئية أنماطاً مختلفةً ، فقد ترد على هيئةِ صور مجازيَّة ، أو رمزيَّة ، أو حسيَّة ، أو غير ذلك ، بحيث تكوِّن في النهاية صورة كليَّة تنعكس من خلالها انفعالات الأديب وأحاسيسه . . .))[1].

وهكذا نجد ((أنَّ وسيلة الشاعر لنقل تجربته هي الصُّورة سواءً أكانت صورة جزئية تتصل بالبيتِ أو نصف البيت ، أم كانت كليَّة ذات أجزاء صغيرة ، فإذا نظرنا إلى أهداف هذه الصُّور سواءً منها الجزئي أو الكلي فسنجد أن هدف كل صورة أو تعبير مجازي إنما يخضع للوظيفة الكليَّة التي تهدف إليها القصيدة ،

---

(١) الصورة الفنية في الشعر الإسلامي عند المرأة العربيَّة في العصر الحديث ، دكتور صالح بن عبد الله الخضيري ، مكتبة التوبة ، الرياض ، ط . الأولى ، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٣م ، ص١٧ .

فلم يكن التشبيه في القصيدة من أجل عقد المشاكلة والمشابهة بين المشبَّه والمشبه به ، كما لم يكن من أجل إحراز المهارة والبراعةِ والدقة في التوفيق بين طرفي التشبيه ثم الاستغناء بعد هذا عن أي هدف آخر ، وإنما عملت الصورة والتشبيه على الربط والتوحيد ، وعلى إشاعةِ إحساسٍ واحدٍ مهيمن قادر على نقل التجربة التي عاناها الشاعر)) [١] .

فـ ((غنيٌّ عن البيان أن الصورة التي تكتفي بمجرد المقابلة بين طرفي التشبيه في بيتٍ واحدٍ غير الصورة التي تنأى عن الشيء وشبهه وتخرجُ إلى آفاقٍ أرحب ، وتنقل القارئ إلى أجواء نفسيَّة غير محددة بمدلولاتِ الألفاظ الحرفية ، إننا أمام صورة كهذه بحاجةٍ إلى أن نتأمَّل الأبعاد الأخرى غير المباشرة التي تعمل الكلمات على إبرازها ، وذلك بتتبُّع أجزاء الصورة ، وإدراك ما ينطوي وراء هذه الكلمات من إحساسٍ موحَّد)) [٢] .

فيعمد الشاعر في الصورة الممتدة إلى خلق عالمٍ خاصّ تتآزر في تكوينه جملة من الصُّور يجمعها خيطٌ واحد يسهلُ على القارئ مع شيء من إمعان النظر أن يلاحظه[٣] .

وسنعرض لبعضٍ من هذه الصُّور الممتدَّة ، المستمدَّة من الخيال البدويِّ في الشعر الأندلسيّ ، الذي كانت تكثر فيه هذه الصُّور ذات العلاقاتِ النامية في القصيدة .

ومن الأمثلة على ذلك قصيدة لابن خفاجة بدأها بقوله[٤] :

كفانيَ شكوى أن أرى المجدَ شاكيًا وحسبُ الرّزَايا أن تراني باكيًا

---

(١) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ، دكتور محمد زكي العشماوي ، دار المعرفة الجامعيّة ، الإسكندريَّة ، ٢٠٠٠م ، ص٢١٦ .

(٢) المرجع السَّابق ، ص١٥٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص١٥٢

(٤) ديوان ابن خفاجة ، ص١٩٨ .

وهي قصيدةٌ حذا فيها حذو أبي الطيب في قصيدته التي أوَّلها[1] :

كفى بكَ داءً أن ترى الموتَ شافيا وحسبُ المنايَا أن يكنَّ أمانيا

وقصيدة ابن خفاجة طويلة تصل إلى ثلاثةٍ وأربعين بيتاً معظمها في الرِّثاء ، وفيها يقول[2] :

أحنُّ إذا ما عسعسَ اللَّيلُ حنَّةً تُذيبُ الحوايا أو تفضُّ التراقيا
وأُرخصُ أعلاقَ الدُّموعِ صبابةً وعهدي باعلاقِ الدُّموعِ غواليا
فما بنتُ أيكٍ بالعراءِ مرنَّةٍ تنادي هديلاً قد أضلَّتهُ نائيا
وتندبُ عهداً قد تقضَّى برامةٍ ووكراً بأكنافِ المشقَّرِ خاليَا
بأخفقَ أحشاءً[3] وأنبى[4] حشيَّةً[5] وأضرمَ أنفاساً وأبدى مآقيَا
فمن قائلٍ عنِّي لوادٍ بذي الغَضَا تأرَّج مع الإمساءِ حيَّتَ واديا
وعلِّل بريَّا الرَّندِ نفساً عليلةً مع الصبح يندى أو مع اللَّيلِ هاديَا

والقصيدة نموذج واضحٌ للصُّورة البدويَّة الممتدّة ، إذ تكثر فيها مجموعةٌ من التشبيهاتِ والاستعارات ، بحيث تتشكّلُ من خلالها صورة ناميةٌ ذاتُ جوٍّ نفسيٍّ واحد يلائمُ موضوع القصيدة ، ففي البيت الأوَّل شبّه الشاعر صوت بكائِهِ حين يعسعس الليل ويقبل بظلامه[6] ، بصوتِ حنينِ الناقة الذي ترفعه حين تشتاق ولدها وتنزعُ إليه ، وهو صوتٌ قويٌّ موجع ، لأنه قال : (تذيب الحوايا أو تفضُّ التراقيا) والحوايا : ما تحوَّى من الأمعاء[7] ، وقال (تذيبُ) أي :

---

(١) ديوان المتنبي ، ٤/٤١٧ .
(٢) ديوان ابن خفاجة ، ص١٩٩ .
(٣) أحشاءً : جمع حشا ، وهو ظاهر البطن أي الحضن ، انظر : اللِّسان ، مادة (حشا) .
(٤) أنبى : أجفى ، انظر : اللِّسان ، مادة (نبا) .
(٥) الحشيَّة : الوسادة والفراش ، انظر : اللِّسان ، مادة (حشا) .
(٦) انظر : اللِّسان ، مادة (عسعس) .
(٧) انظر : اللِّسان ، مادة (حوا) .

تصهر فدلَّ على شدّة اشتعال الوجد وحرقة الفقد ، والتراقي (عظم وصل بين النحر والعاتق) [1] ، وقال تفضُّ أي (تفرّق وتكسر) [2] ، فدل بذلك على صياحٍ وعويل شقَّ الحلقَ ومزَّقهِ ، ثم أردف هذه الصورة بقوله : إنه أرخص أعلاق الدموع ، أي : لم يمنعها ، وفي قوله (أرخص) دلالة على خروجِ الأمر من يده ، وذهاب القدرة على التحكُّم بالوجعِ والبكاء ، بعد أن كان يملكُ أمره ، ثم جاء بالتشبيه الدائري البدويّ الذي شبه فيه نفسه بالحمامةِ المرنِّة التي تبكي هديلها وهو فرخها[3] ، وهي قصّةٌ قديمةٌ أشار بها إلى الأصل النوحي الذي دأب الشعراءُ في قصائدهم يذكرونه ، ويصفونه ، ويجعلونه سبباً يهيجُ الحنين والبكاء ، ومطَلَ صورة الحمامة فهي تبكي هديلاً وتندب عهداً برامة والمشقَّر ، ثم جاء بالمشبه وهو نفسه بعد (أفعل التفضيلَ) فقال إنه : (أخفقَ أحشاءً) ، وهي كناية عن القلب الذي هو موضع الوجيفِ والخفقان ، و (أنبَى حشيَّةً) وهي كناية عن السُّهاد وعدم الرُّقاد ، و (أضرم أنفاساً) وأراد بها نار الفقد ولوعته ، و (أندى مآقيا) وهو البكاء الغزير ، وبعد هذا التشبيه ذكر الرَّند والغضا فحيَّاهما ، وهما من رموز البادية ، فابن خفاجة يذكر رامة والغضا ، في سياقٍ أبان فيه عن لوعةٍ بالغةٍ ، وتشوُّق عظيمٍ إلى من فقد ، وخصوصيَّةُ السياق هنا أنَّه ذكر هذه الرموز البدويَّة وهو في قمَّة الحنين وقمَّة التشوُّق ، ممَّا لم يكن هناك سبيلٌ إلى إشباعه وإروائِهِ أو تمنِّيه ، وليس هناك أشقّ على النفس من حنينها المتوهِّج إلى من تحبّ ، وقد طوتْه الأرضُ فلا سبيلَ إلى لقاء ، فهل كانت الرموز البدويَّة إشاراتٍ إلى فقدٍ لا بديل عنه ولا سبيلَ لعودته ورؤيته؟! قد يكون ! لأنَّه ذكر بعد ذلك في رسالةٍ أعقبت القصيدة أنه جاء بها

---

(١) انظر : اللِّسان ، مادة (ترق) .

(٢) انظر : اللِّسان ، مادة (فضض) .

(٣) الهديل : فرخ كان على عهد نوح عليه السلام ، فماتَ ضيعةً وعطشاً ، فيقولون : إنه ليس من حمامة إلاّ وهي تبكي عليه ، انظر : اللِّسان ، مادة (هدل) .

على (أنَّها خيالاتٍ تنصُب ، ومثالاتٍ تضرب)[1] ولذلك جاء بصورةٍ أخرى أو مقطع آخر في القصيدة برزت فيه (نجد) فقال[2] :

وإنَّ أجـدَّ الوجـدِ وجـدٌ بـأشمطٍ تلـدَّدَ يسـتقري الرسـومَ البواليَـا
وتـهـفـو صَبا نجدٍ به طيـبَ نفحـةٍ فيلقـى صَـبًا نجـدٍ بمـا كـانَ لاقيـا
فقل لليالي الخيـفِ هـل مـن معـرَّجٍ علينـا ولـو طيفـاً سُـقيتِ لياليـا
وردِّد بـهـاتيك الأباطحِ والـرُّبـى تحيَّـةَ نـاءٍ لـيس يرجـو التَّلاقيـا

فذكر الوجد ، ونجد ، وخاطب زماناً تقضّى في الخيف ، وشخَّصه ، وتمنّى ما لا سبيلَ إليه ورجى حينَ لا ينفعُ الرَّجاء ، وقوله (بأشمطَ) أراد به أنَّه رجلٌ كبر في السنّ ، ولذا كان الوجدُ أوجع ، واللَّوعة أشدّ .

فجاءت الصورة الممتدَّة ـ في خلال القصيدة ـ متلائمةً يجمع بينها خيطٌ نفسي عاطفيٌّ قويّ ، وهو شدَّة الحزن ، لأنَّ السياق سياق رثاء لأصحاب ، وليسَ رثاءً لوزيرٍ أو ملكٍ ، ممَّا جعل القصيدة تنطق بعاطفة سخيَّة .

ومن الصُّور الممتدَّة الأخرى التي تنامت بعلاقاتها في عدَّة أبيات ، قول ابن خفاجة في سياقِ رثاءٍ أيضاً[3] :

فليتَ نسيمَ الريحِ رقـرقَ[4] أدمعـي خـلالَ ديـارٍ بـاللِّوى وخيـامِ
وعاجَ على أجراعِ وادٍ بـذي الغضـى فصـافَح عنّـي فـرعَ كـلِّ بشـامِ[5]
مسحتُ لـهُ عـن نـاظريّ صـبابةً وأقلـلْ بـدمعي مـن قضـاءِ ذِمـامِ[6]

---

(١) ديوان ابن خفاجة ، ص١٢٨ .
(٢) المصدر السَّابق ، ص٢٠٠ .
(٣) المصدر السَّابق ، ص٥٣ .
(٤) رقرق : أجرى ، انظر : اللِّسان ، مادة (رقق) .
(٥) بشام : شجر طيب الريح والطعم يستاك به ، انظر : اللِّسان ، مادة (بشم) .
(٦) الذمام : الحرمة ، وهي كلُّ حرمة تلزمك إذا ضيعتها المذمّة ، ولذلك يسمّى أهل العهد أهل الذمة ، انظر : اللِّسان ، مادة (ذمم) .

فيا عرفَ ريحٍ[1] عاجَ من بطنِ لعلعٍ يجرُّ على الأنداءِ فضلَ زمامِ[2]
بما بيننا بالحقفِ[3] من رملِ عالجٍ وفي ملتقى الأرطَى[4] بسفحِ[5] شمامِ[6]
تلدَّدْ بدارِ القصْفِ[7] عنِّي ساعةً وأبلغْ نداماهَا أعزَّ سَلامِ

فقال (ليت) وهو لفظُ تمنٍّ ، نفث ابن خفاجة بعده نفثةً بدويَّة بأن شخَّص النَّسيم ، وتمنَّاهُ رسولاً يجري دمعُه خلال الدِّيارِ والخيام ، وقال خلال الديار : أي حواليها وما بين بيوتها[8] ، وأراد به أن لا يغادر منها شيئاً ، ثم زادت هذه النفثة البدويَّة بذكر الغضا ، والبشام ، فأثرى الصورة بالرموز البدويَّة الحنينيَّة ، فذكر البشام الذي يدلُّ على غاية الحنين ، ثم قال : (مسحت له عن ناظري صبابةً) والهاء في (له) تعودُ لنسيمُ الريح ، وقوله (مسحتُ له) أي جعلتُ أمسحُ الدمع لكثرته شوقاً ، فالصبابة الشوق وقيل رقته وحرارته[9] ، ولذلك قال في البيت الثاني (أَقْلِل) أي أن ما أفعله قليل ، لم أقضِ فيه حقَّ هذا الشوّق ، وحرمة الوفاء ، ثم عاد فشخَّص الريح أو عُرْفَها ورائحتها الطيبة فاستعار لها من الناقة الزِّمام والحبل الذي تجرُّه على الأنداء ، أي مكان الاجتماع القديم مع من اشتاق لهم وحال بينه وإيَّاهم الموت ، وقال (تجرُّ على الأنداء) لأنه أراد

---

(١) العرف : الريح ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرف) .

(٢) الزمام : الخيط الذي يشدُّ في طرفه مقودُ البعير ، انظر : اللِّسان ، مادة (زمم).

(٣) الحقف : ما اعوجَّ من الرَّمل ، انظر : اللِّسان ، مادة (حقف).

(٤) الأرطى : شجر ينبت بالرَّمل ، قيل هو شبيه بالغضا رائحته طيبة ، انظر : اللِّسان ، مادة (أرط).

(٥) السفح : عرض الجبل ، حيث يسفح فيه الماء ، انظر : اللِّسان ، مادة (سفح).

(٦) الشمام : جبلٌ له رأسان يسميَّان ابني شمام ، وشمام ، اسم جبل بالعالية ، انظر : اللِّسان ، مادة (شمم).

(٧) القصف : الرقص مع الجلبة ، انظر : أساس البلاغة ، الزمخشري ، ٢٥٨/٢ ، مادة (قصف).

(٨) انظر : اللِّسان ، مادة (خلل).

(٩) انظر : اللِّسان ، مادة (صبب).

إرسالَ سلامٍ عذب طيب الرائحة يطوف بأماكنِ ذكرياتِ عهدٍ قديمٍ تقضَّى ، ولذلك طلبَ من هذا العرف أو النسيم أو الريح واستحلفه بما كان بينهما في رمل عالج وسفح شمام ، أن تتلدَّد أي تتلفَّت يميناً وشمالاً[1] بهذه الدار (دار القصف) في كنايةٍ عن اللهو وأيَّامه .

فالترابط القويّ في هذه الصُّورة ، كان من خلال إثرائها حنينياً بالرموز البدويَّة : اللَّوى ، الغضا ، لعلع ، الشَّمام ، البشام ، وأيضاً الحقف ، وعالج ، وربط فيها أيضاً بين نسيم الريح وعرفها والبشام والأرطى من خلال الرائحة الطيبة ، وجمع بين أماكن بدويَّة متعددة متباعدة ، بإرسال الريح لتبلِّغ السلام ، وتطوف أو تجوس خلال هذه الديار ، ولاءم في المعاني بين محافظته على الذِّمام واستحلافه الريح في قوله (بما بيننا) ، ولاءم أيضاً بين (الأنداء) و (دار القصف) وهما أماكن الاجتماع بمن كان السياق في رثائهم .

والصُّورة الممتدَّة هنا جمع بين أجزائها النَّفس الحنيني الذي أبرزته الرموز البدويَّة ، والخيط الدقيق من الحزن ، الذي لفَّ الصُّورة وطبعها بطابع الأسى ، وهو ما برز أيضاً من خلال التركيب والصياغة ، لأنَّ الصورة لا تنفصلُ عن اللغة أو الألفاظ التي تجسدها .

وتأتي هذه الصُّورة الممتدَّة في خلال سياقاتٍ كثيرة ومنها النسيب ، من مثل قول الرُّصافي البلنسي[2] :

وقيلَ تناءى عهدُ عمرةَ بالحمى ... وما سرَّني أن كانَ ظنَّا مُرَجَّمَا

وهيهاتَ يمحو الدَّهرُ أو ينسخُ العِدَا ... لها في حصاةِ القلبِ ما قد ترسَّمَا

بسطتُ يدَ المضطَّر في الحبِّ نحوها ... وإن بتُّ منها يائسَ الحظِّ مُغرمَا

فقال (عمرة) وهو اسم بدويّ ، وقال (تناءى) أي بَعُد ، ونسب هذا القول إلى أُناسٍ من الحمى ظنَّوا ذلك وهو غير صحيح ، وذكر أنَّه ساءه هذا الظنّ ، وأنَّه

---

(١) انظر : اللِّسان ، مادة (لدد) .

(٢) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها ، دكتور إبراهيم بن مراد ، ص١٨٥ .

لم يكن حقًّا ، لأنه حبٌّ ثابت بعيد عن أن يزول ، ولذلك قال في البيت التالي (هيهات) وهو اسم فعلٍ بمعنى تباعَدَ ، أي أنَّه بعيدٌ لن يحدث ، وهو ظنُّهم ، فهو حبٌّ لا يُمحى[1] ولا ينسخ[2] ، أي : لا يذهبُ أثره ، ولا يبطلُ ويقوم غيره مقامه ، في دلالةٍ على ثباتِ هذا الحبِّ في قلبه حتَّى أنَّه أثَّر في القلب أثراً لاصقاً لا يذهب ؛ ولذلك جعل القلب حصاةً لأنَّ الأثر في الحصاة ثابتٌ لا يزول .

وجاء في البيت الثالث بصورةٍ بصريَّةٍ لرجلٍ محتاجٍ بسط يده يمدُّها بالحبِّ دون أن ينال من ذلك شيئاً ، وقول مضطَّر : كلمة موحيةٌ بالحاجة التي دعاه إليها الحبّ ، ممَّا جعله يمدُّ يده طلباً لهذا الحبّ منها ، وغراماً بها ، وقد اختار لمن يهوى اسم (عمرة) من الأسماء البدويَّة الكثيرة لملائمة دلالة العمر فيه مع الثبات الذي تركه حبها في قلبه ، وصوَّره في شعره ، فعمرَ وبقيَ .

ثم جاء بعد ذلك بمقطع وصفها فيه ، فقال[3] :

من الواقياتِ[4] النُّهضِ[5] تلتقطُ الـخُـطى بسوسنِ[6] روضٍ قد نأى المحلُ[7] عنهما

---

(١) محا الشيء : أذهب أثره ، انظر : اللِّسان ، مادة (محا) .

(٢) النسخ : إبطالُ الشيء وإقامة آخر مقامه ، انظر : اللِّسان ، مادة (نسخ) .

(٣) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها ، دكتور إبراهيم بن مراد ، ص١٨٥ .

(٤) الواقيات : الواقية الفرس التي بها ظلع ، انظر : اللِّسان ، مادة (وقي) ، ومن المجاز فرسٌ واقٍ يهابُ المشيَ من وجع يجده في حافره ، انظر : أساس البلاغة ، الزمخشري ، ٢/٥٢٤ ، مادة (وقي) .

(٥) النهض : البراح من الموضع والقيام عنه ، ونهض أي قام ، انظر : اللِّسان ، مادة (نهض) .

(٦) السوسن : نبتٌ أعجمي معرب ، وقد جرى في كلام العرب ، وأجناسه كثيرة ، وأطيبه الأبيض ، قال الأعشى :(وآسٌ وخيريٌ ومروٌ وسوسن) انظر : اللِّسان ، مادة (سوسن).

(٧) المحل : الجدب والقحط ، انظر : اللِّسان ، مادة (محل) .

كأنَّ فراغَ البُـردِ[1] عنـدَ اعتراضِـهَا[2] حشتهُ نقـاً سَـهْلاً وغُصْـناً مُقَوَّمَـا

وفي هذا المقطع صوَّر عمرةَ ، بعد أن صوَّر هواها ، فأخذ لها من الفرس صفةَ التوقِّي وهي مشيةٌ في الفرسِ إذا شكى من حافره ، وهي أختُ تشبيه مشية المرأة بمشي البعير الذي يشكو الوجا وهو الحفاء عند الأعشى[3]، وأرادوا بذلك أن يصفوا في المرأة تثاقُلها وقِصَرَ خطوها ، وهي من السماتِ البدويَّة المميَّزة في مشية المرأة التي تدلُّ على امتلائها ، ثم زاد الرصافي في الصفة بأن جعلها تلتقط الخطى فشبَّه مشيتها وخطاها القصيرة باللَّقط ، لأن الذي يلتقط من الأرض يقاربُ الخطو جدًّا ، ثم أضافَ إلى الصورة بأن نثر في جوانبها الروض والسوسن ، بما أشاع به جوًّا من الاحتفاء بهذه المعشوقة التي جعل مواطئها من الأرض زهراً وروضاً ذهب عنه بمشيتها الجدبُ والقحط ، ثمَّ هو لمَّا وصف المشية المتثاقلة التي أدَّى إليها امتلاءُ قوامها ، عادَ فصوَّر هذا القوام في البيت التالي : فشبَّه جسدها حين تنزعُ عنها بُردها وتظهر منه بالنَّقى وهو الكثيبُ من الرَّملِ السَّهل ، وأراد به نعومة أردافها ، وقال : غصناً مقوَّماً أي أنها حسنةُ الطول تشبه الغصن المقوَّم أي المستقيم[4] ، ومن دقائق الصُّورة هنا ، أنه لمَّا وصف قوامها وجسدها احترز بقوله ـ عند اعتراضها ـ أي أنَّه اعترضها هو ، ونظر إليها نظرةً عارضةً لم تقصد هي إليها ، ممَّا أحاط به وصفه لها بحياضٍ من معاني العفَّة والبراءة فيها ، وهي من المعاني البدويَّة القديمة في الشعر ، التي نظر فيها الشعراءُ إلى المرأةِ غالباً بعين العناية والرعاية ، أو الخوف من

---

(١) فراغ البرد : خلوه منها ، انظر : اللِّسان ، مادة (فرغ) .

(٢) اعتراضها : ظهورها وبروزها عرضاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرض) .

(٣) في قوله :

غـرّاءَ فرعـاءَ مصـقول عوارضُـها تمشي الـهوينى كما يـمشي الوجِي الوحِلُ

ديوان الأعشى ، ص٢٧٨ .

(٤) انظر : اللِّسان ، مادة (قوم) .

حمايةِ أهلها وأوليائها ومنعتهم[1] ، فقال الرُّصافي بعد ذلك ما أكَّد به هذا المعنى وهو العفّة[2] :

وقد أمَرَتْ أن أقصرَ الطَّرفَ دونَها ... على حَرَجٍ منها لأمرٍ تقدَّمَا
وما جئتُ أمراً مُوجِباً لي ريبةً ... سوى أن سرحتُ الطَّرفَ في حوَّة اللمى
وما ضرَّني تسويفُ طرفيَ ساعةً ... ولكنَّها افترَّت فأعجلني الظَّما

وهي صورةٌ فيها من معاني الشوق والولع والوله عنده : في نظرٍ مسوَّفٍ مسرَّح ، وظمأ للشفاهِ اللمياء ، وفيها من معاني التمنُّع والتعفف عندها : في الأمر بقصر الطرف ، ومن معاني الإغراء في قوله : (افترَّت) أي كشفت عن أسنانها فظهرت له[3] ، وفي قوله (افترَّت) الذي يشي بمعنى الإغراء النقي شبَهٌ من قول زهير بن أبي سلمى في ابنة البكري[4] :

قامت تبدَّى بذي ضالٍ لتحزنني ... ولا محالةَ أن يشتاقَ من عشقَا

وهو وصفٌ لا يتناقضُ مع معاني العفَّة التي أحاطها بها ، ولكنَّه يُلْمِحُ إلى صفات الأنوثةِ والدلالِ فيها .

وفي مقطع أخير من القصيدة ، يقول الرُّصافي في عمرة[5] :

فلا زالَ صبحٌ بين قرطيكِ طالعاً ... يحفُّ[6] بوحفٍ[7] من فروعكِ أسْحَمَا[8]

---

(١) ولذلك قال النابغة في قصيدة المتجردة :

سقط النصيفُ ــ ولم ترد إسقاطه ــ ... فتناولته واتَّقتنا باليدِ

ديوان النابغة ، ص٩٦ ، فاحترز بقوله ـ ولم ترد إسقاطه ـ ، . .

(٢) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها ، دكتور إبراهيم بن مراد ، ص١٨٦ .

(٣) انظر : اللِّسان ، مادة (فرر) .

(٤) ديوان زهير بن أبي سلمى ، ص٥٤ .

(٥) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها ، دكتور إبراهيم بن مراد ، ص١٨٨ .

(٦) يحفُّ : يحيط ، انظر : اللِّسان ، مادة (حفف) .

(٧) الوحف : الشعر الأسود ، انظر : اللِّسان ، مادة (وحف) .

(٨) أسحم : أسود ، انظر : اللِّسان ، مادة (سحم) .

ولا بَرحَتْ شمسٌ وظلٌّ غمامةٍ على قدْرِ ما تقتاتُ[1] أرضكِ منهما
إلى أن يريعَ[2] القيظُ يا عمرُ عندكمْ وينمي ويجري العامُ واديكِ أنعما
وحتّى يكادُ الزَّرعُ حولكِ يحتمي بخضرتِهِ من أن يشيبَ ويَهْرَمَا

فصورة عمرةَ هنا بدويَّة السِّمات كما كانت عليه في المقاطع السابقة ، فقد كنَّى الرُّصافي عن بياضِ وجهها وإشراقه بأن جعل الشمس المنيرة تطلع بين قرطيها ، وزاد في ظهور هذا البياض المشرق ، أنَّه أُحيط بشعرٍ كثيفٍ أسود ، والتطابقُ في الصُّورة ، بين الإشراق والظلام أضفى عليها ملمحاً لونيًّا أبرز الصفتين ، ثم ختم القصيدة بدعاءٍ بدويٍّ قديمٍ بالمطر والسقيا والغيث ، وهو دعاءٌ فيه رحمة وحنانٌ وتعطُّفٌ ورعاية ، لأنه دعاءٌ بالخصبِ والحياة والنماء والخير ، فقال[3] :

ولا برحتْ شمسٌ وظلٌّ غمامةٍ على قدرِ ما تقتاتُ أرضُكِ منهما

إذا نظرنا لدقائق الصُّورة وجدناه يعتني بعمرة منذ البداية ، اعتناءه الآن بديارها فدعا بأن لا يلحقَ بأرضها السوءُ أبداً ، فلم يدعُ بمطر دائم ، ولا ظلٍّ دائم ، لانَّ هذا ممَّا ينافي الطبيعة وحاجة الأرضِ وما يطرأ على النفوسِ من سأم ، ولذلك احتاط بقوله (على قدر ما تقتاتُ أرضك منهما) فاستعار للأرض من الإنسان الاقتيات ، وهو تناول ما يقوم به بدَن الإنسان من طعام ، فلا زيادةٌ تقتل ، ولا نقصٌ يهلك ، ثم مطلَ الصورة في البيت التالي ومدَّها فقال : (إلى أن يريعَ القيظُ) ، وأراد بهذه الاستعارة أن يتحوَّل القيظ خصباً ونماءً وريعاً ، وهي حالٌ اختلفت بها ديارُها عمَّا سواها ، ولذلك قال (عندكم) بما ناسبَ به صورة (نأي المحل) عن الروض الذي مشت به سابقاً ، وقوله (يريع القيظُ) يشبه ما أراده عمر بن أبي ربيعة عندما قال في صاحبته[4] :

---

(١) تقتات : تأكل ، انظر : اللِّسان ، مادة (قوت) .
(٢) يريع : الريع النماء والزيادة في المرعى وغيره ، انظر : اللِّسان ، مادة (ريع).
(٣) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها ، دكتور إبراهيم بن مراد ، ص١٨٨.
(٤) ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ص١٠١ .

ولهـــا عينـــانِ في طرفيهمَـــا حـــورٌ منـــها وفي الجيـــدِ غَيـــدْ
طفلـــةٌ بـــاردةُ القـــيظِ إذا معمعـــانُ الصَّـــيف أضـــحى يتَّقـــدْ

وقال الرُّصافي (يا عمرُ) وفيه ترخيم للاسم تحبُّباً وتلطُّفاً في الخطاب وتدليلاً لها ، وزاد بأن جاء بما رادف الربيع وهو النماء وناسب قوله (يربع القيظ) و (عندكم) ، بأن قال (يجري العام واديك أنعُمَا) ، فالحَّ على صورةِ الخصبِ والنماء الذي أراده بتحوُّل القيظ خصباً ، وجعله ينمي ويجري طوال العام في ديارها ، وخصَّ مكانها ، بإضافته كاف الخطاب في قوله (واديك) كما قال (عندكم) ، وأراد بقوله (إلى أن) و (حتّى يكاد) أن يصلَ الخصبُ والنمَّاء حدًّا لا غاية بعده ، ولذلك جاء بصورةٍ لزرعٍ اشتدَّت خضرتُه حتّى منعته هذه الخضرة من أن يتحوَّل إلى هشيمٍ جافٍ في استعارةٍ لصفتي الشَّيب والهرم من الإنسان ، أراد بها أن يصل حدًّا خارقاً مناقضاً للطبيعة ، يظلُّ فيه مخضرًّا نَضِراً لا يتغيَّر أبداً .

والصُّورة منذ البداية ، متداخلة متناميةٌ ، فيها عناية ورعايةٌ وإحاطةٌ وحدب في وصف عمرة ، ووصف مشاعره تجاهها ، ووصف أرضها التي دعا لها ، وهي محاطةٌ بخيطٍ دقيقٍ يجمع بين هذه الصُّور ، التي تبعد حتَّى في أوصاف عمرة الحسيَّة عن الماديَّة ، وإنَّما جاء بوصفٍ لامرأةٍ أحاطَ حبَّها الموسومَ في قلبه بصفةِ الدَّوام ، وسيَّج وصفه جسدها بسياج العفَّة والدلال ، لأنه جعل الأرض تحتها زهراً وسوسناً ، وحفَّ أرضها بالدعاء لها بالخصبِ والنماء .

فالصورةُ منذ البداية ، صورة حبّ وعناية ورعاية ، تداخلت البداوة في جزيئاتها وكلياتها ، وتنامت ، لتصف عذريَّة هوى بدويٍّ ، فيه شوبٌ من حدبٍ وحنوّ أبويٍّ .

ومن الصُّور الممتدة أيضاً ، صورةٌ لابن درَّاج في النسيب ، صوَّر فيها طيفَ من يهوى في أبياتٍ كثيرةٍ فصَّل فيها الوصف ، فقال[1] :

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص١٨٧ .

أنـــورك أم أوقـــدتِ بالليـــلِ نـــارك ... لبـــاغٍ قـــراكِ أو لبـــاغٍ جـــوارك؟!
وريَّـــاكِ أم عـــرفُ المجـــامرِ[1] أشـــعلتْ ... بعودِ البكـــاءِ[2] والألـــوَّة[3] نـــارك؟!
ومبســـمكِ الوضَّـــاحُ أم ضـــوءُ بـــارقٍ ... حـــداهُ دعـــائي أن يجـــودَ ديـــارك؟!
وخلخالكِ استنضـــيتِ[4] أم قمـــرٌ بَـــدَا ... وشمسٌ تبدَّتْ أم ألحـــتِ[5] ســـوارك؟!

فجاء بمشبَّهاتٍ ثم مشبَّهاتٍ بها بعد (أم) التي للتخيير ، وأراد بها أن الصفة في هذا المشبه قويت حتّى تكاد تكون مشبَّهاً به ، مبالغةً منه في هذه الصِّفة ، فشبَّه نور وجهها في البيت الأوَّل وإشراقه بالنَّار الموقدة ، وجعلها ناراً بدويَّة لأنه قال (لباغٍ قرى أو جوار) وإيقاد النار لهذين السببين كان من العاداتِ البدويَّة المتوارثة التي درج عليها كبراء القوم وساداتهم ، وتمدَّحوا بها ، وهي نارٌ عظيمةٌ إذا كانت لهذه الغاية لأن موقدها رجلٌ كريمٌ في قومه يقصده الناس ، ولذلك كانوا يرفعون النار فوق عالٍ من الأرض ويزيدون في إيقادها ليستدل عليهم السَّارون من بعيد .

ورَفْعُ النَّار البدويَّة للضيفان في الشِّعر ذكرها الشعراء الأندلسيُّون كثيراً ومنهم ابن خفاجة الذي رفع ناره لطيفٍ زائر ، فقال[6] :

فرفعـــتُ مـــن نـــاري لضـــيفٍ طـــارقٍ ... يعشُـــو إليهـــا مـــن خيـــالٍ طـــارِي

إلاَّ أن ابن درَّاج شبَّه الطَّيف بالنَّار الموقدة للضيف ، وأراد بذلك أن هذه النار توقد في البوادي والفيافي ، فمن يراها من بعيد في الصحارى المهلكة المضلَّةِ يستبشر بها ، ويسري في نفسه الابتهاج بالأمان لرؤيتها ، يقيناً بالقرى والإكرام ،

---

(١) المجامر : جمع مجمرة وهي التي يوضع فيها الجمر وتدخن بها الثياب ، واستجمر بالجمر إذا تبخَّر بالعود ، انظر : اللِّسان ، مادة (جمر) .
(٢) الكباء : ضربٌ من العود يتبخّر به ، انظر : اللِّسان ، مادة (كبا) .
(٣) الألوّة : العودُ الذي يتبخَّر به ، انظر : اللِّسان ، مادة (ألا) .
(٤) استنضيتِ : خلعت ، انظر : اللِّسان ، مادة (نضا) .
(٥) ألحتِ : حرَّكتِ فأومض ، انظر : اللِّسان ، مادة (لوح) .
(٦) ديوان ابن خفاجة ، ص٣٣ .

ولهذه الدلالات وغيرها شبَّه ابن درَّاج طيفَ من يهوى بنار القرى التي أُوقدتْ له فأشرقت نفسه بالابتهاج لرؤيته ، وفي البيت الثاني شبَّه ريَّا من يهوى أي رائحتها العطرة الزكيَّة[1]، برائحة المجامر المشعلة بعود الألوَّةِ والكباء ، وهو طيبٌ كانت النساءُ تتبخر به ، مشهورٌ برائحتهِ القويَّة النَّفاذة ، ذكره الشعراءُ منذ القدم[2]، وذِكْرُه (المجامر) و(الإشعال) لاءم به النَّار الموقدة للقرى ، وأراد بهذين الوصفين إشراقاً وضياءً ورائحة عطرة نفَّاذة ، تظهر وتسري من بعيد .

ثمَّ صوَّر الثغر والمبسم : فشبَّه أسنانها في التكشُّف والبياض بالبرق الذي يومض فيبدو ثم يختفي ، وهو تشبيه قديم ، جمع فيه الشعراء بين ابتسامةِ المرأة وما تحدثه من إشراق الأمل بالوصل في قلبِ من يهواها ، وإيماض البرق وما تحدثه رؤيته من السَّعادة لتوقع المطر ، ولاءم ابن درَّاج بين صورة الوجه الذي شبَّهه بالنار المضيئة ، وصورة توضُّح الأسنانِ وبياضها الذي شبهه بلمع البرق ، وهي صورةٌ أراد بها وصفَ إشراق قلبه برؤيتها وتكشف ظلمة نفسه التي حنَّت إليها .

ثمَّ جاء بصورة زادت في صفة الضياء في قوله (وخلخالك استنضيتِ أم قمرٌ بدا) فذكر الخلخال ، وأراد الساق التي هي موضعه ، وشبهه بالقمر المضيء ، وهي كنايةٌ نسبة ، وقال (وشمسٌ تبدَّت أم ألحتِ سوارك) فذكر السوار وأراد الذراع التي هي موضعه وشبهه بالشمس المشرقة ، وهي كناية نسبةٍ أيضاً ، ومطلَ الصُّورة بعد ذلك بأبياتٍ فقال[3] :

وللصبحِ فيما بينَ قرطيكِ مطلعٌ ... وقد سكنَ الليلُ البهيمُ خمارِكِ

فكنّى بقوله (للصبح فيما بين قرطيك مطلعٌ) عن إشراق وجهها الذي شبهه بالشمس المضيئة ، واستعار لليل السكن وشبه به الخمار ، وزاد في صفةِ سواد

---

(١) انظر : اللِّسان ، مادة (روي) .

(٢) قال امرؤ القيس :

وباناً وألوَّياً من الهند ذاكياً ... ورنداً ولبنى والكباءَ المقتَّرا

ديوان امرئ القيس ، ص٩٤ .

(٣) ديوان ابن درَّاج ، ص١٨٧ .

هذا الخمار بقوله (البهيم) أي شديد السواد ، وأراد بهذا التطابق بين اللونين ، إبراز صفة البياض والإشراق للوجه .

وهذا المقطعُ من القصيدة مقطعٌ نورانيٌّ لأنه وصف إشراقاً مضيئاً لطيفِ امرأةٍ يهواها جمع في هذا الوصفِ لها بين الصُّور البصريَّة والشميَّة والصوتيَّة ، فذكر النار ، والبرق ، والقمر ، والشمس ، ممّا شبه به الوجه والثغر والساق والذراع ، وذكر المجامر والعود والألوَّة ، وشبه بها رائحتها ، وذكر الخلخال والسوار وفيهما جرس الصوت ، وكلُّها دلالات إيماض وإشراق ووضاءة في قلب الشاعر الذي أعطى طيف من يهواها هذه الصفات ، وأضفاها عليها من وحي شعوره بها ، وبهاء طيفها في نفسه .

ثمَّ صوَّر ابن درَّاج بعد ذلك الطريق الذي قطعه الطيفُ الزائر ، فقال[1]:

وطيفـــكِ أســـرى فاســـتثارَ تشـــوُّقي إلى العهدِ أم شـــوقي إليـــكِ اســـتثارك؟!

ومرتـــدُّ أنفاســـي إليـــكِ اســـتطاريِ أم الروحُ لـــمَّـــا رُدَّ فيَّ اســـتطارك؟!

وأراد الشاعر بهذه المجانساتِ اللفظيَّة من خلال الأسئلةِ المطروحة ، أن يوقع في نفسه أولاً قبل غيره ، أنَّ زيارة الطيف له ليست استدعاءً من الشاعر وشوقاً منه إلى من يهوى فقط ، وإنَّما هي شوقٌ أيضاً منها هي ، وهو بذلك يزيدُ من إشراق الصُّورة في نفسه ، لأنَّه أراد زيارة من طيفٍ مشتاقٍ على رغبةٍ أيضاً ، وليست استزارةً من الشاعر فقط ، وأراد ابن درَّاج أن يثبت هذا المعنى فصَّور في أبياتٍ أُخرى كيف أن هذا الطيفَ قطع المفاوز في سبيل لقائِهِ فقال[2] :

وكيـــف كتمـــتِ الليـــلَ وجهـــكِ مظلمـــاً أشعركِ اغشيتِ[3]السَّنا[4]أم شعارك[5]؟!

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص١٨٨ .

(٢) المصدر السَّابق ، ص١٨٩ .

(٣) أغشيت : غطيت ، انظر : اللِّسان ، مادة (غشا) .

(٤) السَّنا : الضوء ، انظر : اللِّسان ، مادة (سنا) .

(٥) الشعار : ما وليَ جسد الإنسان من ثياب ، انظر : اللِّسان ، مادة (شعر) .

وكيف اعتسفتِ[1] البيدَ لا في ظعائنٍ ولا شجرُ الخطيِّ[2] حفَّ[3] شجارك[4]؟!
ولا أذنَ الحيُّ الجميعَ برحلةٍ أراحَ لها راعي المخاضِ عشارك[5]
ولا أرزمتْ[6] خوصُ[7] المهارى[8] مجيبةً صهيلَ جيادٍ يكتنفنَ[9] قطارك[10]
ولا أذكتْ[11] الركبانُ عنكِ عيونها حذارَ عيونٍ[12] لا يسنمنَ حذارك

فتعجَّب في البيت الأوَّل من استتارها في الليل لزيارته وهي على إشراقٍ وضياءٍ شبهه سابقاً بالنَّار والشمس والقمر ، فجعلها ؛ إمَّا استترت بشعرها الشَّديد السواد ، أو بثيابها ، وهو ما مكَّنها أن تُغشي السَّنا أي تغطِّي ضياءَها ، وأراد بهذه الصُّورة أن ينفي استتارها وهي على هذا الإشراقِ والوضاءة ، ثمَّ صوَّر ما هي عليه من يحبُّ في الحقيقة وكيف ناقضت زيارة طيفها السريعة له ما يتخذه قومها من عدَّة عند الارتحال : فهي معوَّدةٌ على أن يُسيِّر أهلُها

---

(١) اعتسفتِ : قطعت دون هداية ، انظر : اللِّسان ، مادة (عسف) .
(٢) الخطيّ : الرماح المنسوبة إلى الخط ، موضع باليمامة ، انظر : اللِّسان ، مادة (خطط).
(٣) حفَّ : أحاط ، انظر : اللِّسان ، مادة (حفف).
(٤) شجارك : عود الهودج ، وقيل مركب أصغر من الهودج مكشوف الرأس ، انظر : اللِّسان ، مادة (شجر) .
(٥) العشار : الإبل التي مضى على حملها عشرة أشهر ، انظر : اللِّسان ، مادة (عشر).
(٦) أرزمت : الإرزام ضربٌ من حنين الناقة على ولدها حين ترأمه ، انظر : اللِّسان ، مادة (رزم) .
(٧) الخوص : ضيق العين وصغرها وغؤورها ، انظر : اللِّسان ، مادة (خوص) .
(٨) المهارى : الإبل المهريَّة المنسوبة إلى مهرة بن حيدان أبو قبيلة ، وهم حيٌّ عظيم ، انظر : اللِّسان ، مادة (مهر) .
(٩) يكتنفن : يُحطن به من جوانبه ، انظر : اللِّسان ، مادة (كنف) .
(١٠) قطارك : القطار أن تقطر الإبل بعضها إلى بعض على نسق واحد ، انظر : اللِّسان ، مادة (قطر) .
(١١) أذكت العيون : أرسلت الطلائع ، انظر : اللِّسان ، مادة (ذكا) .
(١٢) حذارَ عيون : خيفة وتيقظاً من عيون ، انظر : اللِّسان ، مادة (حذر) .

الرُّكبان عيوناً قبلهم خوفاً عليها من قطَّاعِ الطرقِ والطامعين ، وأن يريح القوم إبلهم الحوامل استعداداً لرحلة طويلة ، وأن تسيرَ هذه البدويَّة الممنَّعة في ظعائن ، تحفُّ هودجها الرماحُ والأسنَّة في قافلةٍ طويلة تسيرُ بها إبل ترزم وجيادٌ تصهل ، فذكر إرسال الطلائع ، وإراحة الإبل بما دلَّ به على الوقت الطويل في الاستعدادِ للرحلة ، وذكر أيضاً ما أحاط بها من فرسانٍ وعدَّة ، إضافةً للعيون المرسلة ، بما دلَّ به على حرص أهلها عليها ، وحمايتهم لها ، وهي صورةٌ تناقضُ زيارة طيفٍ قطع المفاوز دون قافلةٍ من الظعائن ، ودون حماية ، في سبيل الوصول إليه ، وجاء بمجانساتٍ لفظيَّة أولع بها ابن درَّاج كثيراً : (شجرِ ، شجارك) (رحلة ، أراح) (حذار ، حذارك) جمع في تصويرها بين البصر في ذكر الأشجار التي تحفُّ الركب والعشار المراحة ، والصَّوت في ذكر الإرزام والصهيل .

ثمَّ صوَّر ابن درَّاج بعد ذلك صعوباتٍ أُخرى كان على الطيف أن يتجاوزها ، فقال[1] :

وكم دونَ رحلي من قصورٍ مشيدةٍ تحرّمُ من قربِ المزارِ مزارَكِ
وقد زارتْ حولي أسودٌ تهامَستْ لها الأسدُ أن كفّي عن السَّمعِ زأرَكِ

فذكر في البيت الأوَّل أن حوله قصورٌ مشيّدةٌ تمنع عنه المزار وتحرّمه ، في عكسٍ لصورةِ فتاةِ الخدر الممنَّعة التي حرص الشعراءُ على أن يصوّروا زيارتهم لها ، وقدرتهم على خوض المهالك في سبيلها ، وقد جاءت معكوسةً عند ابن درَّاج ،لأنه ذكر زيارة طيف خياليّ غير حقيقيٍّ اعتسفَ البيدَ وقطع المفاوز في سبيل لقائِهِ ، والطيفُ يزور الشعراءَ كثيراً ، ويرحَّبُ به في الشعر ، وتوصف زيارته بكثيرٍ من الاحتفاء،وابن درَّاج بالغ في وصف منعتها وأهلها في الحقيقة، ولكنَّه لمَّا وصف طيفاً خياليًّا تسمَّح في أن يجعلها الراغبةَ الطالبةَ المغامرة ،

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص١٩٠ .

ولذلك قال (وكم دون رحلي من قصور مشيدة) فذكر القصور والرحل ، والرَّحل ملائمةٌ للصورة البدويَّة ، لأنه ذكر زيارة في بادية .

وجاء بالقصور لأنه كرجلٍ لا يحسن به أن ينسب لنفسه حماية أهل ومنعة فوارس ، وهو ما يليق بوصف المرأة ، لذلك ذكر القصور المشيَّدة وهي كنايةٌ عن منعته هو في ذاته ، ومكانته في قومه ، ولمَّا أثبت هذه الصفة لنفسه ، كان من المقبول أن يجعل حوله فوارسَ كالأسود أخافت أسد الفيافي بزئيرها فجعل الصفة في المشبَّه أقوى منها في المشبه به .

والصُّورة الممتدَّة منذ البداية في مقاطعها المتعدِّدة من وصف طيف الصاحبةِ وزيارتها ، والصعوبات التي قطعتها ، يصل بينها خيطٌ نفسيٌّ دقيق هو الإحساس بالبهجة والسَّعادة والاغتباط ، فقد أشرقت نفسُه بزيارة الطيف فصوَّره مضيئاً ، وأشرقَ قلبه لأنه كان مرغوباً كما هو راغب ، فصوَّر شوقاً متبادلاً وصوَّر زيارة هانت فيها كل الصعوبات عندهما .

ومثل هذه الصُّور الممتدَّة كثيرة في الشعر الأندلسيّ الذي أولع أصحابُه بالبداوة ، ومن الأمثلةِ على ذلك ما نجده في الصورة التالية عند ابن هانئ في النسيب ، ذكر في أولها عالج ، ويبرين[1] ، ثم صوَّر الظعائن فقال[2] :

بـــانوا ســـراعاً للـــهوادجِ زفـــرةٌ ممـــا رأيـــنَ وللمطـــيِّ حـــنينُ
فكأنما صـــبغُوا الضُّـــحى بقبابـــهـــم أو عصفرتْ[3] فيهـــا الخـــدودَ جفـــونُ

فاستعار في البيتِ الأوَّل للهوادج الزفير من الإنسان ، ليلائم في الصورة الصَّوتية بينها والحنين الذي للإبل ، وذكَر الزفرة وهي (أن يملأ الرجلُ صدره غمًّا ثمَّ يزفر به) [4] ، فجاء بكلمةٍ موحيةٍ دالَّةٍ على الهمّ الذي اعتراه حين

---

(١) ديوان ابن هانئ ، ص٣٥٠ .

(٢) المصدر السَّابق ، ص٣٥١ .

(٣) عصفرت : العصفر ، نباتٌ يصبغ به ، انظر : اللِّسان ، مادة (عصفر) .

(٤) انظر : اللِّسان ، مادة (زفر) .

ترحَّلتْ من يحب ، أو اعتراها لأنه نسب الزفرة للهوادج ، وجاوب في الصُّورة بينها والنوق التي حنَّت ورجعَّت الصوت .

ثم جاء بصورة لونيَّة جعل فيها القباب التي يميل لونها للحمرة ، قد صبغت الضُّحى بهذا اللَّون ، وأراد بذلك كثرة القباب حتّى طغى لونها على ما حولها فكأنَّها صبغته ، ثم ذكر ما لاءم النساءَ من هذا اللَّون وهو حمرة الخدّ ، التي كان سببها كثرة الدموع من الجفون ، فأشاع في المشهد لوناً ضارباً للحمرة في القباب ، والضُّحى والخدود ، ثم قال[1] :

لا يبعدنْ إذ العبيرُ لـه ثَـرَى ... والبانُ[2] أيكٌ[3] والشموسُ قطينُ[4]

أيَّامَ فيه العبقريُّ[5] مفوَّف[6] ... والسابريُّ[7] مضاعفٌ[8] موضونُ[9]

والزَّاعبيَّةُ[10] شُرَّعٌ[11] والمشرفيَّةُ[12] لُمَّعٌ[13] والمقرباتُ[14] صفونُ[15]

---

(١) ديوان ابن هانئ ، ص٣٥١ .

(٢) البان : ضرب من الشجر ، انظر : اللِّسان ، مادة (بون).

(٣) الأيك : الشجر الكثيف الملتف ، انظر : اللِّسان ، مادة (أيك).

(٤) القطين : الساكن في الدار ، انظر : اللِّسان ، مادة (قطن).

(٥) العبقريّ : بساط فاخر فيه أصباغ ونقوش ، انظر : اللِّسان ، مادة (عبقر).

(٦) مفوَّف : رقيق ، انظر : اللِّسان ، مادة (فوف).

(٧) السابريّ : نوع من الثياب رقيق وهو من أجود الثياب ، انظر : اللِّسان ، مادة (سبر).

(٨) مضاعف : ناعم ضعيف ، انظر : اللِّسان ، مادة (ضعف) .

(٩) موضون : منسوج بالجواهر والدُّرر ، انظر : اللِّسان ، مادة (وضن) .

(١٠) الزاعبيّة : رماح منسوبة إلى زاعب ، رجل أو بلد ، انظر : اللِّسان ، مادة (زعب).

(١١) شرَّع : مسدَّدة ، انظر : اللِّسان ، مادة (شرع).

(١٢) المشرفيّة : السيوفُ المنسوبة إلى المشارف ، قرى من أرض اليمن ، انظر : اللِّسان ، مادة (شرف) .

(١٣) لُمع : لمع برّق وأضاء ، انظر : اللِّسان ، مادة (لمع).

(١٤) المقربات : الخيول ، والتقريب صفة في عدو الفرس وهي أن يرجم الأرض بيديه ، انظر : اللِّسان ، مادة (قرب).

(١٥) صفون : الخيول تصفن أي تقوم على ثلاث وتثني حافرها الرابع ، انظر : اللِّسان ، مادة (صفن).

وقوله (لا يبعدنَّ) دعاءٌ ، وابن هانئ دعا بأن تبقى حالها على ما كانت عليه في الزَّمان الذي مضى ، لأنه قال (إذ) وهي لما مضى من الزَّمان ، ثم صوَّر هذا الزمن الماضي صورةً بصريَّة لمشهدٍ بدويٍّ خياليّ ، فشبَّه الثرى بالعبير وهو (أخلاطٌ من الطيب تُجمع بالزعفران ، وقيل هو الزعفران نفسه ، وهو نوعٌ من الطيب ذو لون يجمع من أخلاط) [1] فناسب بين هذه الأخلاط ذات اللون الزاهي ، والرائحة النفاذة ، والثرى الذي جعله ملوَّناً بهيجاً ذا رائحة عطرة نفاذة في زهوره ، ولاءم بين هذه الصُّورة الشميَّة البصريَّة ، ومشهد القباب السَّابق القريب من لون الزعفران ، ثم جعل البان وهي الأغصانُ الطويلة أيكاً وشجراً كثيراً ملتفاً ، وشبَّه من يهوى والنساءَ المقيماتِ في الحيِّ بالشموسِ المضيئة ، وقال (له) وأراد بذلك أن يخصَّ صاحبته دون غيرها بهذه الصُّورة ، ثم مطل مشهد الذكرى ، فقال (أيامَ) وجاء بما لاءم الثرى الذي أوطأها إيَّاه زهوراً وعبيراً ، فذكر البسطَ المزخرفة المزيَّنة ، كما ذكر الثيابَ الرقيقة المنسوجة بالدُّر والجوهر ، ثم حمى من يحبَ وأحاطها بما أودعه في الصورة من مشهد الرِّماح المسدَّدة ، والسيوفِ البراقةِ ، والجياد الصَّافنات القائمة ، ولولا أن الأبيات في وصف محبوبةٍ بدويَّة ، لأنه ذكر الحيَّ والقباب والهوادج ، لظُنَّ أنه يصف أميرةً في قصرٍ ممنَّع ، وإنما أراد من قوله إنَّها تطأُ على العبيرِ ، والعبقري المفوَّق ، وتلبسُ السابريّ الموضون ، أن يكنِّى عن النعمة والترف والنعيم الذي كانت عليه من يحبّ ، وقد كان الشعراءُ يمدحون بذلك ، وأولهم امرؤ القيس الذي قال[2] :

وتضحي فتيتُ المسك فوقَ فراشها نؤومُ الضحى لم تنتطقْ عن تفضَّل

وأرادوا بذلك أن يصفوا تنعُّمَ من يحبُّون وما يستتبعه هذا الوصف من دلالاتِ فراغها لنفسها ، وعنايتها بجمالها ، وهو جمال صانته النعمة ، وأظهره الترف .

---

(١) انظر : اللِّسان ، مادة (عبر) .

(٢) ديوان امرئ القيس ، ص٤٤ .

وابن هانئ لمَّا ذكر فتاةً منعَّمةً جاء بما دلَّ على ذلك في وصفه قوَّة أهلها ومنعتهم فذكر الزاعبيَّة ، والمشرفيَّة والجياد فكنّى عن مكانتها بوصفه عزَّة قومها ، ثم قال بعد ذلك[1] :

والعهدُ من لمياءَ[2] إذ لا قومُها ... خُزْرٌ[3] ولا الحربُ الزبونُ[4] زبونُ

عهدي بذاك الجوِّ[5] وهو أسنَّةٌ[6] ... وكناسُ[7] ذاكَ الخشفُ وهو عرينُ[8]

هل يدَّنيني منه أجردُ سابحٌ ... مرحٌ[9] وجائلةُ النُّسوعِ[10] أمونُ[11]

قال ابن هانئ : (والعهدُ من لمياء) أي : كنت أخذت منها عهداً وموثقاً ، ووجدت منها وفاءً ، و (إذ لا قومها) أي : حال كان قومها غير محاربين لي أو متغيرين عليَّ ، وناسب بين العهد وهو الأمان ، ووصفه لقومها بالمسالمة ، لأنه أراد زماناً غضَّاً ، وذكريات سعيدة حظيَ فيها بكلِّ شيء ، ولذلك قال بعد

---

(١) ديوان ابن هانئ ، ص٣٥١ .

(٢) اللمياء : السمراءُ الشفة ، وقيل اللميّاء ، من الشفاة القليلة الدم ، انظر : اللِّسان ، مادة (لمي) .

(٣) خزرٌ : ينظرون بمؤخر عيونهم ، انظر : اللِّسان ، مادة (خزر) .

(٤) الزبون : الحرب تزبن الناس أي تصدمهم وتدفعهم على التشبيه بالناقة ، انظر : اللِّسان ، مادة (زبن)، وهو من المجاز : حربٌ زبون صعبة كالناقة الزبون في صعوبتها ، انظر : أساس البلاغة ، الزمخشري ، ٣٩٣/١ ، مادة (زبن) .

(٥) الجوّ : ما اتسع من الأرض واطمأن وبرز ، انظر : اللِّسان ، مادة (جوا) .

(٦) الأسنة : الرماح ، والأسنة جمع للأسنان ، والأسنان جمع السنِّ ، وهو الأكل والرعي ، انظر : اللِّسان ، مادة (سنن) .

(٧) الكناس : مولج الوحش من الظباء ، انظر : اللِّسان ، مادة (كنس) .

(٨) العرين : مأوى الأسد ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرن) .

(٩) مرح : فرحٌ ، نشيط ، انظر : اللِّسان ، مادة (مرح) .

(١٠) جائلة النسوع : الناقة الضامرة البطن التي اتسع الحبلُ الذي تشدُّ به الرحال عليها ، انظر : اللِّسان ، مادة (نسع) .

(١١) أمون : ناقة أمون ، أمينة وثيقة الخلق ، أمنت العثار والإعياء ، انظر : اللِّسان ، مادة (أمن) .

ذلك (عهدي بذاك الجوّ) والعهد هنا أراد به ما عهد عليه تلك الأرض والديار وعرفها به ، فجانس بين (عهد الأولى ، والثانية) وناسب بينهما في المعنى ، لأنَّ الأمان يؤدي إلى الإقامة في الأرض واستصلاحها ، ولذلك وصفَ كثرة المرعى فقال (أسنَّةٌ) أي : كثيرة الكلأ والعشب ، ثم عادَ إلى لمياء في الشطر الثاني وشبهها في قومها بالظبية في الكناس ، وشبه منعتها في قومها بالعرين ، وهو في هذين البيتين صوَّر زماناً مضى وتقضّى تمنَّى أن يعود إليه ولذلك قال[1] :

هـــل يـــدْنيني منـــه أجـــردُ ســـابحٌ مـــرحٌ وجائلـــة النســـوعِ أمـــونُ

فقال (منه) وأراد به الجوّ والأرض التي وصفها بكثرة العشب ، والعهد الذي كان له مع لمياء ، وذكر الجواد السابح السريع النشيط ، والإبلَ الضمَّر القويَّة ، لأنَّه أراد عزماً يوصله إليه ، ويعيدُ له ما مضى ، وقال في صفة الناقة (أمون) ومعناها أُمنت العثار ،وهو مناسب للأمان في العهد من لمياء ومكانها .

ومقاطع هذه الصورة في القصيدة تلفُّها دلالات الذكرى العذبة ، وما أشاعه استرجاعها في القصيدة من حنين ظهر في تناوله مشاهدها ، فنظر إلى الذكريات بعين القلب ، نظرةً مزهرةً مشرقةً في صورة المكان الذي جمعه بمن يحب ، آمنةً في صورة قومها وعهدها ، مرحةً نشيطةً في صورة الجياد والإبل التي تمنَّى أن تأخذه إليها .

ومن الصُّور البدويَّة الممتدَّة أيضاً ،ما تناول فيها الشعراءُ الأندلسيُّون وصفَ الصحارى والفيافي المهلكة ، ممَّا كان متصلاً بحياة البدو وبيئتهم ، فقال ابن درَّاج يصوّرها ويصف المطر بها في طيٍّ وصف رحلةٍ للممدوح[2] :

يهـــيجُ فيهـــا زفـــيرُ الريـــاحِ مدامعُ شـــجوٍ[3]السَّـــحابِ المخيـــلِ[4]

---

(١) ديوان ابن هانئ ، ص٣٥١ .

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص٥٦ .

(٣) الشجو : الهم ، والحزن ، انظر : اللِّسان ، مادة (شجا) .

(٤) السحاب المخيل : الذي تهيَّأ للمطر ، انظر : اللِّسان ، مادة (خيل) .

وتلطمُ فيها أكفُّ البروقِ خدودَ عراصٍ[1] علينا ثكولِ
تظلّمُ من هاطلاتِ الغمامِ وتشكُو من الريحِ جرَّ الذيولِ

فجاء بصورٍ استعاريَّةٍ ، شخَّص فيها الرياحَ التي جعل صوتها زفيراً ، والسحابَ الذي جعل بكاءه المطر ، والبروق التي جعلها تلطم العراص ، والتي استعار لها الخدود والثكل والشكوى ، واستعار للرياح أيضاً صفة جرَّ الذيول ، والصُّورة جمع فيها بين حاسة البصر : في ذكره المدامع ، والأكف ، والخدود ، وجرِّ الذيول ، وحاسة السَّمع : في ذكره الزفير ، واللطم وهو الضرب باليد ، الذي فيه أيضاً حاسة اللمس .

والصُّورة في وصف الصحراء هنا مقبضة ، لأنه ذكر شجواً وحزناً وثكلاً ، استلزم بكاءً وعويلاً ولطماً وشكوى ، ممَّا تختلفُ به عن صور المطر المليئة ـ غالباً ـ بأوصاف الإسعادِ والبهجةِ والخصب والرَّواء ، ثم انتقل ابن درَّاج بعد ذلك لوصف الإبل ، فقال[2] :

خطيباتُ[3] خطبِ[4] النَّوى[5] والمهورِ[6] مهارى[7] عليها رحالُ الرَّحيلِ
فمن حُرَّةٍ جُلِيَتْ[8] بالجلاءِ[9] وعذراءَ نصَّتْ[10] بنصٍّ[11] الذميلِ[12]

---

(١) العراص : جمع عرصة وهي البقعة الواسعة ليس فيها بناء ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرص) .
(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص٥٦ .
(٣) خطيبات : رجل خطيب حسن الخطبة ، والخطيبات من خطبة المرأة لتزوجها ، انظر : اللِّسان ، مادة (خطب) .
(٤) الخطب : الشأن والأمر صغر أو عظم ، انظر : اللِّسان ، مادة (خطب) .
(٥) النوى : البعد ، انظر : اللِّسان ، مادة (نوي) .
(٦) المهور : الصداق ، انظر : اللِّسان ، مادة (مهر) .
(٧) المهارى : الإبل المهريَّة ، انظر : اللِّسان ، مادة (مهر) .
(٨) جليت : جلا العروس أي أظهرها لزوجها لينظر إليها ، انظر : اللِّسان ، مادة (جلا).
(٩) الجلاء : الخروج عن البلد ، انظر : اللِّسان ، مادة (جلا) .
(١٠) نصَّتْ : المنصة ما تظهر عليه العروس لتُرى ، انظر : اللِّسان ، مادة (نصص).
(١١) النصّ : للناقة رفعها في السير ، انظر : اللِّسان ، مادة (نصص) .
(١٢) الذميل : ضربٌ من سير الإبل ، انظر : اللِّسان ، مادة (ذمل) .

ولا حلـــيَ إلاَّ جمـــانُ[1] الـــدموعِ يســـيلُ علـــى كـــلِّ خـــدٍّ أســـيلِ

والصُّورة هنا بدويَّة ، ولكن فيها صنعةٌ وتكلُّف ، إذ عمد ابن درَّاج إلى المجانسات الكثيرة ،واستعار في الصورة صفة المرأة المخطوبة ، خاطبُهَا هو النَّوى والبعد ، ومهورها الارتحال ،واستعار لها صفة جلاء العروس وإظهارها لزوجها ،وقد جعل جلاءها هو خروجها وضربها في الصحارى ، كما استعار لها صفة نصِّ العروس ورفعها ،وكان نصُّها هو رفعُ السير وذميلُه ، وحليها هو تحدُّر الدموعِ من عينيها لعناءِ السفر ، فجانس بين (خطيبات ، خطب) و(المهور ، المهارى) و (رحال ، رحيل) و (جليت ، الجلاء) و (نصت ، نصّ) ، وهي طريقةٌ في الشعر أكثر منها ابن درَّاج ، يعمد فيها إلى عرض قدرته وبراعته في البديعِ ،فيقع في كثيرٍ من الأحيان في التكلُّف .

ثم يكمل ابن درَّاج صورة الإبلِ في المقطع التالي فيقول[2] :

فبُـــدِّلن مـــن بعـــدِ خفـــضِ[3] النعـــيمِ بشقٍّ[4] الحزونِ[5] ووعثٍ[6] السُّـــهولِ[7]

ومن قصـــرِ اللَّيـــلِ تحـــتَ الحجـــالِ[8] بـــهـــولِ السُّرى تحـــت ليـــلٍ طويـــلِ

ومـــن علـــلِ المـــاءِ[9] تحـــتَ الظِّـــلالِ صلاءَ[10] القلـــوبِ بحـــرِّ الغليـــلِ[11]

---

(١) الجمان : درٌّ من فضة ، وقيل هو اللؤلؤ الصغار ، انظر : اللِّسان ، مادة (جمن).

(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص١٦٣ .

(٣) الخفض : لين العيش وسعته ، انظر : اللِّسان ، مادة (خفض) .

(٤) الشق : الصدع ، انظر : اللِّسان ، مادة (شقق) .

(٥) الحزون : جمع حزن وهو ما غلظ من الأرض ، انظر : اللِّسان ، مادة (حزن).

(٦) الوعث : المكان السهل الكثير الدهس ، انظر : اللِّسان ، مادة (وعث) .

(٧) السهل : ضد الحزونة وهو اللين ، وهو ترابٌ كالرمل ، انظر : اللِّسان ، مادة (سهل).

(٨) الحجال : الستور ، وتُتخذُ للعروس ، انظر : اللِّسان ، مادة (حجل) .

(٩) علل الماء : الشرب بعد الشرب تباعاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (علل) .

(١٠) الصلاء : الشواء والإحراق ، انظر : اللِّسان ، مادة (صلا) .

(١١) الغليل : شدَّة العطش ، انظر : اللِّسان ، مادة (غلل) .

ومن طيبِ نفحٍ[1] بنورِ الرياض تلظّيَ[2] لفحٍ[3] بنارِ المقيلِ[4]
ومن أنسها بين ظئرٍ[5] وترب[6] سرى ليلها بين ذيبٍ وغولِ

فجاء ابن درّاج بصورة تتابعت فيها الكنايات عن طريق المطابقات بين الأحوال ماضيها وحاضرها ؛ ففي البيت الأوّل طابق بين (الإقامة والنعيم وخفض العيش) و (الصعوبة التي تكبّدتْها الإبل في الرحلة الطويلة بين مرتفعات الأرض ومنخفضاتها) ، وفي البيت الثاني كنّى عن هذا النعيم الذي كانت فيه : بالإقامة تحت الحجال في الستور مما يُتّخذ في البيوت للنّساءِ خاصّةً ، ولاءم بين ذلك والاستعارة السابقة لها بالمرأة المجلوّة ، وطابق بينه وأهوال السُّرى في ليلٍ طويل الظلام ، وفي البيت الثالث كنّى أيضاً عن العيشِ السهلِ بشربِ الماء المرّة بعد المرّةِ في الظلِّ ، وطابق بينه وصعوبة الحالِ الرّاهنِ في التنقّل ، بكنايته عن ذلك بالقلوب المشتواةِ على النّار ، وصلائها بها ، وفي البيت الرابع كنّى أيضاً عن حالها السابق بنفحات الزهر المتفتح والرياضِ الزاهية ، وطابق بين ذلك وحالها الرّاهن في الشقاء الذي كنّى عنه بالتلهُّب والنار ، وفي البيت الخامس كنّى عن معيشتها الوادعة الآمنة في الماضي بصورتها بين أترابها ولداتها وأظآرها ، وطابق بين هذه الصورة ، وصورتها في معيشتها الراهنة بين الذئاب والغيلان الذين كنّى بهما عن الخوف، وعدم الاطمئنان .

---

(١) النفح : الريح الطيبة ، انظر : اللّسان ، مادة (نفح) .
(٢) تلظّى : اللظى النار ، انظر : اللّسان ، مادة (لظي) .
(٣) اللّفح : حرقة النار ، انظر : اللّسان ، مادة (لفح) .
(٤) المقيل : موضع القيلولة وهي الاستراحة في نصف النهار ، انظر : اللّسان ، مادة (قيل).
(٥) الظئر : العاطفة على غير ولدها ، المرضعة له من الناس ، والدواب ، انظر : اللّسان ، مادة (ظأر) .
(٦) الترب : اللّدَة والسن ، يقال هذه ترب هذه أي لدتها ، انظر : اللّسان ، مادة (ترب).

وهي كما ذكرنا طريقة ابن درّاج ـ غالباً ـ في الشعر ، حيث يفرط في البديع ، فيقع في التكلُّف ،ونلاحظ في هذه الصُّورة البدويَّة الممتدَّة رغم التكلُّف في صورها وصياغتها ، أنها كلُّها تصبُّ في أنَّ الرِّحلة كانت شاقَّةً مضنيةً مهولةً مخيفة ، تكبدَّت فيها النياقُ الصعوباتِ ، وخاضت المهالكَ بعد خفض العيش ودعته ، وهي طريقةٌ في المدح أبان بها الشاعرُ عمَّا واجهه من صعابٍ تكبَّدها ليصلَ إلى الممدوح ، ولذلك قال بعد ذلك بأبيات[1]:

ركبتُ لها محملاً للنجاةِ ... وصيَّرتُ قصدكَ فيها عديلي

ومن هذه الصُّور الممتدة ما جاء في غرض المديح ، ومنه قول ابن هانئ في قصيدةٍ طويلة[2]:

قريبُ عهدٍ باعرابِ الجزيرةِ لمْ ... ينطقْ بداراً[3] ولم يُنسبُ إلى عيٍّ[4]

من ليسَ يألفُ إلاَّ ظلَّ خافقةٍ[5] ... أو سرجَ سابقةٍ أو رحلَ عيديٍّ[6]

لا يشرحُ القومُ وحشيٌّ[7] الغريبِ له ... ولا يُساءِلُ عن تلكَ الأحاجيٍّ[8]

بما يؤنِّبُ[9] فرسانَ الديارِ ترى ... عليه سيمَا ذكيٍّ القلبِ حوشيٍّ[10]

---

(١) ديوان ابن درّاج ، ص١٦٢ .

(٢) ديوان ابن هانئ ، ص٣٨٠ .

(٣) بداراً : بسرعة وعجلة ، انظر : اللِّسان ، مادة (بدر) .

(٤) العيٍّ : في المنطق الحصر والعجز ، انظر : اللِّسان ، مادة (عيا) .

(٥) الخافقة : الراية ، انظر : اللِّسان ، مادة (خفق) .

(٦) العيديٍّ : الجمل المنسوب إلى فحل يقال له عيد . انظر : اللِّسان ، مادة (عيد) .

(٧) وحشيُّ الكلام : الغريب المشكل منه ، انظر : اللِّسان ، مادة (حوش) .

(٨) الأحاجي : جمع أُحجية وهي لعبة وأغلوطة يتعاطاها الناس بينهم ، انظر : اللِّسان ، مادة (حجا) .

(٩) يؤنِّبُ فرسان الديار : يلامون ويعنّفون ، انظر : اللِّسان ، مادة (أنب) .

(١٠) حوشيّ : رجلٌ حوشيُّ القلب أي حديدُ القلب متوقّد ، انظر : اللِّسان ، مادة (حوش).

فصوَّر ابن هانئ الممدوح في هذه البيئةِ البعيدة عن البداوة بكل أخلاق البداوةِ وشمائلها ، ومدَحهُ بها ، فذكر أنَّهُ قريبُ عهدٍ بأعراب الجزيرة ، ممَّا يعني به شدَّة اتصاله بعروبته وبداوته ، ولذلك ذكرَ (الأعرابَ) و (الجزيرةَ) وقد كان العرب قديماً يربُّون أبناءهم في البادية ، لينشأوا على الأخلاق والعادات والتقاليد التي يهمُّهم أن يربُّوا عليها أولادهم ، وليتعلَّموا اللغة وينطقوها بفصاحة ، وكذلك فعل جدُّ الرسول ﷺ عندما أرسله لبادية بني سعدٍ يربُّونه ، وابن هانئ حين يذكر ذلك فإنه يستدعي هذا الموروث القديم في العرب ، ويستدعي ما يستتبعه من شمائلَ أعرابيَّة يُطبع عليها من رُبِّي في البادية ونشأ .

وكان أكثر ما تظهر فيه هذه العروبة ، سلامة اللغة والمعرفة بالغريب المشكل منها ، والفصاحة والبيان ، ولذلك نفى الشاعر عن الممدوح العيَّ أو الحديث الهذر غير المفهوم ، فقال (لم ينطق بداراً ولم يُنسب لعيٍّ) ، ولذلك أيضاً قال بعد ذلك إنه لا يُشرح له غريب الكلام لأنه على معرفةٍ قويَّةٍ به لنشأته بين الأعراب فلا تغيب عنه حتّى الأحاجي الملغزة .

ومن الشمائل والمزايا الأعرابيَّة الأخرى التي مدحه بها أنه (لا يألفُ إلاَّ ظلَّ خافقةٍ أو سرجَ سابقةٍ أو رحلَ عيديٍّ) وهي كناياتٌ عن صفاتِ الشجاعةِ والباس والقوة .

ولم يُغْفِل من أخلاق البداوة حسن الأدبِ والفطنة والذكاء فذكر أنَّه (لا يؤنَّب) وهي كناية عن فطنته التي عاد فذكرها في الشطر الثاني في قوله (ذكيَّ القلب) ، وأكَّدها بقوله أنَّه (حوشيٌّ) أي متوقِّد الذكاء ، ثم قال بعد ذلك[1]:

مستوحشٌ[2] عزَّةٌ[3] مستأنسٌ[4] كرماً تلقاهُ ما بين وحشيٍّ وأنسيٍّ

---

(١) ديوان ابن هانئ ، ص٣٨١ .

(٢) مستوحش : أي لا يخالط الناس ، ولا يألفهم ، انظر : اللِّسان ، مادة (حوش).

(٣) عزَّةٌ : رفعة وامتناعاً وقوَّةٌ وشدَّة وغلبة ، انظر : اللِّسان ، مادة (عزز) .

(٤) مستأنس : الأنس خلاف الوحشة وهو التأنس بالناس ، انظر : اللِّسان ، مادة (أنس).

أرقُّ مـــن صـــفحةِ المـــاءِ المعـــينِ وإنْ خاطبتَ خاطبتَ قُحًّا[1] فـــوقَ مهـــريِّ
وكـــان غـــيرُ عجيـــبٍ أن يجـــيءَ لـــه المعنى العراقـــيُّ في اللَّفـــظِ الحجـــازيِّ

قال (مستوحشٌ) مجانساً بينها و (وحشيٍّ) وأراد بقوله (مستوحشٌ عزَّةً) أنَّه عزيزٌ ممنَّع ذو مكانةٍ رفيعةٍ في قومه يهابُه النَّاس ، وحتَّى ينفي عنه الكبر واحتقار الغير قال محترزاً : (مستأنسٌ كرماً) أي أنه يأنس بالناس كرماً في أخلاقه ، وجانس بين (مستأنس) و (أنسيٍّ) ، وعاد في البيت الثاني وأكَّدَ صفتي الوحشة والأنس ، في قوله (تلقاه ما بين وحشيٍّ وإنسيٍّ) أي أنه : ينزعُ إلى الوحش في العزَّة والتفرُّد ، وينزعُ إلى الإنس في التلطُّف والكرم ، وطابق بين (مستوحش ، مستأنس) و (وحشيٍّ ، أنسي) ، وعاد في البيت التالي فأكَّد صفة اللُّطف والأنس والكرم ، فشبَّهه بالماء الرقراقِ السَّهل وفضَّله عليه ، واحترز من أنَّ هذه السهولة واللين لم تغيِّر من فصاحته وقوته وعزمه ، وبداوته التي أكَّدها بقوله (خاطبت قحًّا فوق مَهريٍّ) ، وقد كان يقال عن الأعرابيِّ إنَّه قحٌّ إذا كان خالصَ العروبة لم يخالط الأمصار ، فذكر أنه قحّ ، وألحَّ على بداوتهِ بقوله (فوقَ مهريٍّ) ، واحترز مرَّةً أخرى بقوله في البيت التالي أن (المعنى العراقي يأتيه في اللفظ الحجازيِّ) وقد يكون أراد بالمعنى العراقي لطف المعنى ، وباللفظ الحجازي الجزالة والفصاحة ، وأراد جمعه بين فهم العراقي والحجازيّ الكلام والمعنى لأنه وصفه (بالقحِّ) ، كما قد يكون أراد أنه جمع في خلقه بين الرقة والقوَّة ، وذكر العراقي والحجازي على سبيل الكناية والتعريض ، وهو مناسب لمعاني الوحشة والأنس التي ذكرها سابقاً . ثم قال بعد ذلك[2] :

وقـــد تلاقـــتْ عليـــه كـــلُّ منجبـــةٍ ومنجبٍ[3] فهـــو لا يُعـــزَى إلى سِـــيٍّ[4]

---

(١) القحّ : أعرابيّ قحٌّ محضٌ خالصٌ ، لم يدخل الأمصار ولم يختلط بأهلها ، يقال أعرابٌ أقحاح ، انظر : اللِّسان مادة (قحح) .

(٢) ديوان ابن هانئ ، ص٣٨١ .

(٣) المنجب : الفاضل الكريم الحسيب ، وأنجب الرجلُ أي ولد نجيباً أي كريماً ، انظر : اللِّسان ، مادة (نجب) .

(٤) السيٍّ : العمل القبيح ، انظر : اللِّسان ، مادة (سوأ) .

واستأثرتْ عربيَّاتُ الخيامِ بـه ... ولم يوكَّـلْ إلى أيـدي السَّـراري[1]

وأرضعتْه وأُسْدُ الغيلِ تكفُلُه ... بالبدوِ كلُّ دَرورٍ[2] حافلٍ[3] رِيٍّ[4]

فشبَّ إذ شبَّ كالخطِّيِّ[5] معتدلاً ... وجاءَ إذ جاءَ كالصَّقرِ القطاميِّ[6]

صوَّر ابن هانئ عراقة نسب ممدوحه وكرم أصله ، فذكر أنه من والدين كريمين منجبين ، ثم عاد فألحَّ على التربيةِ البدويَّةِ والنشأةِ الأعرابيَّة ، فقال إنَّه رُبيَّ بين البدويَّات اللواتي أنشأنه على القوَّة والصلابة ، وهو ما ينافي تربية السَّراري والجواري التي تُنْشئُ على الرَّخاوةِ واللين ، ولذلك طابق بين الكنايتين ليُظهر مدى نجابته ، وذكر أنَّ البدويَّاتِ أرضعنه لبناً حافلاً مرويًّا ، وأنَّ رجالَ البادية كفلوه وربَّوه ، وأراد بذلك أنَّه لم يكن في نشأةِ نساءِ الأعراب فقط ، بل في كنف رجالها ، وجعلهم أُسداً ليدلَّ بالتالي على قوَّة ممدوحه ، وقال (تكفُلُه) أي أنهم حفظوه ووكِّلُوا برعايته والعناية به[7] .

ثم قال بعد ذلك (فشبَّ كالخطيِّ) و (جاء كالصقر) ، وقوله (شبَّ كالخطيِّ) أراد به : اعتدال قامته وانبساط جسده ، وصلابته ، وهو الأمرُ الذي كفله له ارتواؤه باللَّبن المشبع في خيام الأعرابيات ، وهي نظرةٌ ملفتةٌ من الشاعر ، تدلُّ على فهمٍ عميقٍ بأصولِ التنشأةِ وأسس التربية والتغذية السليمة ، وقوله (جاء كالصقر) أراد به : قوَّة عزمه وبأسِهِ وشجاعته ، وهو الأمرُ الذي

---

(١) السراري : جمع سريَّة ، وهي الجارية المملوكة ، انظر : اللِّسان ، مادة (سرر).

(٢) درور : غزيرة اللبن ، انظر : اللِّسان ، مادة (درر).

(٣) حافل : مملوءة باللبن ، انظر : اللِّسان ، مادة (حفل).

(٤) الريِّ : الإرواء ، يقال للناقةِ الغزيرة هي تروي الصبيَّ ، لأنه ينام أوَّل الليل ، انظر : اللِّسان ، مادة (روي).

(٥) الخطِّيِّ : الرمح ، انظر : اللِّسان ، مادة (خطط).

(٦) الصقر القطامي : الذي يشتهي اللحم ، وهي صفة غلبت عليه فقيل القطاميّ الصقر ، انظر : اللِّسان ، مادة (قطم).

(٧) انظر : اللِّسان ، مادة (كفل).

أتاحته له تربيته بين رجال البادية ، وشجعانها ، فشبَّ على ما كانوا عليه من صلابة .

وابن هانئ في هذه الصُّورة الممتدَّة يُلحُّ على صفات العراقةِ والنجابة ، والصلابة والفصاحة في الممدوح ، وكلُّها شمائلٌ وأخلاقٌ عربيَّة ، أهَّلتها له ـ كما ذكر الشاعر ـ نشأتُهُ البدويَّة الأعرابية ، والتي ـ غالباً ـ ما تكون نشأة تخيلها الشاعر للممدوح لما وجده عليه من هذه الأخلاق والشمائِل ، ولعلَّ نسب الممدوح الذي كان من بني شيبان[1] ، أعطى الشاعر القدرة على الانطلاق بقوَّة في الصِّفات التي تضمَّنَتْها هذه الصورة النامية الممتدَّة .

ودلَّ وجودها في الشعر الأندلسيّ على توغُّل صور البداوةِ ، وتقاليد الأعراب ، وحياتهم ، في المخيلة الشعريَّة الأندلسيَّة ، فظلَّ الشعراء يتغنون بما كانت عليه الحياةُ في البادية ، وما كان عليه البدو من قوَّة وبأس ، وما كان عليه بيانهم من سلامةِ لغةٍ ، وظلَّ يُمدح بهذه الصفاتِ ويُفتخر .

ومن الصُّور الممتدَّة النَّامية الأُخرى ، قول ابن الخطيب من قصيدةِ مدحٍ نبويَّة يصف فيها الرَّكب والرحلة[2] :

لله درُّ ركائبٍ قَطَعَتْ إلى مغنَى ثراكَ تهائماً ونجودَا
قومٌ أهابَ بعزمِهم داعي الهُدى فاستشعروا التَّقوى وجابُوا البيدَا

قال (لله درُّ ركائب) أي لله عملها وخيرها ، ويقال هذا لمن يُمدح ويُتعجَّب من عمله[3] ، فمدح ابن الخطيب الرَّكائب ، ورأى أن في رحلتها إلى خير النبيين أفضل الخير ، ولذلك قال (مغنى ثراك) والمغنى (المنزل الذي غني به أهله) [4] وأراد به ثرى الرسول ﷺ ، الذي قطعت له الرَّواحلُ ما اطمئنَّ من الأرضِ وارتفع .

---

(١) قال يمدح أبا الفرج الشيباني ، مقدمة القصيدة ، ديوان ابن هانئ ، ص٣٧٨.
(٢) ديوان ابن الخطيب ، ٣٥٢/١ .
(٣) انظر : اللِّسان ، مادة (درر) .
(٤) انظر : اللِّسان ، مادة (غنا) .

ثم قال (أهاب[1] بعزمهم داعي الهدى) فاستعار للهدى صفة الدَّعوة للعزم ، واستعار للعزم الإجابة بالاستعدادِ للرحلة ، وقطع الفيافي ، وأتمَّ معنى الهدى بأن ذكر (التقوى) فقال : (واستشعروا التقوى) أي أضمروها[2] فكانت في قلوبهم ، ثمَّ صوَّر هذه الرِّحلة النورانيَّة فقال[3] :

فإذا ظلامُ اللَّيلِ مدَّ جناحَهُ ... كحلُو جفونَ عيونهم تسْهِيدَا

وإذا النهارُ جلا الظلامَ وأتلعتْ[4] ... من نورِ مبسمها الغزالةُ[5] جيدَا

لبسُوا الهجيرَ وصافحُوا غُبْرَ الفَلاَ ... وصلُوا لظى رمضائهنَّ[6] وقودَا

وأتوا خضمَّ الماءِ يزخرُ[7] موجُهُ ... فشرُوْا بإعدامِ الحياةِ وجودَا

لبسوا ، على قدْرٍ ، متونَ سفينة ... وتفيَّأوا ظلَّ الرَّجَا الممدودَا

بيداءُ لجٌّ[8] أصبحتْ فيه الرُّبا[9] ... فيْحاً[10] وأطوادُ السَّفينِ[11] قُدُودَا[12]

فصوَّر ابن الخطيب الرحلةَ والأحوال التي كان عليها الرَّكب الميممٌ يثرب ، قال (فإذا ظلامُ الليل) وإذا ظرفيَّة شرطيَّة استعار بعدها لليل صفة مدِّ الجناح ، وأراد الظلام ، ثم ذكر جواب الشرط وهو أنهم يسهرون ، وشبَّه السَّهر ومواصلة السُّرى بالكحل في العيون ، وأراد بذلك أنهم لم يُغمضوا أعينهم بل كانوا

---

(١) أهاب : الأهبة العدَّة ، وتأهَّب استعدَّ ، انظر : اللِّسان ، مادة (أهب).

(٢) انظر : اللِّسان ، مادة (ضمر).

(٣) ديوان ابن الخطيب ، ٣٥٢/١ .

(٤) أتلعت : مدَّت عنقها وجيدها ، انظر : اللِّسان ، مادة (تلع).

(٥) الغزالة : الشمس ، انظر : اللِّسان ، مادة (غزل).

(٦) الرمضاء : شدَّة الحرّ ، انظر : اللِّسان ، مادة (رمض).

(٧) يزخر : يمدّ ويكثر ماؤه ، وترتفع أمواجه ، انظر : اللِّسان ، مادة (زخر).

(٨) اللجّ : الماء الكثير الذي لا يرى طرفاه ، انظر : اللِّسان ، مادة (لجج).

(٩) الرُّبا : المرتفعات ، انظر : اللِّسان ، مادة (ربأ).

(١٠) فيحاً : شديدة القيظ ، والفيح : السعة والانتشار ، انظر : اللِّسان ، مادة (فيح).

(١١) أطوادُ السفين : الطود الجبلُ العظيم ، تشبه به أسنمة الإبل في الارتفاع ، انظر : اللِّسان ، مادة (طود) .

(١٢) قدودا : يقال للناقة الطويلة الظهر قيدودا ، انظر : اللِّسان ، مادة (قدد).

متيقظين مواصلين المسير ،وجاء في البيتِ التالي بإذا مرَّة أُخرى غير أنَّه أخَّرَ الجواب إلى البيت الذي يليه ، فذكر النهار في مطابقةٍ بينه والليل ، واستعار للشمس وهي الغزالة صفة مدِّ الجيد والعنق وأراد بذلك إشراقها ، ثم جاء في البيت التالي بجواب الشرط وهو أنهم في هذا النهار يلبسون الهجير ، وهو مجاز[1] ،وأشبع الوصف باستعارة أُخرى للنهار الذي كان الرَّكب فيه مواصلاً السير ،فأسند له صفة المصافحة التي تكون للإنسان بما أراد به استقبالهم هذا الهجير المتوقِّد المتلظِّي استقبال الصاحب والرفيق ، وتقبُّلهم له ، وعدم تذمُّرِهم منه ، بل وترحيبهم به ،وقد كان ابن الخطيب يصف رحلة بحريَّة أعطاها من أوصاف الرحلة البريَّة في الصحارى : الهجير والسُّرى ، وغيرها ، فعكس التشبيه القديم الذي كان الشعراءُ يشبهون فيه الفلاةَ والرواحلِ بالبحر والسفين ، فشبَّه البحر بالبيداء ، وقال (بيداءُ لجٍّ) ، وشبَّه أمواجه المرتفعة بالفيح وهي الأراضي الواسعة الشاسعة ، وقال (أطوادُ السفين) والأطوادُ الجبالُ العظيمة ، تُشبَّه بها أسنمة الآبال أُنشِدْ (خلفاتٌ ذات أطواد) [2] فشبَّه السفين في ارتفاعها بالأطواد التي يشبَّه بها سنام الناقة وظهرها ، فذكر أنَّ هذه السفن أصبحت قدوداً ، ويقالُ للنَّاقة (قيدودا) إذا كانت طويلة الظَّهر ، فحذف الياء لاقتضاء الوزن والقافية ، ثمَّ قال في الأبيات التالية[3]:

عوجاً[4] تتيحُ لها الرِّياحُ أعنَّةً[5] والساجَ[6] جسماً والهِنَاءَ[7] جلودا

---

(١) انظر : أساس البلاغة ، الزمخشري ، ٣٢٩/١ ، قال تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ (النحل:١١٢).

(٢) انظر : اللِّسان ، مادة (طود) .

(٣) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٣٥٢/١.

(٤) عوجاً : الناقة العوجاء العجفاء التي أنضاها السفر ، انظر : اللِّسان ، مادة (عوج).

(٥) أعنَّةً : العنان سير اللجام ، انظر: اللِّسان ، مادة (عنن) .

(٦) الساج : الخشب الأسود الرزان ، يجلب من الهند ، لا تكاد الأرض تبليه ، وقد عملت سفينة نوح عليه السلام من الساج ، انظر : أساس البلاغة الزمخشري ، ٤٦٤/١ ، مادة (سوج).

(٧) الهناء : ضربٌ من القطران ، تدهن به الإبل والسفن يمنع الماء أن يدخل ، انظر : اللِّسان ، مادة (هنأ) ، ومادة (قير) .

تفري[1] أديمَ[2] الماءِ وهي نواضحٌ[3] منهُ وتتركُ خدَّه أخدودَا
أمُّوا ضريحاً طابَ نَشْراً عَرْفُهُ وزَكَا بنورِ المعجزاتِ صَعِيدَا[4]

وصف السفينَ وصف الرواحل ، فشبهها بالعوج من الإبل ، يقال : ناقةٌ عوجاءُ إذا اعوجَّ ظهرها وضمرت ، قال طرفة : (بعوجاءَ مرقالٍ تروح وتغتدي)[5] ، واستعار للرياح الأعنَّة من الإبل ، وهي ما يُشدُّ به اللجامُ ، وأراد بذلك سرعتها ، وشبَّه خَشَبَ السَّفين وهو السَّاجُ المدهون بالقار (لمنع الماء) بأجسادِ وجلود الإبلِ المدهونةِ بالقطران ، ثمَّ شبَّه في البيت التالي وجهَ الماء بوجهِ الأرض ، والسفن بالنواضح من الإبل ، وخصَّ النواضح لأنها الإبل التي تحمل الماء لمناسبة صورة البحر ، واستعار لوجه البحر الخدود ، وشبَّه شقّ السفينة له بالأخدود ، وهو الحفرة في الأرض ، ثمَّ ذكر الغاية الروحيَّة من الرّحلة وهي قصدُ زيارة النبي ﷺ .

فكانت الصُّورة الممتدَّة مترابطة نامية بما فيها من وصف مواصلة الليل والنَّهار ، واحتمال الحرِّ ، وما يعتري الرِّحلة من مهالك ، يتحملَّها الرَّكب المرتحلون ، رجاء الوصول إلى خير المرسلين .

والصورة الممتدَّة هنا تداخلت البداوة في مشاهدها تداخلاً قويًّا ، فظهرت صورة الإبل من خلال وصف السفين ، فالشاعر الأندلسيُّ هنا يرى خضم الماء فيصوّر غبر الفلا ، ويقول إنَّها (بيداءَ لجٍّ) ويرى السفن فيصوِّر (العوج) و(النواضح) من الإبل ، فدلَّ ذلك على استقرار صورة الآبال المشبَّهة في كثيرٍ من الموروث القديم بالسفن ، وصورة الصحراء المشبَّهةِ بالبحار ، في الخيال الشعري الأندلسيّ ، فجاءت رؤية السفين في هذا الشعر مرتبطةً بصورة الإبل ،

---

(١) تفري : تشقّ وتقطع ، انظر : اللِّسان ، مادة (فرا) .
(٢) أديم : أدمة الأرض وجهها ، انظر : اللِّسان ، مادة (أدم) .
(٣) نواضح : النواضح من الإبل التي يُسقى عليها ، انظر : اللِّسان ، مادة (نضح) .
(٤) الصعيد : المشرف المرتفع من الأرض ، انظر : اللِّسان ، مادة (صعد) .
(٥) ديوان طرفة بن العبد ، ص٢٢ .

ممَّا دلَّ على تداخلٍ في النفسيَّة الأندلسيَّة بين الواقع المعيش والموروث القديم الذي رُبيت عليه ثقافة الشعراء الأندلسيين ، ممَّا يعني تجذُّر هذا الموروث القديم بكل مشاهده ، في دواخلهم وبالتالي شعرهم .

والصُّور الممتدة في الخيال الشعري الأندلسيّ ، التي تداخلت البداوة ـ في معظمها ـ تداخلاً واضحاً ، جاءت في سياقاتٍ عدّة ، وأغراضٍ مختلفة ، ومن الأمثلة على ذلك قصيدة لإبراهيم بن محمَّد الطويجن ، صوَّر فيها نباتات البادية ونسائمها ، ومشهد الظعائن في صحرائها ، فقال[1] :

وحـرَّكَ طـرفَ[2] الصَّـبا ناسـمٌ[3] أطـالَ بليـلِ الخزامـى عِثَـارَا[4]
عليـلٌ[5] ، بليـلٌ[6] ، ولكنَّـهُ يـداوي السَّـقامَ ويُـذكي[7] الأُوارَا[8]
وشـى[9] بحـديثِ الـرُّبى للضُّـحى ونـمَّ[10] بأسـرار نجـدٍ جَهَـارَا
أعـدهُ علـيَّ حـديثاً بَلـى أدرهُ علـيَّ رحيقـاً مُـدارا

شبَّه الصَّبا وهي ألطف الرياح وأبردها بالخيل ، واستعار لها منه الحافر وتحريكه ، وأراد انطلاق هذه الصَّبا في الرُّبا ، فشخَّصها ، وجعلها قد تعثر في

---

(١) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها ، دكتور إبراهيم بن مراد ، ص١٧٨ .

(٢) الطَّرف : من الخيل الكريم العتيق ، انظر : اللِّسان ، مادة (طرف) .

(٣) الناسم : نفس الريح إذا كان ضعيفاً ، والمنسم طرف الخف أو حافر الدابة ، انظر : اللِّسان ، مادة (نسم) .

(٤) عثارا : جمع عثرة وهي الزَّلة والكبوة ، انظر : اللِّسان ، مادة (عثر) .

(٥) عليلٌ : ضعيف ، انظر : اللِّسان ، مادة (علل) .

(٦) البليل : الريح الباردة مع ندى ، انظر : اللِّسان ، مادة (بلل) .

(٧) يُذكي : يلهب ويشعل ، انظر : اللِّسان ، مادة (ذكا) .

(٨) الأوارا : توقّد النَّار وحرُّها ، انظر : اللِّسان ، مادة (أري) .

(٩) وشى : نمَّ وسعى ، وهو استخراج الحديث باللطف والسؤال ، انظر : اللِّسان ، مادة (وشي) .

(١٠) نمَّ : النمام معناه في كلام العرب الذي لا يمسك الأحاديث ولم يحفظها ، والنمّ : نقل الحديث من قومٍ إلى قوم ، ونمَّ الحديث ، إذا ظهر ، انظر : اللِّسان ، مادة (نمم).

الخزامى التي استعار لها من المرأة ذيل الثوب وجرِّه ، لأنه أراد صورة تحريكِ الرِّياح للأغصان ، فجعلها عثرة منها في ذيل ثوب الخزامى ، وقال (ناسم) وهو الحافر ، فلاءم في اللفظ بينه والريح ذات النسائمِ الرقيقةِ العليلة .

ومدَّ الصُّورة في البيت الثاني ، فأشبع وصف الصَّبا ، وذكر أنَّها ضعيفةٌ باردةٌ ذاتُ ندى ، يداوي نسيمها السَّقم ، ولكنَّه يشعل نار الشوقِ ويلهبها ، فطابق في الصُّورة بين (برودة الصَّبا) و (تلّهب نار الوجد في متنسِّمها) ، وبين (سُقم الريح في ذاتها وأراد به ضعفها) و (شفاءها من يتنفَّسها من علَّة الشوق) ، ثمَّ عاد فشخَّصَها مرَّةً أُخرى ، فاستعار لها من الإنسان صفةَ الوشاية والنمَّ ، فجعلها تنقلُ حديث الرُّبى للضُّحى ، وتخبر عن نجد ، في تشخيصٍ أيضاً للرُّبى ، والضُّحى ، ونجد ، الذين جعل لهم أسراراً ، وأحاديث تُتَناقلُ عنهم ، ويُعْلَنُ عنها ، وذكر (الرُّبى) وأراد (الخصب) ، و (الضُّحى) وأراد (الإشراق) ، وجعل بينهما حديثاً عن نجد ، التي أراد بذكرها معهم إشاعةَ جوِّ الإسعاد ، لما لنجدٍ في النفوسِ من وهجٍ حنيني يثير ذكرياتِ الحبِّ والهوى ، ولذلك قال في البيت التالي (أعده حديثاً) وأراد بهذا الحديث هبوب النَّسائم على الرَّوابي ، وقال (أدره رحيقاً) فشبهه بالخمر وما تفعله في النفوسِ من انتشاء ولذَّة .

ثمَّ صوَّر في أبياتٍ أخرى من القصيدةِ الرواحل والرَّكب والظعائن وهم (جيرة غادروا) [1] هيَّجت ذكرهم نسائمُ الصَّبا ، فقال[2] :

رَمَتْ بهمُ في نحورِ الفَلاَ رواشقُ[3] أيدي حنايَا[4] المهارا[5]

---

(١) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها ، دكتور إبراهيم بن مراد ، ص١٧٩ .

(٢) المصدر السَّابق ، ص١٨٠ .

(٣) رواشق : الرشق الرمي ، ورواشق راميةٌ بالسهام ، انظر : اللِّسان ، مادة (رشق) .

(٤) الحنايا : جمع حنيَّة وهي القوس ، انظر : اللِّسان ، مادة (حني) .

(٥) المهارا : الإبل المهريَّة المنسوبة إلى مهرة بن حيدان أبو قبيلة ، وهم حيّ عظيم ، انظر : اللِّسان ، مادة (مهر) .

أثـــارَ القتـــامُ[1] عليهـــا دُخانـــاً تشـــبُّ شعاشِـــعُها[2] فيـــه نـــارَا
وصـــيَّرهَا السَّـــيرُ معنًـــى خفيًّـــا أطـــالَ بصـــدرِ الفيـــافِي سِـــرَارَا
وأنبـــتَ في قمريهـــا[3] عِشَـــارَا وفـــوقَ مناسِـــمِهَا[4] جُلَّنـــارَا[5]
ســـفائنُ بـــرٍّ يـــخـــضـــنَ السَّـــراب ويلبسنَ مـــن داجـــنِ اللَّيـــلِ قَـــارَا[6]

استعار في البيت الأوَّل النحور من الإنسان ،وجعل الفيافي مرميَّةً بالإبل التي كالسِّهام ، لأنَّه شبَّه أيديها بالأقواس ، ووصف في البيتِ التالي الغبار الذي تحدثُه سرعتُها وضربها في الأرض ، وقال (شعاشعها) وهم الرجال الخفيفون في السِّفار ، وأراد بإيقادهم النَّار في الغبار ،شدَّة حثِّهم الرواحل على السَّير ، ثم شبَّه سير هذه الإبل في البيت التالي بالمعنى الخفيِّ ،وهو تشبيه حسيٌّ بمعنوي، واستعار للفيافي الصَّدر من الإنسان ، الذي يحمل الأسرار ويحفظها ، فجعل الفلوات تضمرهم وتحفظهم ، حفظَ الرجل السرَّ وكتمانه له ، وأراد بتشبيه الإبل بالمعنى الخفيِّ ، شدَّة ضمورها من السَّير حتّى خفيت كالسرِّ الدَّفين .

ثم قال (وأنبتَ في قمريها عشاراً) وقد يكون أراد بالقمرين الشمس والقمر وتواليهما على هذه الرواحل ، ممَّا عنى به طول الرحلة حتى وضعت الإبل حملها ـ لأنَّ العشار الإبل الحديثة عهد بنتاج[7] ـ وحتى وصلت إلى مكان

---

(١) القتام : الغبار ، انظر : اللِّسان ، مادة (قتم) .

(٢) الشعاشع : جمع شعشع ، وهو الطويل الحسن الخفيف اللحم ، شبه بالخمر المشعشعة لرقتها ، ورجلٌ شعشع : خفيفٌ في السفر ، انظر : اللِّسان ، مادة (شعع).

(٣) قمريها : أقمرت الإبل ، وقعت في كلأ كثير ، والقمران : الشمس والقمر ، انظر : اللِّسان ، مادة (قمر) .

(٤) المنسم : طرف خف البعير ، انظر : اللِّسان ، مادة (نسم) .

(٥) الجلّنار : زهرة معروفة .

(٦) القار : الزّفت ، وهو شيءٌ أسود تطلى به الإبلُ والسفن يمنع الماء أن يدخل ، انظر : اللِّسان ، مادة (قير) .

(٧) انظر : اللِّسان ، مادة (عشر) .

الكلأ والعشب ، حيث الخصب والجلّنار ، ولذلك قال (فوق مناسمها) أي أن شدَّة عزمها أوصلتها إلى حيث ذاك .

كما قد يكون أراد بالقمرين أن الإبل وقعت في كلأ كثير ، لأن القمر الكلأ والماءُ وغيره ، وأراد بأنبتَ أنها سارت حتَّى وصلت إلى هذا المكان فكأنها أنبتته بعزمها تحت أقدامها ، وأرادَ بالعشار أنَّها لمَّا وصلت الأرض الخصبة الكثيرة العشب رعت ورتعت وأنتجت وولدت ، ولذلك قال (أنبت) وذكر الجلّنار الذي لا يكون إلاَّ في مكان خصبٍ ناعم ، جعله فوق مناسمها ، أي وَصَلَته ، ونعمت به .

ثم شبَّه الإبل على العادة البدوية القديمة بالسفائن ، واستعار لوصف إدلاجها في الظلام الدَّاجن أي : شديد السواد ، لبس القار ، وأراد الحلكة ، وهي صورة لونيَّة مطابقة في قتامتها ، لصورة الجلّنار السابقة التي كانت مزهرةً زاهية .

وفي مقطع آخر من القصيدةِ يقول الطويجن[1] :

وفي الكللِ[2] الـحُـمْـر بيضُ الطُّلي[3] حينَ اللِّمى وأبـحْـنَ الـذِّمَارَا[4]

أدارتْ بـهـنَّ العـوالي[5] سِـيَاجاً[6] وحفَّتْ بـهـنَّ المواضـي[7] إطـارا

---

(١) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها ، دكتور إبراهيم بن مراد ، ص١٨٠.

(٢) الكلل : جمع كلّة وهي الستر الرقيق ، انظر : اللّسان ، مادة (كلل).

(٣) الطّلي : الأعناق ، انظر : اللّسان ، مادة (طلي).

(٤) الذِّمار : ذمارُ الرجل هو كلُّ ما يلزمك حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه ، وإن ضيعته لزمك اللَّوم ، فالذمار ما لزمك حفظه والذمار الحرم والأهل ، والذمار الأنساب ، انظر : اللّسان ، مادة (ذمر) .

(٥) العوالي : جمع عالية ، وهي عالية الرمح أي رأسه ، انظر : اللّسان ، مادة (علا).

(٦) سياجاً : هو أن يسيج الحائط بالشوك أو الشجر لئلاَّ يتسوّر ، انظر : اللّسان ، مادة (سيج) .

(٧) المواضي : السيوف ، انظر : أساس البلاغة ، الزمخشري ، ٢/٣٩٠ ، مادة (مضي).

يرقّعن[1] باللَّحظِ خرقَ السُّجوفِ[2] وينظرنَ خوفَ الرقيبِ ازورارَا[3]

صوَّر الشَّاعر في البيتِ الأوَّل القباب والهوادج والنساءَ فيها ، فكنَّى عن بياضهنَّ بقوله (بيض الطُّلى) وذكر الطُّلى وأراد جميع الجسد ، وقال (حمينَ اللَّمى) أي :منعن عنَّا تقبيل الشفاه السُّمر الباردة الريق[4] ، وقال (أبحنَ الذِّمار) أي : لم يراعين حُرمتي وحفاظي في منعهنَّ اللَّمى ، وقد وظَّف الشاعر الموروث البدوي المعروف في حفظ ذمار الرَّجل أي ما يلزم حمايته والدفاع عنه ، في غرض النسيب ، وجاء الطويجن بصورةٍ لونيَّة في ذكره (الكلل الحمراء) و (النساءَ البيضَ) ، كما طابق بين (حمينَ) و (أبحن) ، ثم ذكر إضافةً لعفَّتِهنَّ التي جاءت في صورة منع اللَّمى ، منعةَ أهلهنَّ ، فذكر العوالي وهي الرماح التي شبَّهها وهي تحفُّ هوادجهنَّ ، بالسِّياج من الشوك أو الشجر الذي يتخذ لحماية البساتين ، وكذلك شبَّه السيوف الماضية وهي مشرعةٌ دونهنَّ ، بالإطار الذي يحفُّ ما يُخشى عليه ، ويحوطه .

ثم قال في البيت التالي (يرقّعن باللَّحظ خرقَ السجوف) والسجوف : الأستار التي توضع على الهوادج ، شبَّه اختلاسهنَّ النَّظَر من خلالها بالرُّقع التي يُسدَّ بها خللُ الثياب أو الأستار المتخرِّقة ، ثم وصَفَ النظرة المُختلسَةَ خشية الرقيبِ لأنه ذكر الرِّماح والسيوف ، وهذا البيت يشبه قول عمر بن أبي ربيعة[5]:

وكنَّ ، إذا أبصرنَني أو سمعنَني سعينَ فرقَّعنَ الكُوَى[6] بالمحاجرِ[7]

---

(١) يرقّعْن : يُسدِّدن خلله ، انظر : اللِّسان ، مادة (رقع) .

(٢) السجوف : الستور ، انظر : اللِّسان ، مادة (سجف) .

(٣) ازورارا : ميلاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (زور) .

(٤) انظر : اللِّسان ، مادة (لما) .

(٥) ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ص٢١١ .

(٦) الكوى : الخرق في الحائط ، والثقب في البيت ونحوه ، انظر : اللِّسان ، مادة (كوي).

(٧) المحاجر : محجر العين ، ما دار بها وبدا من البرقع من جميع العين ، وقيل هو ما يظهر من نقاب المرأة ، انظر : اللِّسان ، مادة (حجر) .

غير أنَّ ابن أبي ربيعة ، ذكر الكُوى وتكون في الحائط ، ووصف خروجاً للنظر ومحاجر ، لأنه أراد وصف حاله أيام شبابه وصباه وخروج النساء لرؤيته في ذلك الوقت[1] ، أما الطويجن فقد كانت الصورة عنده أكثر تبدِّياً لأنَّه ذكر سجفاً على الهوادج وخرقاً فيه ، ولحظاً أراد به نظراً بمؤخر العين[2] لأنه نظرُ اختلاسٍ واستراق نظرٍ لتوديع وقت ارتحال الظعائن ، ولذلك قال بعد ذلك[3]:

أشائمةً[4] اللَّحظ عَنْ مُذْهب[5] كسيفِ أبيها شَبًا[6] أو غِرارًا[7]
حناناً[8] ! فلولاكِ لم أعتسفْ[9] فلاةً ولم أتشوَّقْ مَزَارًا
ولا كان خَدِّيَ يعفُو الرُّسومَ[10] ولا سيلُ دمعيَ يسقي الدِّيارًا

فصوَّر لحظَها ، ونظرة عينها وما أحدثته في قلبه ، وشبَّهه بحدِّ السيفِ الذي جُرِّدَ من غمده ، وشبَّهه بسيفِ أبيها المذهب ، وأراد بذلك عزَّة والدها وقوَّته وشجاعته ، وبالتالي منعتُها ، ثم قال (حناناً) أي : أطلبك رحمة وعطفاً لما

---

(١) يقول :

رأين الغواني الشيبَ لاح بعارضي فأعرضنَ عنّي بالخدود النواضرِ
وكنَّ إذا أبصرنني أو سمعنني سعين فرقّعنَ الكوى بالمحاجر

انظر : ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ص٢١١ .

(٢) انظر : اللّسان ، مادة (لحظ) .

(٣) مختارات من الشعر الأندلسي والمغربي لم يسبق نشرها ، دكتور إبراهيم بن مراد ، ص١٨١

(٤) شائمة : شأم السيف شيماً سلَّه وأغمده ، انظر : اللّسان ، مادة (شيم) .

(٥) مذهبٍ : مطليٌّ باللَّهب ، انظر : اللّسان ، مادة (ذهب) .

(٦) شباً : حدّ طرف السيف ، انظر : اللّسان ، مادة (شبا) .

(٧) غرارا : حدّ السيف ، انظر : اللّسان ، مادة (غرر) .

(٨) حناناً : أي عطفاً ورحمة ، انظر : اللّسان ، مادة (حنن) .

(٩) أعتسف : أسيرُ بلا هداية وقصد ، انظر : اللّسان ، مادة (عسف) .

(١٠) يعفو الرسوم : يمحيها ويدرسها ، انظر : اللّسان ، مادة (عفا) .

فعله هذا النَّظرُ بي ، وجعلها سبباً لاعتسافه البيد ، وقطعه الفيافي بلا هداية ، وبكائِهِ على الطلولِ والدِّيار .

والصُّورة فيها توظيفٌ بدويٌّ ، لوصف حبّ عذري ، شخَّص الشاعر فيها الطبيعةَ من رياحٍ ونباتاتٍ ، في مشهدٍ يشي بالإسعادِ لتذكير الصَّبا بالأحبَّة ، وهي صورة عذريَّة ، تبعتها صورة الحبيبة المرتحلة فوق رواحل استعار لها من السهام ، وشبَّهها بالسفائن ، وكانت الصُّورة قاتمةً لأنها تسري بالأحبة ، ولذلك ذكر الغبار ، والنار ، والقار ، ولم تشرق الصورة سوى في القمرين والعشار حيث حلَّتْ الرواحلُ بمن يهوى ، وجاء بعد ذلك بمقطع الهوادج والستور ، وفيه تركيز على النظرةِ واختلاسها ، وفعلها بالقلب ، لأنه أراد التوديع .

ويجمعُ بين هذه الصُّور ؛ أنها تصفُ هوًى عذريًّا ، اتخذ الشاعر لوصفه مشاهد بدويَّة ، في صور (الطبيعةِ والرواحل والظعائن) التي طغى عنصر اللَّون على مقاطعها : في الضحى وإشراقه ، والرُّبى من خلال وصف الطبيعة ، وفي القَتَام والنار والقار في مقطع وصف الرواحل ، وفي الحمرة واللمى والذهب في مشهد الظعائن .

غير أنَّ العاطفة في الصورة الممتدَّة هنا ، كانت خافتةَ الصَّوت ، خلافاً لما هي الحال عليه ـ غالباً ـ في مثل هذه الصُّور البدويَّة التي يرتفع فيها نغم الحنين والوله والوجد .

ومن الصُّور الممتدَّة في الشعر الأندلسيّ ، صورة وصف المطر ، التي تناولها الشعراءُ الأندلسيُّون من خلال الخيال البدويّ ، ومن ذلك ، قول ابن درَّاج[1]:

لعلَّ سنَا البرقِ الذي أنا شائمٌ[2] يهيمُ من الدنيا بمن أنا هائمُ

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص٢٥١ .

(٢) شائم : شام السحاب والبرق شيماً نظر إليه أين يقصد وأين يمطر ، انظر : اللِّسان ، مادة (شيم) .

أما في حشاهُ[1] من جـــوايَ[2] مخايـــلٌ[3] أما في ذُراهُ[4] مـــن جفـــوني مياســـمُ[5]
لقد برَّحَتْ[6] منـــهُ ضـــلوعٌ خوافـــقٌ وقد صرَّحت منـــه دمـــوعٌ ســـواجمُ[7]

فابن درَّاج في هذه الصُّورة يسقط من نفسه على البرق ، ويوحِّد بينهما ، فيستعير للبرق من ذاتِهِ صفةَ الهيام بمن يحبُّه الشاعر ، فيرى أن جوى الحبِّ الذي أحسَّه قد داخل حشا البرق ، وأن في ذراه من جفون الشاعر ، والدليل هو خفق البرق ، الذي جعله الشاعر وجيبَ قلب ، وانهمارُ المطر الذي جعله بكاءً ، وفي الصُّورة تداخلٌ في المشاعر بين الشاعر والبرق ، وبداوة الصُّورة تأتي في شيم البرق ، والتطلُّع إليه وتهييجِه الأشواق ، والحديث عن البرق وصورته في السَّماء ، من المكوِّنات المحوريَّة الأساسيَّة في القصيدة الجاهليَّة ، وقلَّما كان شعرٌ جاهليٌّ لم يذكر فيه البرق وشيمه ، وتهييجه لواعجَ الهوى ، أو تخيُّل صورة المحبوبة من خلاله ، ولذلك ألبس الشاعرُ البرق من نفسه ، فاستعار له صفات خفقِ الضلوع وانسجام الدموع .

ثم يقول ابن درَّاج في مقطعٍ تالٍ[8] :

ونفحُ الصَّـــبا يهفـــو[9] علـــى جنباتِـــهِ كتصـــــعيدِ أنفاســـــي إذا لامَ لائـــــمُ

---

(١) الحشا : ما بين الضلوع ، انظر : اللِّسان ، مادة (حشا).
(٢) جوايَ : الجوى : الحرقة وشدَّة الوجد ، من عشقٍ أو حزن ، انظر : اللِّسان ، مادة (جوا).
(٣) مخايلٌ : المخيلة الظن ، والمخيلة السحابة ، وأخيلت السماء إذا تهيَّأت للمطر ، انظر : اللِّسان ، مادة (خيل).
(٤) ذُراه : أعلاه ، انظر : اللِّسان ، مادة (ذرا).
(٥) مياسمُ : آثار ، والميسم أثر الجمال والعتق ، انظر : اللِّسان ، مادة (وسم).
(٦) برَّحت : زادت من البرح وهو العذاب الشديد ، انظر : اللِّسان ، مادة (برح).
(٧) سواجم : متقطرة سائلة ، انظر : اللِّسان ، مادة (سجم).
(٨) ديوان ابن درَّاج ، ص٣٥١.
(٩) يهفو : هفا الشيء في الهواء ذهب ، انظر : اللِّسان ، مادة (هفا).

وتحنانُ[1] رعـدٍ صـادعٍ[2] لمتونِـهِ[3] كما زفرتْ نفسي بمن أنا كاتمُ
وميضٌ تشـبُّ الـريحُ والرَّعـدُ نـارَهُ كما شبَّ نـيرانَ المجـوسِ الزمـازمُ[4]

فشبَّه ابن درَّاج صوت تناوحِ الرياح وهبوبها في جنبات البرق ، بصوتِ أنفاسِهِ وتصعيدها ، وقال (إذا لام لائم) بما أراد به التبرُّمَ والضيقَ بهذا اللَّوم ، لأنَّه لومٌ لعاشقٍ ، ثمَّ شبَّه في البيتِ التالي صوت الرَّعد الذي يشقُّ السحب ، بصوتِ أنفاسِهِ وزفرتِهِ لشدَّة ما يجد من الوجد ، ثم جمع الريحَ والرَّعدَ في البيت الثالث وشبَّه أصواتهما بصوت زمزمةِ المجوس ، الذين يعظِّمون النار .

والصورة هنا صوتيَّةٌ بصريَّة ، صوتية : في تشبيه صوتِ الرياح وهبوبها وصوت الرعد الذي جعله تحناناً شجيًّا بصوت أنفاسِهِ وتصعيده ، وصوتِ هديرِ الرَّعدِ بزمزمة المجوس ، كما جاء في البيت الثالث بصورة بصريَّةٍ من خلال تشبيهه الرَّعد بنيران المجوس .

والتشبيه بأصوات المجوسِ قديمٌ في الشعر ومنه قول كعب بن زهير[5]:
وباكرنَ جَوفـاً[6] تنسـجُ الـريحُ متنـهُ تنـاءمُ[7] تكلـيمَ المجـوسِ غرانقُـهُ[8]

---

(١) تحنان : الحنين الشوق ، وتوقان النفس ، والحنين الشديد من البكاء والطرب ، والحنون من الرياح التي لها حنين كحنين الإبل ، أي صوتٌ يشبه صوتها عند الحنين ، انظر : اللِّسان ، مادة (حنن).
(٢) صادع : صدع شقَّ ، انظر : اللِّسان ، مادة (صدع).
(٣) متونِه : ظهوره ، انظر : اللِّسان ، مادة (متن).
(٤) الزَّمازم : الزمزمة كلام المجوس عند أكلهم وهو كلام يقولونه بصوت خفيّ ، تديره في خياشيمها وحلوقها فيفهم بعضه عن بعض ، والزمزمة صوت الرعد ، وهو أحسنه صوتاً ، وأثبته مطراً ، انظر : اللِّسان ، مادة (زمم).
(٥) شرح ديوان كعب بن زهير ، ص١٩٤.
(٦) الجوف : المطمئن من الأرض ، انظر : اللِّسان ، مادة (جوف).
(٧) تناءم : النئيم الصوت الخفي الضعيف غير المفهوم ، انظر : اللِّسان ، مادة (نأم).
(٨) غرانقه : الغرنوق طائرٌ أبيض ، طويل القوائم ، انظر : اللِّسان ، مادة (غرنق).

غير أنَّ كعباً شبَّه أصوات الطيور (الغرانق) بأصواتِ تكلم المجوس ، أمَّا ابن درَّاج فقد ضمّ إلى الصوتِ الصورة في تشبيه صوت الرَّعد ولمعانِهِ بمجوسٍ تراطنوا حول نارهم ، وأضاف إلى الرعدِ الريحَ في الصوت ، فشبَّه ابن درَّاج أصوات الرِّياح في الفيافي بصوتِ همهمة المجوس وهو قريبٌ من تشبيه أصواتِ هذه الرياح بصوتِ عزيف الجنّ الذي كثر في الشعر الجاهلي .

ثم قال بعد ذلك[1] :

حميلٌ[2] بحملِ الرَّاسياتِ[3] إلى الذَّي ... تحمَّلني عنه القلاصُ[4] الرَّواسمُ[5]

وما أنجدتْ[6] فيه النجودُ تصبُّري ... ولا أتهمتْ وجدي عليه التهائمُ[7]

سوى لوعةٍ لو يغلبُ الصبرُ نارَها ... لشامني البرقُ الذي أنا شائمُ

قال (حميلٌ) أي : أن هذا البرق كفيلٌ بحمل السحب المليئة بالمطر إلى من حملتني عنه النُّوق القويَّة ، وأراد بذلك أن يرسلَ المطر المخصبَ إلى من يهواها ، ثم وصف الشاعر هواه فقال : إن صبره لم يرتفع أو لم يذهب عنه واستعار له صفةَ الإنجاد ، كما أن وجده لم ينخفض أي لم يَغُرْ وينتهي واستعار له صفة الإتهام ، وأراد بذلك أنَّ الصبر لا يعني اضمحلالَ الحبّ أو زواله ، ولذلك أكد هذا المعنى في البيت التالي بقوله : إنَّه لولا هذا الصبر لتوقّدت اللَّوعة في صدره ناراً ، حتّى صحَّ أن يشيمه أي (ينظر إليه) البرق الذي يتطلَّعُ

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص٢٥١ .

(٢) حميل : كفيل ، انظر : اللِّسان ، مادة (حمل).

(٣) الرَّاسيات : إذا ثبتت السحابة بمكان قيل ألقت مراسيها ، أي استقرَّت ودامت ، وجادت ، انظر : اللِّسان ، مادة (رسا).

(٤) القلاص : النوق الفتيَّة ، انظر : اللِّسان ، مادة (قلص).

(٥) الرواسم : المؤثرات في الأرض من شدَّة الوطء ، ورسمت الناقة ، أثرّت في الأرض من شدَّة وطئها ، انظر : اللِّسان ، مادة (رسم).

(٦) أنجدت : ارتفعت وأشرفت ، ونجود جمعها ، انظر : اللِّسان ، مادة (نجد).

(٧) التهائم : التهمة ، الأرض المتصوبة إلى البحر ، انظر : اللِّسان ، مادة (تهم).

إليه الشاعر ، وأراد أنه لولا مغالبة النفس لكان لكثرةِ الوجد أشدّ اشتعالاً من البرق ـ وفيه مبالغة ـ .

والصُّورة الممتدَّة هنا داخلتها البداوة من خلال مشاهد البرق والرَّعد التي وظَّفها الشاعرُ لخدمة سياق وصف الهوى ولواعجه ، والرابط فيها هو هذا التداخل ، والمفاعلة التي أحدثها الشاعر بين البرق وذاته ، والتلاحم بينهما في المشاعر ، حتى أصبح حديثه عن البرق حديثاً عن نفسه والعكس صحيح .

ومن الصُّور البدويَّة الممتدَّة للسحب والمطر ، قصيدةٌ لابن هانئ ، قال فيها[1] :

أنُظلمُ إن شِمْنا[2] بوارقَ لـمَّـحَـا[3] وضَحْنَ لساري اللَّيلِ من جنبِ توضَحَا[4]
بعينك ، أن باتت تُحـرِّق كورَهَـا[5] محجّلةً[6] ، غُرًّا[7]، من الـمُزنِ دُلَّحَا[8]

والبيتُ فيه استفهام إنكار ، والمقصود إننا لن نُظلم في هذا الليل ونحن نرى إيماض البروق ولمعها من جهة (توضح) ، وهو مكان بدويٌّ ذكره امرؤ القيس قال (فتوضح فالمقراة)[9]، ولعلَّ ابن هانئ خصَّ (توضح) من الأماكن البدويَّة ، لمناسبة اللفظ مع توضُّح البرق ولمعه ، وأتمَّ الصُّورة في البيت التالي فقال

---

(١) ديوان ابن هانئ ، ص٧٥ .
(٢) شمنا : نظرنا البرق أين يقصد ، وأين يمطر ، انظر : اللِّسان ، مادة (شيم) .
(٣) لمّحا : لمح البرق لمع ، انظر : اللِّسان ، مادة (لمح) .
(٤) توضحا : موضع معروف ، انظر : اللِّسان ، مادة (وضح) .
(٥) كورها : كور الحدّاد الذي فيه الجمر وتوقدُ فيه النار ، وهو مبني من الطين ، انظر : اللِّسان ، مادة (كور) .
(٦) محجَّلةً : الفرسُ المحجَّل ، الذي يرتفع البياض في قوائمه موضع القيد ، ويجاوز الأرساغ ، انظر : اللِّسان ، مادة (حجل) .
(٧) غرًّا : الغرة بياضٌ في الجبهة ، انظر : اللِّسان ، مادة (غرر) .
(٨) دلَّحا : مملوءةٌ بالماء ، انظر : اللِّسان ، مادة (دلح) .
(٩) ديوان امرئ القيس ، ص٢١ .

(بعينك) فخاطبَ رفيقاً على العادة الجاهليَّة ، أي أننَّا لم نُظلِم وأنت ترى بعينكِ هذا التوقُّدُ للبرق الذي شبَّهه في ذلك بمجمرةِ الحدَّاد ، وشبَّه السحبَ في بياضها ، لامتلائها بالماء بالخيول المحجَّلةِ الغُرِّ ، ثمَّ قال[١] :

ولـمَّـا احتضنَّ اللَّيلَ أرهفنَ[٢] خصرُه فبـاتَ بأثنـاءِ الصَّـباحِ مُوشَّـحَا[٣]

تحمَّـل سـاريَها[٤] إلينـا تحيَّـةً فهـيَّجَ تـذكاراً ووجـداً مُبرِّحَـا

وعارضُـه[٥] تلقـاءَ أسمـاءَ عـارضٌ[٦] تكفّـى[٧] ثـبيرٌ[٨] فوقَـه فترجَّحَـا[٩]

استعار ابن هانئ للسحب صفة الاحتضان ، واستعار لليل الخصر من المرأة ، فجعل السُّحب تحضنه فتضمره وترهفُه ، ويومض في أثنائها البرق كالصباح ، وشبَّهه في ذلك بالوشاح على المرأة ، ورؤية الوشاح في السماء قديمةٌ في الشعر ، ومنه قول امرئ القيس[١٠]:

إذا مـا الثريَّـا في السـماءِ تعرَّضـت تعـرُّضَ أثنـاءِ الوشـاحِ المفصَّـلِ

أي : لم تستقم في سيرها ، ومالت كالوشاح المعوجِّ أثناؤه على جاريةٍ توشَّحت به[١١]، فاستعار ابن هانئ لليل الوشاح من البرق ، فكان هذا الليل

---

(١) ديوان ابن هانئ ، ص٧٥.

(٢) أرهفن : أنحلن ورقّقن ، انظر : اللِّسان ، مادة (رهف).

(٣) أثناء الصباح : في تضاعيف الصَّباح ، وأثناء الوشاح ما تثنى منه ، انظر : اللِّسان ، مادة (ثني) .

(٤) ساريها : السارية السحابة التي بين الغادية والرائحة وهي السحابة الممطرة التي تكون بالليل ، انظر : اللِّسان ، مادة (سرا).

(٥) عارضه : جاء معترضاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرض).

(٦) العارض : السحاب المطلّ الممطر ، يعترض الأفق ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرض).

(٧) تكفّى : تناظرَ ، انظر : اللِّسان ، مادة (كفي).

(٨) ثبير : جبل معروف عند مكة ، انظر : اللِّسان ، مادة (ثبر).

(٩) ترجَّحا : مال ، انظر : اللِّسان ، مادة (رجح).

(١٠) ديوان امرئ القيس ، ص٣٦.

(١١) انظر : اللِّسان ، مادة (عرض).

يظهر منه ويختفي ، بما أراد به أن البرق انتشر وكثر حتّى أضاء معظم الليل ، وكان في نوره كالصَّباح .

ثمَّ شخّص ابن هانئ السحابة ، وجعلها تحمل تحيّةً ممّن يحب ، وهي تحيَّةٌ هيَّجت الوجد والشوق ، عارض هذه التحيَّة العارضُ وهو السحاب المليء بالمطر المتوجّه لديار أسماء ، وقد غالب هذا السَّحاب - في عظمه وامتلائه بالماء - ثبيراً وهو جبلٌ عظيم فغلبه ، في استعارة لصفة المغالبةَ للسحاب والجبلُ ، ثمَّ قال[1] :

ولـمَّا تـهادى[2] نكبَ البيدَ[3] معرضاً ... وأتأقَ[4] سـجلاً[5] للريـاضِ فطفَّحـا[6]

تدلَّى[7] فخلتُ الدَّكنَ[8] من عذباتـه[9] ... كواسرَ فتخاً[10] في حفافيه[11] جُنَّحـاً[12]

فاستعارَ للسَّحابة من المرأة صفة التَّهادي في المشية مما ناسب به ذكر الوشاح - الذي تلبسه المرأة - وهي مشيةٌ فيها تمايلٌ وسكون للثقل والامتلاء ، ثم جاء بفعل (نكَّبَ معرضاً) أي أنَّ هذا السحاب تهادى حتَّى ظُنَّ أنَّه سيسقي البيد إلاَّ أنَّه عاد وعدل ومال عنها ، فاستعار له هذا الوصف من الإنسان ، وهو

---

(١) ديوان ابن هانئ ، ص٧٥ .

(٢) التهادي : مشي النساء والإبل الثقال ، وهو مشيٌ في تمايل وسكون ، انظر : اللِّسان ، مادة (هدي).

(٣) نكَّب البيد : عدل عنها معرضاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (نكب).

(٤) أتأق : ملأ ، انظر : اللِّسان ، مادة (تأق).

(٥) السجل : الدلو الضخمة المملوءة ماء ، انظر : اللِّسان ، مادة (سجل).

(٦) طفَّحا : امتلأ وارتفع حتّى فاض ، انظر : اللِّسان ، مادة (طفح).

(٧) تدلَّى : ازداد في القرب ، انظر : اللِّسان ، مادة (دلا).

(٨) الدكِن : لون يضرب للسواد ، انظر : اللِّسان ، مادة (دكن).

(٩) عذباته : أطرافه ، وأراد أطراف السحابة المتدلية ، انظر : اللِّسان ، مادة (عذب).

(١٠) الفتخ : العقاب اللينة الجناح ، انظر : اللِّسان ، مادة (فتخ).

(١١) حفافيه : جانبيه ، انظر : اللِّسان ، مادة (حفف).

(١٢) جنَّحا : مائلة للسقوط ، انظر : اللِّسان ، مادة (جنح).

عندما عدل عن البيدِ قصدَ الرِّياض فصبَّ عليها الماء وشبهه في هذا الصبِّ بالدِّلاء العظيمة التي ملأت هذه الرياض حتَّى فاضت ، ومَطَل صورة المطر والسحاب فجعله يدنو ويقترب من الأرض وشبَّهه في سواده لامتلائه بالماء وقربه من الأرضِ بالعقاب الفتخاءِ اللَّينةِ الجناح ، التي تجنحُ وتميلُ إلى الأرض بجامع السواد لأنه قال (الدَّكن) ، والميلان لأنَّه ذكر (التدلِّي) و (الجنوح) ، ثمَّ قال[1] :

لتغدُ[2] غواديه[3] بمنعرجِ[4] اللِّوى[5] موائحَ[6] رقراقٍ[7] من الرَّيِّ[8] مُتَّحَا[9]
سقتهُ فمجَّتْ[10] صائكَ[11] المسكِ حُفَّلاً[12] تسحُّ[13] وأذرتْ لؤلؤَ النظمِ نُضَّحَا
فلم تُبقِ من تلكَ الأجارعِ[14] أجرعَا ولم تُبقِ من تلكَ الأباطحِ[15] أبطَحَا

---

(١) ديوان ابن هانئ ، ص٧٦.
(٢) لتغدُ : أي لتذهب بكرة ، وهي ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس ، انظر : اللِّسان ، مادة (غدا).
(٣) غواديه : جمع غادية وهي السحابة تنشأ غدوةً ، انظر : اللِّسان ، مادة (غدا).
(٤) منعرج : منعطف ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرج).
(٥) اللِّوى : ما التوى من الرَّمل ، انظر : اللِّسان ، مادة (لوي).
(٦) موائح : المائح أن يدخل الرجل البئر فيملأ الدلو ، انظر : اللِّسان ، مادة (ميح).
(٧) الرقراق : السحاب ما ذهب منه وما جاء ، والرقراق أيضاً التلألؤ ، انظر : اللِّسان ، مادة (رقق).
(٨) الريّ : الماء العذب الذي فيه ري وإشباع ، انظر : اللِّسان ، مادة (روي).
(٩) متَّحا : المتح ، استخراج الماء بالدلو من البئر ، انظر : اللِّسان ، مادة (متح).
(١٠) مجّت : صبَّتْ ، انظر : اللِّسان ، مادة (مجج).
(١١) صائك : صاك به الطيب ، عبق به وتلطخ به ولصق ، انظر : اللِّسان ، مادة (صوك).
(١٢) حُفَّلاً : مملوءةً ، انظر : اللِّسان ، مادة (حفل).
(١٣) تسحُّ : تسيل وينصبُّ ماؤها ، انظر : اللِّسان ، مادة (سحح).
(١٤) الأجارع : جمع أجرع رملة مستوية لا تنبت شيئاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (جرع).
(١٥) الأباطح : سهل واسع فيه رمل وحصى دقاق ، انظر : اللِّسان ، مادة (بطح).

قال (لتغدُ غواديه) أي لتذهب سحبه وتباكر (منعرج اللّوى) وهو ما انعطف من الرَّمل والتوى وهو أيضاً موضع بعينه ذكره الشعراءُ كثيراً[1] ، وشبَّه هذه السحب في سكب الماء وانصبابه بالبدويِّ الذي يستقي من البئر فيمتح الماء أي يملأ الدَّلو ليفرغه ، وقال (من الريّ) أي أنَّها صبَّت الماء حتَّى أروت ، وقال (مُتَّحا) بصيغة الجمع لأنَّه أراد إفراغها الماء المرَّة بعد المرَّة ، بما يعني به انسكاب المطر ، والمتح مناسبٌ لتشبيه السحب بالدلاء أو السَّجل في قوله سابقاً (وأتأقَ سجلاً) ، وذكر أنه رقراقٌ أي أنه متلألأ ، ورقراقُ السحاب ـ يعني أيضاً ـ ما ذهب منه وجاء ، ثمَّ أتمَّ في البيتِ التَّالي صورةَ الارتواء فاستعارَ للسَّحابة ، صفة مجِّ الماء من الفم ، وجعله مسكاً صائكاً أي عبقاً ملتصقاً بها فلمَّا مجَّتهُ وصبَّته ذاعت رائحةُ المسك وظهرت ، وأرادَ بذلكَ أن يصفَ مطراً روى الأرض ، حتّى أعشبَ الزَّهر ، وحتَّى ظهرت رائحته ، وهو مناسب لقوله السَّابق أن السَّحابَ قصدَ الرَّوضَ ، ثمَّ قال (حُفَّلاً ، ونُضَّحًا ، وتسحُّ) وكلُّها صفاتُ امتلاء ، وارتواء ، وإرواء ، ثمَّ أكمل صورة هذا المطر المغدق العظيم الانصباب بأنَّه لم يترك أجرعًا أو أبطحاً إلاَّ سقاهُ ورواه ، حتّى لم تعد رمالاً وإنَّما رياضاً معشبةً ، وهو ما أراده بقوله : إنَّ الأجرع لم يعد أجرعاً ، والأبطح لم يعد أبطحاً .

وابن هانئ في هذه الصُّورة الممتدَّة للمطر ، أغنى فيها الخيال البصري : في ذكره شيم البرق ولمعه ، والخصر والوشاح ، والتهادي في السماء ، والتدلِّي إلى الأرض ، ومغالبة ثبير ، وصورة الكواسر ، وتشبيه حبات المطر باللؤلؤ ، وتشبيه انصباب الماء بالمتح والدِّلاء .

وأغنى هذه الصُّورة البصرية باللَّون : في ذكره التحجيل والغُرر ، والروض والدُّكن ، وجمع إليها الشمّ : في ذكره الرَّائحة العبقة من المسك الممجوج .

---

(١) اللَّوى : بالكسر وفتح الواو والقصْر ، وهو في الأصل منقطع الرَّملة ، وهو أيضاً موضعٌ بعينه قد أكثرت الشعراءُ من ذكره ، وخلطت بين ذلك اللوى والرمل ، فعزَّ الفصل بينهما ، وهو وادٍ من أودية بني سليم . انظر : معجم البلدان ، ٢٣/٥.

فالصُّورة الممتدَّة هنا ، وصف فيها برقاً لامعاً أضاءَ الليل ، وبدَّد ظلامه ، وسحباً بيضاً ممتلئةً ، وسقيا أشبعت الأرض وروتها حتَّى لم تعدْ رملاً بل رياضاً معشبة ، فالصُّورة الممتدة للمطر في هذه القصيدة جمع بينها معاني الإشراق ، والارتواء ، والنماء والإسعاد ، وهي المعاني التي حفلت بها صورة المطر ـ غالباً ـ منذ القدم .

وهي صورةٌ مختلفةٌ عن وصفه للمطر في قصيدةٍ أُخرى لاختلاف السِّياق ، فالصُّورة السابقة كانت من قصيدةِ مدح ، أمَّا هنا فالصُّورة في الرِّثاء ، ولذلك قال[1] :

وقد قلتُ للعارضِ[2] المكفهرِّ[3] أفي السِّلمِ ذا البرقُ أم في الوغى؟
وما بالُهُ قادَ هذا الرَّعيلَ[4] وقلَّدَ[5] ذا الصَّارمَ المُنْتَضَى[6]
وأقبلَه[7] المزنُ في جحفلٍ[8] وأكذبَ أن صدَّعَني الكرى

والصُّورة للمطر هنا مقبضة ؛ فالعارض المكفهرِّ السحاب الذي يغلظُ ويسودُّ ويركب بعضه بعضاً ، وكان من الممكن أن يأتي بوصفٍ آخر للسَّحاب ، ولكنَّه ذكر المكفهرَّ لأنه يعني في الإنسان التجهُّم والعبوسَ وقَبضَ الوجه ، وهي الصُّورة التي أرادها للسحب هنا ، لأنَّه ذكر بعد ذلك جيشاً وجحفلاً وسيوفاً وهو مشهدٌ يدعو للعبوس .

---

(١) ديوان ابن هانئ ، ص٢٨.
(٢) العارض : السَّحاب المطل الممطر يعترض في الأفق ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرض).
(٣) المكفهرّ من السحاب : الذي يغلظ ويسودُّ ، ويركب بعضه بعضاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (كفهر) .
(٤) الرعيل : القطعة المتقدّمة من خيل ورجال وإبل ، انظر : اللِّسان ، مادة (رعل).
(٥) قلّد : حمل السيف ، انظر : اللِّسان ، مادة (قلد).
(٦) المنتضى : نضى السيف سله عن غمده ، انظر : اللِّسان ، مادة (نضي).
(٧) أقبله : جعله قبالته ، أمامه ، انظر : اللِّسان ، مادة (قبل).
(٨) الجحفل : الجيش الكثير ، انظر : اللِّسان ، مادة (جحفل).

فاستعار للبرقِ صفة قيادة القطعة من الخيول أو الرجال ، وجعله يحمل سيفاً مسلولاً من غمده لأنَّه أراد اللمعان ، واستعار للمزن صفة الجحفلِ أو الجيش الذي قابل رعيل البرق ، بما أراد به أن يصوّر مشهداً حربيًّا نقله للسَّماء .

ثم قال : (وأكذبَ أن صدَّ عنّي الكرى) ، وأكذب : ألفاه كاذباً ، ويقال : كذب البرق وكذب الرأي أي توهَّم الأمر بخلاف ما هو به ، والتكذيب في القتال : ضدَّ الصِّدق فيه ، وهو الجبن[1]، وابن هانئ لمَّا ذكر الرَّعيل الذي يقوده البرق ، والجحفل من المزن ، كانت صورة هذين الجيشين المتقابلين تقتضي أن يكون قتالٌ أي مطر ، ولكنَّه برقٌ وجيشٌ كاذبٌ أي جبان صدَّ عن الشاعر النوم لتوقَّعه هطول المطر دون طائل ، ولذلك قال[2] :

أشيمكَ[3] يا برقُ شيمَ النُّجيمِ[4] وما فيكَ لي بللٌ من صَدَى[5]
كلانا طوى البيدَ في ليلهِ فأضعفُنَا يتشكَّى الوجى[6]
فجبتَ[7] الغمامَ وجبتُ الغرامَ حنانيكَ[8] ليس سُرىً من سُرى
أعنِّي على اللَّيلِ ليلِ التَّمامِ[9] ودعني لشَاني إذا ما انقضَى

---

(١) انظر : اللِّسان ، مادة (كذب).
(٢) ديوان ابن هانئ ، ص٢٨ .
(٣) أشيمك : أي أنظر إليك أين تقصد وأين تمطر ، انظر : اللِّسان ، مادة (شيم).
(٤) النجيم : تصغير النجم ، ونظر في النجوم فكّر في أمر ينظر كيف يدبره ، والمنجم الذي ينظر في النجوم يحسب مواقيتها وسيرها ، انظر : اللِّسان ، مادة (نجم).
(٥) الصدى : شدَّة العطش ، انظر : اللِّسان ، مادة (صدي).
(٦) الوجى : الحفا ، انظر : اللِّسان ، مادة (وجا).
(٧) جبتَ : قطعت وسطه ، انظر : اللِّسان ، مادة (جوب).
(٨) حنانيك : أي تحنّن عليّ مرّة بعد أخرى ، وحناناً بعد حنان ، انظر : اللِّسان ، مادة (حنن).
(٩) ليل التمام : أطول ما يكون من ليالي الشتاء ، وليل التمام أطول ما يكون من الليل ، انظر : اللِّسان ، مادة (تمم) .

فقال (أشيمكَ) أي أتطلَّع إليك وأنظر أين يكون مطرك ، وقد شخّص البرق هنا وخاطبه مخاطبة إنسان يبين ، ويُفهم عنه ، وشبَّه نفسه في ذلك بمن يشيم النجوم أي ينظر إليها نظر المقدِّر لمواقيتها وسيرها[1] ، وقال (وما فيك لي بلل من صدى) أي أنَّك خال حتَّى من قطر ندى يُخفِّف العطش ، ثمَّ شبَّه نفسه في السير في الفلا بالبرق ، أو شبَّه البرق بنفسه ، واستعار لهذا البرق صفة (الوجا) من البعير وهي أشدّ الحفَا ، وقد يكون أراد نفسه لأنَّه قال (أضعفنا) ، وعاد في البيت التالي وفصَّل في الصورة فذكر أنهما قطعا فيافٍ مختلفة : فالبرقُ جاب الغمام ، بينما جاب الشاعرُ الغرام (وأراد بالغرام هنا اللازم من العذاب والشر الدائم)[2]، ثم شخَّص البرق مرَّةً أُخرى فقال : (حنانيك) أي : تحنَّن عليَّ حناناً بعد حنان ، فليسَ السُّرى في الغمام مثل السُّرى في العذاب ، ولذلك طلب منه طلبه من شخص مساعدٍ مسعف ورفيق مصاحب وخاطبه خطاب الجاهليِّين لأصحابهم ، وطلبهم منهم إسعادهم ، إمَّا بالبكاء أو التعريج على الديار . . . فقال ابن هانئ (أعنِّي على اللَّيل ليل التمام) وليلُ التمام أطول ما يكون من ليالي الشتاء ، وأراد بذلك أن يصفَ أرقه وسهده ، وهو المعنى الذي أشار إليه في شيم البرق ، والتطلُّع للنجم وقعوده له في قوله سابقاً (صدَّ عني الكرى).

والصُّورة للمطر هنا مقبضةٌ ذكر فيها : الوغى والجحفل والرعيل والسلاح ، وكان السحاب مكفهرًّا كذبت مخيلته فلم يمطر ، ووصف فيها عذاباً ، وبرحاً ، وسهداً ، بما اختلفت به عن صورة المطر في القصيدة السابقة التي ذكر فيها إشراقاً وضياءً ، وامتلاءً وإرواءً وسقيا ، عمَّت الأرض ، وطبَّقت البطاح ، لأنه أراد هنا أن يصف نفساً حزينة لم ترَ في المطر إلاَّ صورة العبوسِ والتقطيب ، والبخلِ بالقطر والماء ، ولكنَّه قال في مقطع آخر[3]:

---

(١) انظر : اللِّسان ، مادة (نجم) .

(٢) انظر : اللِّسان ، مادة (غرم)، قال تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ (الفرقان:٦٥).

(٣) ديوان ابن هانئ ، ص٢٩ .

أقـــول وقـــد شـــقَّ أعلـــى الســـحابِ وأعلى الهضـــابِ[1] وأعلـــى الـــرُّبى[2]
أذَا الودقِ[3] في مثلِ هـــذا الرَّبـــابِ[4] وذا الـــبرقِ في مثـــلِ هـــذا السَّـــنَا
ألا انـــهـــلَّ[5] هذا بـــمـــاءِ القلـــوبِ وأوقـــدَ هـــذا بنـــارِ الحشَـــا
فيهمـــي علـــى أقبُـــرٍ لـــو رأى مكـــارمَ أربابـــهـــا مـــا هَمَـــى[6]

فعادَ لتشخيص البرق ومخاطبته ، واختلفت الصُّورة عن المقطع السابق لأنه هنا ذكر سحاباً أبيضَ ملأ الهضابَ والرُّبا ، وشبه انهمار المطر منه بانهمار الدموع ، وقال (ماءَ القلوب) وأراد قوَّة البكاء ، وانهماره حتى كان يسيلُ من القلوب فجعل المطر بكاءً ، وهو تشبيهٌ مقلوب ، وقلب التشبيه أيضاً عندما شبَّه لمع البروق بنار الحشا وجعل توقّد البرق من توقّد الوجد ولوعته ، لأنه أراد أن الصفة قويت في المشبَّه حتَّى صحَّ أن يكون مشبَّهاً به ، وطلب من هذا البرق أن يهمي أي يسيل وينسكب على قبور لو رأى مكارم أهلها ما همى ، وأراد بذلك أن يجعل المكارم التي في هذه القبور تغلب المطر في قوَّتها وانصبابها وانسكابها ، حتّى تغنى الأرض عن المطر .

والدُّعاء بالسقيا للقبور دعاء قديمٌ في الشعر البدوي الجاهلي ، أراد به الشعراء إحياءَ أرض من يحبُّون أو يمدحون ، حتّى بعد موتهم ، وابن هانئ عندما أراد الدعاء بالسُّقيا للقبور التي رثَى أصحابها ، جعل السحاب ممتلئاً أبيض ، والبرق لامعاً مضيئاً ، وجعل المطر منهمراً غزيراً فوق الروابي والهضاب ، لأنه أراد الدُّعاء ، فوظَّف الصورة بما يخدم هذا السياق ، وهو ما اختلف به عن السياق السابق الذي وصفَ فيه الحزن ، فجعل المطر لا يجود .

---

(١) الهضاب : جمع هضبة وهي الجبل المنبسط ، انظر : اللِّسان ، مادة (هضب).
(٢) الربا : ما ارتفع من الأرض ، انظر : اللِّسان ، مادة (ربا).
(٣) الودق : المطر كله شديده وهينه ، انظر : اللِّسان ، مادة (ودق).
(٤) الرباب : السحاب الأبيض ، وقيل هو السحاب المتعلِّق الذي تراه كأنه دون السحاب ، انظر : اللِّسان ، مادة (ربب).
(٥) انهلَّ : هلَّ السحاب بالمطر اشتدَّ انصبابه ، انظر : اللِّسان ، مادة (هلل).
(٦) همى : سال وانسكب ، انظر : اللِّسان ، مادة (همي).

وهذا هو الجامع النفسيُّ الدقيقُ بين الصورتين ، من وصف الحزن في المقطع الأوَّل ، أعقبه وصفُ البكاء في المقطع الثاني ، وهي صورة داخلتها البداوة في ذكر الشيم ، والبيد والسُّرى ، ومخاطبة البرق ، واستسقائِهِ للقبور .

والصُّور البدويَّة الممتدَّة كثيرةٌ في الشعر الأندلسيّ ، مختلفة السياقاتِ والمواضيع ، وكان فيها الشعراءُ متفاوتين في قدرتهم على تملُّك الإيحاءات البدويَّة فيها وتوظيفها بما يخدم السياق ، وهو الأمرُ الذي يأتي في معظم هذا الشعر متلبِّساً صور البداوة متوافقاً معها ، دون تكلُّفٍ أو تعنُّتْ ، كما أنه قد يأتي في بعض هذا الشّعر متكلِّفاً في تلبسه هذه الصُّور ، كما قد تأتي العاطفة فيه قويَّةً ظاهرة ، أو خافتةً باهتةً .

غير أن الأمثلة التي سقناها توضِّح أن الشعراء الأندلسيين تناولوا الصُّور الشعريَّة النامية الممتدة ذات العلاقات الجزئيّة بين مكوناتها في قصائدهم ، من خلال الخيال الشعري البدوي ، وكان يربط بين هذه الجزئيات ودواخلها ، خيطٌ نفسيٌّ أو شعوري واحد .

وممَّا له صلة وثيقة بالصُّورة الممتدَّة ما يمكن تسميته بالصُّورة القصصيَّة أو الحواريَّة ، فهناك صور ممتدَّة تتشكَّل من خلال عناصر الحكي والحوار ، والقصُّ من خلال الشعر قديمٌ فيه ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، ومنها قصَّة الحيَّة في قصيدة النابغة التي فيها (كما لقيتْ ذاتُ الصَّفا من حليفها) [1] وقصَّة نوح عليه السلام مع الغراب في قصيدة أميّة بن أبي الصَّلت وفيها (بآية قام ينطق كلُّ شيء) [2] ، وكذلك الحوار الذي يدور بين الشاعر ورفيقه ، أو زوجته ، أو صاحبته ، ومنه ما جاء عند امرئ القيس عندما وصف اقتحام الحيّ للقاء

---

(١) ديوان النابغة ، ص١٢٩ .

(٢) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ص١٧٩ .

فتاته ، وما دار بينهما من حوارٍ في المعلَّقة[١] ، وفي قصيدتِهِ التي فيها (سموت إليها) [٢] ، وكذلك في العصر الأموي ومن أشهر من عُرف بهذا القصصّ والحوار ، (عمر بن أبي ربيعة) ، وكان لمعلقة امرئ القيس ، ورائية عمر أثرٌ كبيرٌ في الشعر الأندلسي ، ممَّا وجدناه في صورة فتاة الخدر الممنَّعةِ في هذا الشعر ، والتدليل من خلال القصَّة على الجسارة والاقتدار عند الشاعر . ومن الأمثلة على الصُّور البدويَّة الممتدَّة من خلال القصِّ والحوار ، قصيدة كاملة لابن هانئ الأندلسيّ قالها : (يتغزَّل في مسرى محبوبة) [٣] وفيها[٤]:

نظرتُ كما جلّتْ[٥] عقابٌ[٦] على إرَمٍ[٧] وإنّي لفردٌ[٨] مثل ما انفردَ الزُّلَمْ[٩]

بمرقبةٍ[١٠] مثلَ السِّنانِ[١١] تقدَّمتْ خياشيمُهُ[١٢] واستُردِفَ[١٣] العاملُ[١٤] الأصمّ[١٥]

---

(١) ديوان امرئ القيس ، ص٢٧ .

(٢) المصدر السَّابق ، ص١٣٧ .

(٣،٤) ديوان ابن هانئ ، ص٣٤٣ .

(٥) جلّتْ : عظمت ، وأشرفت ، ورفعت رأسها تنظر ، انظر : اللِّسان ، مادة (جلل).

(٦) عقاب : من عتاق الطير وسباعها التي تصيد ، انظر : اللِّسان ، مادة (عقب).

(٧) إرم : حجارة تنصب علماً في المفازة ، انظر : اللِّسان ، مادة (إرم).

(٨) فرد : لا نظير لي ، انظر : اللِّسان ، مادة (فرد).

(٩) الزّلم : القدح لا ريش عليه ، وهو من السِّهام التي كان أهل الجاهلية ، يستقسمون بها ، انظر : اللِّسان ، مادة (زلم).

(١٠) بمرقبةٍ : المرقبة الموضع المشرف يرتفع عليه الرقيب لينظر من بعد ، انظر : اللِّسان ، مادة (رقب).

(١١) السنان : سنان الرُّمح ، وحدَّه ، وحدَّ كل شيء سنّه ، انظر : اللِّسان ، مادة (سنن).

(١٢) خياشيمه : خياشيم الجبال أنوفها ، انظر : اللِّسان ، مادة (خشم).

(١٣) استردف : جاء خلفه ، وتأخَّر عنه ، انظر : اللِّسان ، مادة (ردف).

(١٤) العامل : صدر الرُّمح ، وهو دون السِّنان ، انظر : اللِّسان ، مادة (سنن).

(١٥) الأصمّ : الصَّلبُ الغليظ ، انظر : اللِّسان ، مادة (صمم).

فـــلا قُلَّـــةٌ[1] شـــهباءُ[2] إلاّ رَبأتُهـــا[3] ولا علمٌ إلاّ رَقَـــأتُ[4] ذُرى[5] العَلَـــمِ[6]

بدأ ابن هانئ القصّة بتصوير المكان الذي ارتقاه لينظر ديار صاحبته ، فشبّه نفسه في إشرافه على حيّها فوق مرتفعٍ عالٍ بالعقاب التي تشرف على مرقبةٍ لتصيد الطّير ،وشبّه نفسه أيضاً بالزَّلَم وهو من الأقداح التي كان يُستقسمُ بها في الجاهليَّة ، وذكر الزَّلم من القداح لأنَّه لا ريش له ، فشبّه نفسه في انفراده في أعلى الجبل بانفراد الزَّلم ، وأراد ابن هانئ أن يصوِّر ارتقاءه الجبل ، وإجالة عينيه ليرى هذه الدِّيار وانفراده عن غيره من النَّاس ، فأشبع وصف هذا الجبل الذي ارتقاه في البيت التالي ، وشبَّههُ في ارتفاع ذروته وحدَّتها بحدِّ الرُّمح ، وقال (تقدَّمت خياشيمه) ،وهو من المجاز لأنهم يقولون (أشرفت خياشيم الجبال وهي أنوفها) [7] ،وأراد ارتفاع أنف الجبل وحدَّته ، ثم صوَّر جبلاً آخر دونه ،وشبَّهه بالعامل الأصمِّ ، وذكر العامل لأنَّه صدر الرُّمح ، وهو دون السنان ، لأنَّه أراد أن يصف قمَّتين ، إحداهما دون الأخرى .

وقال : (الأصمّ) أي : (الغليظ الصلب) وأراد بذلك أن يصفَ قوَّته هو وجلَده ، لأنه أطاق الوقوف على رأسِ هذا الجبل المسنَّن المحدَّد ، ولا يفعل ذلك إلاَّ القوي الجَلْد ، والمعروف في الجاهليَّة أن ربيئة القوم كان أصحُّهم نظراً ، وأجودهم عقلاً ، وأجسرهم قلباً ، ولذلك كان الشعراءُ الجاهليُّون يصفون دائماً

---

(١) القلّة : أعلى الجبل ، انظر : اللِّسان ، مادة (قلل) .

(٢) شهباء : أرضٌ بيضاء ، أي لا يُرى فيها خضرة لقلَّة المطر ، انظر : اللِّسان ، مادة (شهب) .

(٣) ربأتها : صعدتها ، وكنت للقوم ربيئة أي عيناً أرقب لهم ، ومن المجاز (ربأ فلان فوق رابية وارتبأ أشرف عليها) انظر : أساس البلاغة ،الزمخشري ، ٣١٢/١، مادة (ربأ).

(٤) رقأتُ : صعدت ، انظر : اللِّسان ، مادة (رقأ) .

(٥) ذرى الشيء : أشرفه وأعلاه ، انظر : اللِّسان ، مادة (ذرا) .

(٦) العلم : الجبل الطويل ، انظر : اللِّسان ، مادة (علم) .

(٧) انظر : أساس البلاغة ، الزمخشري ، ٢٣٢/١ ، مادة (خشم) .

مراقبتهم ، وإشرافهم من مكان عالٍ لينذروا القوم من عدوِّهم ، أو يتطلَّعوا للبرق ، وابن هانئ تطلَّع هنا للصاحبة وديارها ، وهو ما حَدَا به إلى احتمال الجلوسِ فوق قمَّة جبلٍ كالسنان ، عادَ فجعلها في البيتِ التالي شهباء ، أي خاليةً من النباتِ والحياة ، وجعلها قمماً ومرتفعاتٍ لجبال عديدة لأنَّه قال (ولا قلَّةٌ إلا ربأْتُها ، ولا علمٌ إلا رقأْتُه) أراد بذلك شدَّة تشوُّقه لمن يحبّ ، وتطلُّعه لرؤيتها وديارها ، فكان في ذلك يعتلي الجبال التي تشرف على حيِّها ، لينظر إليها ، ويشرف عليها ، ثمَّ قال[1] :

فقلـــتُ : أدارَ المالكيَّـــةِ مـــا أرى ... بأسفلَ ذا الوادي أم الطَّلحُ[2] والسلمُ[3]

وأكذبني[4] طرْفي فخفَّضـــتُ كلكـــلاً[5] ... وأطرقتُ إطراقَ الشُّـــجاعِ[6] ولم أَرِمْ[7]

يفتعل الشاعر في هذين البيتين حواراً مع نفسه مخاطباً لها على التجريد ، وهو حوارٌ جاهليّ قديم ، درج الشعراء فيه على مخاطبة أنفسهم عند الوقوف على طللٍ وديار صاحبة ، مشكِّكين في أن تكون هيَ .

ثمَّ شخَّص ابن هانئ طرفَه ، وجعله يكذبه ، في إنكارٍ لأن تكون هذه الديار ديار صاحبته ، وجاء بصورةٍ بصريَّةٍ لحركة جسديَّة ، صوَّر فيها الوجومَ الذي اكتنفه لتكذيب الطرف له ، فقال : خفَّضت ، وأطرقت ، ولم أرِم ، أي أنَّه خفّضَ صدرهُ ، وأرخى رأسه عليه ، وشبَّه نفسه في ذلك بالشجاع أي الحيَّة ، ولم يبرح مكانه ، فقال (لم أرِم) .

---

(١) ديوان ابن هانئ ، ص٣٤٣ .

(٢) الطلح : شجرة طويلة لها شوك ، وساق عظيمة ، ولها ظل وهي من العضاة ولها رائحة طيبة ، انظر : اللِّسان ، مادة (طلح).

(٣) السلم : نوع من العضاه له شوكٌ دقاقٌ طيب الريح ، انظر : اللِّسان ، مادة (سلم).

(٤) أكذبني : أراني أن ما رأيته كذب ، انظر : اللِّسان ، مادة (كذب).

(٥) الكلكل : الصدر ، انظر : اللِّسان ، مادة (كلل).

(٦) الشجاع : ضرب من الحيَّات ، انظر : اللِّسان ، مادة (شجع).

(٧) لم أرم : لم أبرح ، وأقمت في مكاني ، انظر : اللِّسان ، مادة (ريم).

ثمَّ بعد هذا التمهيد للقصَّة صوَّر ابن هانئ كيف انتظر الظلام (فلمَّا أجنَّ الشمسَ ريبٌ من الدُّجى) [1] فشبه الظلمة وهي الدُّجى بالرَّيب وهو الشكّ - وأراد أوَّل هذه الظلمة غير المطبقة - وهو تشبيه حسيٌ بمعنوي ، واستعار لهذا الرَّيبِ صفة السَّترِ للشمس ، ثم قال إنه انتظر أيضاً نوم الرعيان والسَّوام (ولفَّ سوامَ الحيِّ[2] سيلٌ من العتم[3])[4] فشبَّه الظلمة بالسيل ، واستعار لها صفة اللَّف وهي الجمع للرعيان والإبل ، وذكر العتم من الظلمة لأنَّ أهل البادية يريحون إبلهم في هذا الوقت وهو بُعيد المغرب ، ثمَّ صوَّر كيف عرف أنَّها ديارها من نار القرى ومن رائحة العود وبخوره[5] :

عرفتُ ديارَ الحيِّ بالنَّار للقرى تُشبُّ وبالإنجوجِ[6] يُذكى ويضطَرمْ

وهو ما ناسب فيه بينه والطلح والسَّلم - التي ذكرها سابقاً - وهي من أشجار البادية ذوات الرائحة الطيبة ، وجاء بصورة سمعيَّة صوتيَّة : فذكر أنَّه أرخى سمعه (وأرعيتُها سمعي) فراعه صهيلُ الخيول وهدير الإبل[7] :

وأرعيتُها سَمْعِي وقد رَاعَني لها صهيلُ المذاكي[8] قبل قرقرةِ[9] النعمْ[10]

---

(١) ديوان ابن هانئ ، ص٣٤٣ .

(٢) سوام الحي : الإبل الرّاعية ، انظر : اللِّسان ، مادة (سوم) .

(٣) العتم : ظلام أوّل الليل ، وأهل البادية يريحون نعمهم بعيد المغرب ، انظر : اللِّسان ، مادة (عتم) .

(٤،٥) ديوان ابن هانئ ، ص٣٤٣ .

(٦) الأنجوج : العود الذي يتبخَّر به ، انظر : اللِّسان ، مادة (نجج) .

(٧) ديوان ابن هانئ ، ص٣٤٣ .

(٨) المذاكي : الخيل التي أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان ، انظر : اللِّسان ، مادة (ذكا) .

(٩) القرقرة : هدير البعير وصوته إذا رجَّعَه ، انظر : اللِّسان ، مادة (قرر) .

(١٠) النَّعم : الإبل خاصة ، انظر : اللِّسان ، مادة (نعم) .

ثمَّ صوَّر كيف انتظر حتَّى أظلم الليل (وادلهمَّ) ثم انتقل إلى المقطع التالي في القصَّة فقال[1] :

طرقتُ فتاةَ الحيِّ إذ نامَ أهلُها وقد قامَ ليلُ العاشقينَ على قَدَمْ

(طرقتُ) أي : جئتُها ليلاً[2] ، فذكر أنه جاء فتاته وزارها ليلاً ، وقال (إذْ) وهي ظرفيَّة شرطيَّة ، ذكر بعدها نوم أهلها ، بما أراد به أن يزيد في صورة الأمان الذي أحسَّه ، ولذلك قال بعد (قد) التي للتحقيق : (قام ليلُ العاشقين على قدم) فاستعار لليل القدم من الإنسان ، وأسند له صفة القيام والنهوض ، بما أراد به مطابقة معنى نوم أهلها الذي قابله قيامه وصاحبته في هذا الليل ، وقد قالت له[3] :

فقالتْ : أحقًّا كلَّما جئتَ طارقاً هتكتَ حجابَ المجدِ عن ظبيةِ الحرم

فشبهها بالظبية ، وكنَّى عن منعتها بقوله (ظبية الحرم) أي أنها ممنَّعةٌ منعةَ وحش الحرم ، وحرمته على الصَّيدِ ، وقال بعد ذلك (فسكَّنتُ من إرعادها)[4] و(أضمُّ عليها)[5] ، وشبَّهها بالسَّكرى (أميل بها ميل النَّزيفةِ)[6] فصوَّر ليلةً طويلةً نعم فيها بمن يهوى ، وقال فيها (نامَ القطا من طول ليلي ولم أنم)[7] فكنَّى عن تنعُّمه في هذه الليلة بنوم القطا دونه ، لأن القطا من الطيور التي تسهلُ إثارتُها من نومها ، يقال (لو تُركَ القَطا لنام)[8] ، وأراد بذلك ، أنَّه لم ينغِّص عليه فيها شيء ، حتَّى أن القَطَا نام هانئاً ، ولم يُثَر ، والقطا من الطّيور التي كثر وصفها ، والتمثيل بها وبسهولةِ إثارتها في الشعر القديم ، ممَّا أراد به أنه نعم بصاحبته وهو مناسب لقوله (قام ليل العاشقين) ، وقد صوَّر ابن هانئ بعد هذا توديعها له ، قال[9] :

---

(١) ديوان ابن هانئ ، ص٣٤٤ .

(٢) انظر : اللِّسان ، مادة (طرق) .

(٣-٧) ديوان ابن هانئ ، ص٣٤٤ .

(٨) انظر : مجمع الأمثال ، الميداني ، ١٧٤/٢ .

(٩) ديوان ابن هانئ ، ص٣٤٤ .

لم أنسَ منها نظرةً حين ودَّعتْ وقد مُلِئتْ دلوُ الصَّباحِ إلى الوَذَم[1]

فشبَّه الصَّباح بالدَّلو ، وكنّى بامتلائِهِ عن ارتفاع النَّهار ، وأراد بذلك أنه ظلَّ لديها حتّى ظهر الصَّباح وعمَّ .

وابن هانئ لم يصوِّر قصَّةً نعم فيها بفتاة الحيّ فقط ، وإنما أراد وصف شجاعته وبأسه وقوَّته من خلال هذه القصَّة ، ولذلك صوَّر بعد هذا المقطع الغيران الذي أراد به زوجَها أو أحد أوليائها ، وأنه أراد قتله (فما شكَّ في قتلي)[2]، وشبَّه تغيُّظه عليه بالنَّار المتوقِّدة فقال : (وشبَّتْ ناره ليَ واحتدمْ)[3] ، وصوَّر كيف استدلَّ هذا الغيران على وجوده من مكان توكُّؤِهِ على منعطف القوس ، ومسبقط قدحه ، قال[4] :

فما راعه إلاَّ مكان توكُّؤي على سيةِ القوسِ المغشَّاةِ بالأدمْ
ومسقط قدحٍ من قداحي على الثرى ومنقدُّ ذيلٍ من ذيولي على الأكم

وأراد بهذين الوصفين أن يكنِّي بالأوَّل عن شجاعته ، لأنه ذكر (القوس) وأن يكنِّي بالثاني عن تنعُّمِهِ بفتاته لأنه ذكر (القدح) ، وصوَّر ابن هانئ أيضاً كيف أن هذا الغيران كان[5] :

يطيفُ بأطنابِ القبابِ مسَّهداً فينشقُ ريحَ الليثِ واللَّيثُ في الأجَمْ

فشبَّه نفسه بالليث ، وشبه مكانه عند صاحبته بالأجمة ، وهي الشجر الكثيف الملتف ، وفيه عرينُ الأسد ، وأتمَّ الصُّورة فقال[6] :

لدى بنتِ قيلٍ قد أجارَتْ عميدَهَا فكفَّت عميدَ الحيِّ عنهُ وإنْ رُغِمْ

وعميدها الأولى عاشقها[7] ، والإجارة من صلب أخلاقِ البداوةِ ، وعاداتها ، وقد اتخذ ابن هانئ هذه الإجارة التي تكون للداخل على شيخ القبيلة المستجير

---

(١) الوذم : السير الذي بين آذان الدلو ، وعراقيبها تشدُّ بها ، انظر : اللِّسان ، مادة (وذم).
(٢-٥) ديوان ابن هانئ ، ص٣٤٥ .
(٦) القيل : الملك ، انظر : اللِّسان ، مادة (قيل) .
(٧) العميد : المشغوف عشقاً ، والذي بلغ به الحب مبلغاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (عمد).

به ، لفتاتِهِ التي أجارت عاشقها (فكفَّت عميدَ الحيّ وإن رُغم) فجانس بين العميد الأولى وهي العاشق ، والعميد الثانية وهي سيّدُ القوم[١] ، وقال (وإن رُغِمْ) أي أُكره على ذلك[٢] .

وقد كان ابن هانئ قد صوَّر هذا العميد متغيِّظاً عليه حانقاً (فباتَ بقلبٍ قد توغَّر قلبه عليَّ) [٣] ، وأنَّه يطيف بالقباب يبحث عنه ، وينشقُ ريحه ، وأنَّه عميدٌ أي سيدٌ في قومه ، وأن من يحبُّ أجارتْه في خدرها ، وكفَّتْ عنه وليَّها ، ومع كل ذلك ، فقد قال[٤] :

هتكتُ[٥] سجوفَ الخدرِ[٦] وهو بمرصدٍ[٧] فلمَّا تعارفنا هممتُ به وهمّ

والصُّورة فيها حركة في قوله (هتكتُ) أي مزَّقت ، فلم يكن خروجاً متوارياً لخائفٍ من الموت ، وإنَّما صوَّر خروجاً لرجلٍ مواجهٍ للموت لأنه اعترض بقوله ـ وهو بمرصدٍ ـ أي (مع علمي بأنَّه يترصَّدني في الطريق) وأكمل الصورة الحركيَّة بقوله (هممتُ به وهمّ) وفيها مواثبة ، وأراد بذلك مشهد المواجهة بين متعادلين ، متكافئين ، وجاء بنفسه أولاً للدِّلالةِ على شجاعتهِ وتحفُّزه للقتال .

وما صورةُ العميد ، والمبالغة في وصف تغيُّظه إلا مبالغة من الشاعر في وصف نفسه بالقوَّة ، والقدرة على المواجهة ، واقتحام الأهوال والمهالك .

وأتمَّ ابن هانئ الصُّورة الحركيَّة المتحفزَّة التي ذكرها في البيت السابق ، بقوله[٨] :

---

(١) انظر : اللِّسان ، مادة (عمد) .

(٢) انظر : اللِّسان ، مادة (رغم) .

(٣،٤) ديوان ابن هانئ ، ص٣٤٥ .

(٥) هتكت : مزَّقت ، انظر : اللِّسان ، مادة (هتك) .

(٦) سجوف الخدر : ستوره ، انظر : اللِّسان ، مادة (سجف) .

(٧) مرصد : مترصد له مراقب للطريق ، انظر : اللِّسان ، مادة (رصد) .

(٨) ديوان ابن هانئ ، ص٣٤٦ .

فبادرتُ سيفيَ حينَ بادرَ سيفهُ فثارَ إلى ماضٍ وثرتُ إلى خدمْ[1]

فقال (بادرتُ) أي أسرعتُ إلى سيفي حال مسارعته هو إلى سيفه ، ثم قال[2] :

ونبَّه أقصى الحيِّ أنِّي وترتُهم[3] وقد غلَّ صدرُ السيفِ من ماجدٍ[4]عممْ[5]

أراد أنَّه لمَّا بادرَ سيفه ضربه به ، واستعار لهذا السيف صفة العلِّ أي الشرب ، وجعل شربه دم هذا السيِّد ، الذي وصفه بالكريم الشريف ، التامِّ الخلقة ، لأنه أراد تصوير عدوٍّ قويٍّ جديرٍ بأن يحاربه ابن هانئ ويغلبه ، ولو لم يكن كذلك لما كان للفخر معنى ، ولذلك صوَّر أنه لمَّا أصابه صاح هذا العميدُ في القومِ ونبَّههم ، ولولا أنْ فزع الحيُّ للشاعر و (أسرجوا) و (ألجموا) لما قال (مرقتُ من الخيم)[6] :

فما أسرجُوا حتَّى تعثَّرتُ بالقَنَا وما ألجمُوا حتَّى مَرَقتُ من الخَيَمْ

فهو هرب لتكاثرهم عليه ، وليس لعدم قدرته على مواجهة غريمه ، ثم وصف نفسه بأنه[7] :

ومن بين برديَّ اللذين تراهُمَا رقيقُ حواشي النفسِ والطبعِ والشِّيمِ

فكنَّى عن تمتعه بهذه الصفات بقوله (بين برديَّ) .

والقصيدة في صورها الممتدَّة من خلال القصِّ ، سار فيها ابن هانئ على طريقة عمر بن أبي ربيعة في رائيته الشهيرة (أمن آل نعم)[8] وقد قال ابن هانئ في آخر القصيدة[9]:

---

(١) الخدم : سرعة القطع ، انظر : اللِّسان ، مادة (خدم) .

(٢) ديوان ابن هانئ ، ص٣٤٦ .

(٣) وترتهم : أي أصبتهم بوتر أي بثأر ، انظر : اللِّسان ، مادة (وتر) .

(٤) ماجد : كريم ، شريف ، انظر : اللِّسان ، مادة (مجد) .

(٥) عمم : العظيم الخلق التام ، والعمم التام الجسم والشباب والمال ، انظر : اللِّسان ، مادة (عمم) .

(٦،٧) ديوان ابن هانئ ، ص٣٤٦ .

(٨) انظر : ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ص١٢٠ .

(٩) ديوان ابن هانئ ، ص٣٤٦ .

يسيرُ على نهجِ ابنِ عمرو فيقتدي بأروعَ مجموعٍ على فضلِهِ الأممْ

والصُّورة القصصيَّة عند بن هانئ تلتقي مع رائية عمر في كثير من تفاصيلها ، من مثل صعود ابن هانئ على مرقبة[١] ، وحديثه مع نفسه[٢] ، وتعرَّفه إلى الحيِّ من رائحة العود[٣] ، وانتظاره أن يروِّح الرعيانُ وتهدأ الأصوات[٤] ، وطرقه فتاة الخدر[٥] ، ووصفه تنعُّمه بها[٦]، وصورة الغيران الذي أراد قتله[٧] ، وحماية فتاته له[٨].

ولكن ابن هانئ ، لم يُشبع في القصَّةِ الحوار الذي كان سائداً في الصُّورة عند عمر ، واكتفى بأنها (قالت) وأنَّه (سكَّن روعها) كما قال عمر (فقالت وقد لانت وأفرخ روعُها) [٩] ، واستعاض ابن هانئ بالتصوير القصصيِّ عن الحوار ، كما أنَّه أضاف إلى الصُّورة المواجهةَ التي تمَّت بينه وعميدَ الحيِّ ، واستبساله في القتال ، بل وإيقاعه به ، لولا أن ثار به الحيُّ ، وهو ما يشبه تناول الصُّورة ومغزاها عند مبدعها امرئ القيس عندما قال (خرجت بها) [١٠] في المعلَّقةِ أمَام الحيّ وأهله ، أو قوله في القصيدة اللاميَّة[١١] :

أيقتلني والمشرفيُّ مضاجعي ومسنونةٌ زرقٌ كأنيابِ أغوالِ

ممَّا كان المغزى منه تصويرُ القوَّة والجسارة ، والفتوَّة والشجاعة ، والتمدُّح بها ، وهو ما أراده ابن هانئ من قصَّته .

وقد كان لرائية عمر بن أبي ربيعة صدى كبيرٌ في الشعر الأندلسيّ ، فعارضها الكثير من الشعراء ومنهم أبو بكر بن حبيش ، الذي قال في أوَّل هذه القصَّة أو الصُّورة[١٢] :

(١-٣) ديوان ابن هانئ ، ص٣٤٣ .

(٤-٦) المصدر السَّابق ، ص٣٤٤ .

(٧-٨) المصدر السَّابق ، ص٣٤٥ .

(٩) ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ص١٢٣ .

(١٠) انظر : ديوان امرئ القيس ، ص٣٨٠ .

(١١) المصدر السَّابق ، ص١٣٧ .

(١٢) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها ، دكتور إبراهيم بن مراد ، ص٩٥ .

سرتْ ولواء الصبح قد كان يُنْشَرُ وجبرُ[1] الدُّجى عن مهرقِ[2] الأفقِ[3] يبشرُ[4]

شبَّه الصبح باللواء والراية التي ترفع ، وشبَّهَ الظلام والدُّجى بالجبيرة التي تقشر حتّى يظهر ما وراءها ، وهو الصبح الذي شبهه بالمهرق أي الصفحة البيضاء ، وجانس بين (ينشر ويبشر) ، ثم جاء في هذه القصَّة بصورتين ؛ الأولى : صورة زيارة فتاته له تحت جنح الظلام ، فقال[5] :

توخَّت مسيراً في الظلامِ تستُّراً أللبدرِ في جنحِ الظلام تستُّرُ؟!

فشبَّه إشراقَ وجهها بالبدر في الليلة المظلمة ، وقال (توخَّتْ) أي أنَّها تحرَّت وقت الليل ، لتستتر فيه ، وشبَّه شعرها بسواد هذا الليل فقال (فهلاَّ بشيء من ذوائبها سَرَتْ)[6] ثم صوَّر زيارتها ، فقال[7] :

بكتْ أو تباكَتْ رقَّةً نحبِّها فيا من رأى طَلاًّ على الوردِ يقطرُ

ووشَّحتُها عند العناقِ بأدمعِيْ فريعَتْ وقالَتْ ما لعقديَ يُنْثَر

فشبَّه دمعها بالطلِّ ، وخدها بالورد ، وجعل سيلانه قطراً ، وشبَّه عناقها بالوشاح الذي تضعه المرأةُ على عاتقيها ، وقوله (ما لعقدي ينثر) أراد به تشبيه دمعه بالعقد الذي تناثرت حبَّاتُه فتساقط إشارة إلى نفاسةِ هذه الدموع التي لا تُذْرف بسهولة ، ثم قال إنها ارتاعت لذلك .

وشبَّه قوامها بالغصن المثمر المزهر ، وفضَّلها عليه ، فقال[8] :

وزهواءُ تُنسِيْ الغصنَ حسنَ انثنائِهِ هصرتُ بها غصنَ المُنى وهو مُزْهِرُ

---

(١) الجبر : خلاف الكسر ، يقال جبَّرت الكسير أجبره ، انظر : اللِّسان ، مادة (جبر) .

(٢) المهرق : الصحيفة البيضاء يكتب فيها ، انظر : اللِّسان ، مادة (هرق) .

(٣) الأفق : ما ظهر من نواحي الفلك وأطراف الأرض ، انظر : اللِّسان ، مادة (أفق) .

(٤) يبشر : يقشر بشرته ، انظر : اللِّسان ، مادة (بشر) .

(٥،٦،٧) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها،دكتور إبراهيم بن مراد، ص٩٦ .

(٨) المصدر السَّابق ، ص٩٧ .

ووصف طرفها ، ومناجاتِهِ له ، ونعسته ، وتنضُّدَ أسنانها ، وسمرة شفتها[1] ، ثمَّ بعد أن صوَّر فتاةً هي غايةٌ في الحسن والجمال ، قصَّ علينا كيف كان التوديع حتَّى يدلَّنا بالتالي على قوَّة وقعه على نفسه ، وصعوبة مفارقتها ، فقال[2] :

ولم أنسَ يومَ البينِ منها التفاتةً ... وقد قُرِّبتْ للبينِ عيسٌ وضُمَّرُ
وتوديعَها لي بالجفونِ إشارةً ... فهمتُ بها سرَّ الهوى وهو مُضمرُ
ولمَّا خَلاَ ربعٌ وزُمَّتْ ركائبٌ ... وودَّعَ أحبابٌ وفارقَ معشرُ
رحلتُ وفي غمدي صباحٌ ليهتدوا ... إليه وفي جفني سحابٌ ليمطرُوا

فصوّر ارتحال الظعائن ، وهي لحظةٌ موجعةٌ دأب الشعراء على تصويرها منذ القدم ، وقت زمِّ الإبل وتجهيزِ الرواحل ، وأرادوا بذلك أن يصلوا بالقصَّة إلى ذروة المعاناة في مراقبة الشاعر ترحُّل الحبيبة ، ولذلك ذكر ابن حُبيش هنا الالتفاتةَ والإشارة ، لأنه وقت يكون فيه الحيُّ البدويُّ مُسْتَنفرٌ للرحلة ، ممَّا لا يتيحُ وقتاً سوى للنظر والتلويح .

وفي البيت الثاني شبّه سيفه بالصباح في بريقه ولمعانه ، وشبَّه عينيه في انهمال الدمع بالسحب الممطرة ، وقوله (ليهتدوا) و (ليمطروا) أراد به الدعاء للرَّكب الذي ترحَّلت فيه من يحب بأن لا يضلَّ ، وأن يُسقى المطر .

ثم انعطف بالقصص من وصف زيارتها وتصوير ارتحالِ الظعائن بها ، إلى تصوير ارتحاله هو إليها ، فقال بعد ذلك[3] :

إلى أن حَدَانِي الشَّوقُ نحو حَلالِهم[4] ... فأبصرتُ في الأرضِ الكواكبَ تُزْهرُ

---

(١) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها ، دكتور إبراهيم بن مراد ، ص٩٧ .

(٢،٣) المصدر السَّابق ، ص٩٨ .

(٤) حلالهم : مكان حلولهم ونزولهم ، انظر : اللِّسان ، مادة (حلل) .

وفي القبَّةِ[1] الحمراءِ مُذْهبةُ الحُلى ومورَّدةُ الجلبابِ ، والحسنُ أحمرُ[2]

فشبَّه الشوق بالحادي الذي يحدو البعير ، وأراد به أنَّه ساقَهُ إلى منازلها والمكان الذي حلَّت به ، وصوَّرها في قبَّةٍ حمراء لابسةً ذهباً وحليًّا أحمر ، وثياباً موردَّة ، وهي صورةٌ لونيَّة غلَّب فيها اللَّون الأحمر على المشهد لأنه أراد ما دل عليه المثل العربي القديم الذي ذكره بعد ذلك وهو أنَّ (الحسن أحمر) ، ويقال ذلك للمرأةِ يراد به أن الحسن في الحمرة ، وأنه شديد ، ومعنى المثل (من طلب الجمال احتمل المشقَّة)[3] وأراد بالإشارة إلى هذا المثل ، المغزى فيه ، وهو أنَّه سيحتمل كلَّ مشقَّةٍ في سبيل هذا الحسن العظيم، ولذلك قال[3]:

سريتُ لـهـا مسـرى النسـيمِ توقِّيـاً عليها وصـوناً مـن حـديثٍ يُشـهَّرُ
ورفَّعتُ عنـها السُّـجفَ وهـي بغفلـةٍ تغنِّـي بأشـعاري فتبكـي وتسـهرُ

فشبَّه زيارته لها بمسرى النسيم وأراد معنى التخَفِّي ، واحترز بقوله ـ توقِّياً ـ أي أنني فعلتُ ذلك حفاظاً عليها من أهلها ، وصوناً لها من حديث الناس ، وأراد أن ينفي عن نفسه شبهة الجبن ، ثم قال (رفعت عنها الستور وهي تغني بأشعاري) وفي هذه الصورة لمحة عمريَّةٌ من الإعجاب بالنفس ، فجعل المحبوبة تبكي في خلوتها عند ذكره ، وتغني شعره ، ثمَّ صوَّر كيف استقبلته : «بين ارتياحٍ وارتياعٍ تمايلت عليَّ»[4]، والحوار الذي دار بينهما[6]:

---

(١) القبة : من الخيام بيت صغير مستدير ، وهو من بيوت العرب ، انظر : اللِّسان ، مادة (قبب) .

(٣،٢) الحسن أحمر : أي شديدٌ ، يراد به أن الحسن في الحمرة ، وهو من أمثال العرب ، ومعناه من طلب الجمال احتمل المشقة ، قال أبو السمح : إذا خضبت المرأة يديها ، وصبغت ثوبها ، قيل لها هذا ، يريدُ أن الحسنَ في الحمرة ، وقال الأزهري : الأحمر الأبيض ، والعرب تسمّي الموالي من عجم الفرس والروم (الحمر) لغلبة البياض على ألوانهم ، وكانت عائشة رضي الله تعالى عنها تسمّى الحميراء ، لغلبة البياض على لونها ، انظر : مجمع الأمثال ، الميداني ، ١٩٩/١ .

(٤-٦) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها ، دكتور إبراهيم بن مراد ، ص٩٩ .

وقالت : بنفسي أنت! غرَّرْتَ[1] في الهوى فقلتُ : اعذري إنَّ المحبَّ مغرَّرُ

وخاطبها مشبِّهاً إيهاها بالظبية[2] :

فيا ظبيةَ القصرِ الذي بفنائِهِ سوابحُ تُردي أو صوارمُ تُشْهَرُ

أجيبي مشُوقًا جابَ من شوقكِ الفلا وزارِكِ والآسادُ حولكِ تزأرُ

فذكر السوابح والصوارم ، وأراد الخيول والسيوف دونها ، وذكر قَطْعَهُ الفيافي ، في سبيلها ، وكيف دخل الخدر ، رغم منعةِ أهلها الذين شبههم حولها بالأسد ، لأنه أراد المغزى الذي كانت تجنح إليه دوماً هذه الطريقة في القصص ، وهو أن يدلُّ على اقتحامه المهالك والأهوال في سبيل ما يريد .

ثم صوَّر كيف تعطَّف في طلب وصلها ، وتلطَّف إلى أن (رقَّتْ وراقتها ضراعةُ عاشق)[3] :

وقالت : أقِمْ في لذَّةٍ متستِّراً وما العيشُ إلاَّ لذَّةٌ وتستُّرُ[4]

وصوَّر كيف قضى ليله ناعماً بها لأنه قال[5] :

فواحرَّ قلبي حين قامتْ مروعةً لبردٍ من الخلخالِ بالصبحِ ينذرُ

وكيف أنَّها (مالَتْ إلى التوديع)[6] :

وقالت : حبيبَ النفسِ ما أوجعَ النَّوى وأشجى قلوباً فارقتْ وهي تصبرُ

ألا ليتَ شِعْري بعدَ يومِ فراقنا أيمكنُ جمعُ الشَّملِ أم يتعذَّرُ

وقالتْ : وقاكَ اللهُ كلَّ مخافةٍ تخوَّفْ عيوناً في ارتقابكَ تسهرُ[7]

فالقصَّة هنا مشابهة لرائية عمر في نواحٍ كثيرة ، زاد ابن حبيش في أوَّلها ، وصف زيارتها له ، وارتحالها بعد ذلك ، ثم قصَّ علينا القصَّة العمريَّة في

---

(١) غررت : أي خدعت وأطمعت بالباطل ، انظر : اللِّسان ، مادة (غرر) .

(٢،٣،٤،٥) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها ، دكتور إبراهيم بن مراد ، ص١٠٠ .

(٦،٧) المصدر السَّابق ، ص١٠١ .

الرَّائية ، فوصف دخوله الحيَّ على منعة أهلها ، ووصف ارتياعها ، وإكرامها له بالوصل ، وخوفها عليه ، والحوارَ الذي دار بينهما ، وكان التشابه أيضاً في ظهور إعجابه بنفسه من خلال وصف غنائها أشعاره في خلوتها ، وتوديعها له ، دون أن يكون فاعلاً أو مشاركاً في هذا التوديع الأخير ، والقصة تتضمَّن التمدُّح بالشجاعة ، من خلال ذكره الحيَّ وأهواله ، وتصوير إقدامه في الحرب وجبنه في الحبِّ ، في قوله[1] :

فقد صرتُ في حـرب الغوانـي مغلَّبـاً كمـا أنـا في الحـرب العـوانِ مُنَفَّـرُ
ألـيس عجيبـاً أنَّ طِرْفـي بالظُّبَـا أنـيسٌ ، وطَـرْفي للظِّبـاءِ منَفِّـرُ؟[2]

والطِّرف (الكريم من الخيل)[3] استعار له صفةَ الأُنس بالظُّبا وهي السيوف ، والطَّرف (النظر ولحظُ العين)[4] جعله مغلوباً من الظبية ، وهي معانٍ أبان عنها في قوله أيضاً[5] :

ويا عجبـاً لي يرهـبُ الليـلُ سـطوتي وللشـادنِ المـذعورِ قلـبي يَـذْعرُ؟

وهي طريقةٌ في الشعر أبان فيها الشعراءُ منذ القدم ، عن قدرتهم في الحروب والقتال ، وجبنهم وضعفهم أمام سلطة الهوى وسطوته ، ولم يكن في الصُّورتين تناقض بل تطابقٌ محبَّبٌ في الشخصيَّة العربيَّة البدويَّة التي ترى الضعف في الصبوات بطولةً وقوَّةً ، كالقوّة والبطولة في خوضِ الحروب واقتحام الأهوال .

---

(١) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها ، دكتور إبراهيم بن مراد ، ص٩٧ .

(٢) نفَّره : غلبه ، انظر : اللِّسان ، مادة (نفر) .

(٤،٣) انظر : اللِّسان ، مادة (طرف) .

(٥) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها ، دكتور إبراهيم بن مراد ، ص٩٨ .

وابن حبيشٍ لم ينعطف بالقصص إلى ما انعطف إليه ابن هانئ من وصف مواجهة ومقاتلة وتمزيق سجفٍ ، وبروزٍ للغيران ، كما يُلمح في صور امرئ القيس ، وإنما جنح بها أكثر إلى ما في صورة عمر ، الذي كانت فتاتُه مجنَّهُ[1]:

فكـــانَ مجنِّـــي دونَ مـــن كنـــتُ أتَّقـــي ثلاثُ شخوصٍ كاعبان[2] ، ومعصـــرُ[3]

والصُّورة ـ في مجملها ـ عند ابن حبيش ، أو عند ابن هانئ وغيرهما ، تهدف إلى مغزًى يكاد يكون واحداً ، وهو تصوير الشجاعة والبطولة ، وهما من صفاتِ الفروسيَّة والبداوة ، من خلال وصف القدرة على اقتحام الأهوال ، والظَّفرُ بما يريدُ الشاعرُ أن يظفر به من غايةٍ نبيلةٍ قد تكون المرأة الجميلةُ الممنَّعةُ المحفوظة المصونة ، رمزاً مثاليًّا لها ، لما في دلالاتِ وجود المرأةِ في الشعر من إغراءٍ وإسعاد .

ومن الصُّور البدويَّة الممتدَّة التي ظهرت من خلال القصص والحوار ، صورةٌ لمحمَّد الخشني قال في أوَّلها[4] :

ولعوبـــــةُ القـــــرطين إلاَّ أنَّهـــــا بين الرِّماح السُّمرِ نابيةُ[5] الـــمـــحَلْ[6]

فكنَّى عن دلالها بقوله (لعوبة القرطين) ذكر القرطين وأراد بهما من يحبّ ، وكنَّى بالرِّماح السمر حولها عن المنعة والقوَّة التي كان عليها أهلها ، وذكر أنَّها بعيدةٌ نائيةٌ عنه ، ثم ذكر أنَّه جاذبها الحديث أثناء الوداع ، فقال[7]:

---

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ص١٢٦ .

(٢) كاعبان : مثنى كاعب ، وهي الجارية أول إدراكها ، انظر : اللِّسان ، مادة (كعب) .

(٣) المعصر : التي بلغت عصر شبابها وأدركت ، انظر : اللِّسان ، مادة (عصر) .

(٤) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها ، دكتور إبراهيم بن مراد ، ص٢١٧ .

(٥) نابية : جافية ، بعيدة ، انظر : اللِّسان ، مادة (نبا) .

(٦) المحلْ : المكان الذي حلَّت به ، انظر : اللِّسان ، مادة (حلل) .

(٧) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها ، دكتور إبراهيم بن مراد ، ص٢١٧ .

حتّـى إذا ضـربَ الفـراقُ بسـهمِه ... وغدتْ تـهـادى[1] تحتَ أرحُلنَا الإبلْ
جاذبتُهـا طَـرَفَ الحـديثِ وربَّمـا ... شـاطرتُها لحظـي لأنظـرَ في الكَحَـلْ
فتبرقعـتْ تيهـاً ومالَـتْ مثلمـا ... مالَ القضـيبُ مـنَ الصَّـبَا ثم اعتـدلْ
وتضرَّجت خجلاً وقالـت : هـل درت ... عينـاكَ أيَّ دمٍ بلحظهمـا أُطِـلْ[2]
أدميـتَ خـدًّا طالمـا رُفعـتْ لـه ... أرواحُ أهلِ الحبِّ فوقَ ذُرى الأسَـلْ[3]

وهي صورةٌ فيها حركةٌ ومجاذبةٌ وحوار ، استعار للفراق في البيتِ الأوَّل ضربَ القداح بالسهام ، وأشار بهذه العادة البدويَّة الجاهليَّة القديمة إلى أن سهمه ونصيبه كان الفراق والبعد ، ثمَّ جاء بصورة تهادي الإبل في مشيها وتثاقلها ، وهي صورة كان فيها مشيِّعاً مودِّعاً ، ولذا جعل الإبل تمشي برويَّةٍ وتثاقل ، لأنه أراد وقتاً طويلاً مع من يحب ، ثم ذكر اختلاس النظر إلى عينيها ، وحركة التبرقع تيهاً ، والتمايل ، وشبَّهها في هذه الحركة التي انثنت فيها دلالاً ثم اعتدلت ، بالغصن تُثنيه الصَّبا فيميل معها ثم يعتدل ، ثمَّ جاء بصورة لونيَّة فذكر تضرُّج الوجه خجلاً وفيه حمرة ، ناسب بينها وذكر الدَمِ المُهدَر لاختلاس النَّظر ، فشبَّه الخدَّ المحمرَّ من الخجل بالمقتول الذي كانت هذه الحمرة دمه ، ثمَّ جاء بصورة بصريَّةٍ في وصفه الأرواح المرفوعة فوق أعالي الرِّماح ، وأراد ما لحق بعشَّاقها قبله ، ثم قال[4] :

فاجبتُهـا ذُلاًّ كمـا حَكَـمَ الـهـوى ... لأعِـلَّ مـن وجنَاتِهَـا غـيرَ الوجَـلْ
لم تُـدْمِ عـيني الخـدَّ منـكِ وإنَّمـا ... سُقِيَتْ ورودَ الحسنِ من مـاءِ الخجـلْ
فمضتْ وهودجُها علـى جَمَـلِ النَّـوى ... كالشمسِ حَلَّتْ فوقَ جمجمـةِ الحَمَـلْ

---

(١) تهادى : مشي النساء والإبل الثقال ، وهو مشيٌ فيه تمايل وسكون ، انظر : اللِّسان ، مادة (هدي).

(٢) أطل : طل دمه أهدره ، انظر : اللِّسان ، مادة (طلل).

(٣) الأسل : الرماح ، انظر : اللِّسان ، مادة (أسل).

(٤) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها ، دكتور إبراهيم بن مراد ، ص٢١٨ .

قال (فأجبتُها ذلاً) وهو ذلُّ العاشق ، و (كما حكم الهوى) أي رضيتُ حكم الهوى عليَّ ، وذكر السَّبب ، وهو أنه أراد النظر مرَّة أُخرى لوجناتها ، دون أن يفزع أو يخاف مما ذكرته له ، ثم تبرَّأ من إدمائِهِ الخدَّ بالنظر بأن شبَّه هذه الحمرة بالورد الذي سقي من الخجل المشبه الماء ، فتضرَّجت حمرتها كحمرةِ الدم ، وختم الحوار بأن انتهى مشهد التشييع ، بمضيِّها في هودجها ، واستعار للجمل صفة النوى والبعد ، ثم شبَّه الصُّورة الكليَّة لها فوق بعيرها ، بالشمس فوق برج الحمل وهو من بروجِ السماء[1] ، وجانس بين (الحملِ والجمل).

والصُّورة القصصيَّة هنا تقوم على الحوار برز فيها العنصر اللَّوني : في ذكر الكحل ، وحمرة الخدّ ، والورد ، والدم ، وبرزت فيها الحركة : في قوله : لعوبة القرطين ، وصورة تهادي الإبل ، وتبرقع المحبوبةِ ، وتمايلها ، وفيها مجاذبة الحديث ، والمشاطرة في النظر .

وهي ليست صورةً وثيقة الصلة بالقصص الذي يقوم على الحبكة ، والمواقف الانفعاليَّة المؤثرة ، والمغزى البعيد الذي يُرمى إليه من ورائها ، وإنما هي سردٌ قصصيٌّ لحالةٍ من حالاتِ الحبّ البدويِّ التي تقوم في سياقها على مشهد التشييع والتوديع .

ومن الصُّور القصصيَّة البدويَّة الممتدَّة الأخرى في الشعر الأندلسي ، صورة لابن شهيد قال في أوَّلها[2] :

ولما رأيتُ اللَّيلَ عسكرَ قرَّهُ[3] وهبَّتْ له ريحانِ تلتطمانِ

وعمَّمَ[4] صُلْعَ[5] الهضبِ[6] من قطرِ ثلجِهِ يدانِ من الصُّنبُرِ[7] تبتدرانِ[8]

---

(١) الحمل : برج من بروج السماء وهو أولُ البروج ، انظر : اللِّسان ، مادة (حمل).

(٢) ديوان ابن شهيد ، ص١٣٣.

(٣) قرّه : القرّ شدَّة البرد ، انظر : اللِّسان ، مادة (قرر).

(٤) عممّ : من لبس العمامة على الرأس ، انظر : اللِّسان ، مادة (عمم).

(٥) الصلع : ذهاب الشَّعر ، وأرض صلعاء لا نبات فيها ، انظر : اللِّسان ، مادة (صلع).

(٦) الهضب : جمع هضبة وهي الجبل المنبسط ، انظر : اللِّسان ، مادة (هضب).

(٧) الصنبرّ : شدّة البرد ، انظر : اللِّسان ، مادة (صنبر).

(٨) تبتدران : تسرعان ، انظر : اللِّسان ، مادة (بدر).

والصُّورة في البيتين تصفُ شدَّة الظلْمة والبرد ، فقال (عسكر قرُّ البرد) يقال (عسكر الليل) أي اشتدَّت ظلمته[1] ، وقد جعله ابن شهيد لقرِّ اللَّيل ، وشدَّة برده ، ثمَّ شخَّص في الصُّورة الريحَ وتناوحَها وأصواتها وجعلها ريحين تلتطمان ، أي يضربَ بعضُها بعضاً ، وأراد بذلك أن يصفَ ليلاً بارداً شديد هبوب الرِّيح ، ثم استعار للهضاب الصُّلع الخالية من النباتِ صفة لبس العمامة ، وجعل هذه العمامة الثلج ، في كناية عن شدَّة البرد ، واستعار للبرد الذي غشَّى هذه الهضاب صفة اليدين اللتين تلبسانه هذه العمامة من الثلج ، وقال (تبتدران) أي تسرعان وتتسابقان ، والصُّورة في قوله (تبتدران) و(تلتطمان) غنيَّةٌ بالحركة .

وأعقب ابن شهيدٍ هذا التمهيد اللازم للقصَّةِ بقوله[2] :

رفعتُ لساري اللَّيلِ نارين فارتأى شُعاعين[3] تحتَ النَّجمِ[4] يلتقيانِ

فأقبلَ مقرورَ[5] الحَشَا لم تكنْ لهُ بدفعِ صروفِ النائباتِ يدانِ

قال (رفعتُ لناري) وأراد به : أنه في هذا البرد الشديد الذي يستدعي أن يعتصمَ الناسُ منه في بيوتهم ، كان الشاعر يرفعُ ناره للسَّارين والطُّراق من المسافرين في الليل لاستضافتهم ، وهي عادةٌ بدويةٌ قديمة جرى في الشعر كثيراً المدح بها والفخر ، وقال (رفعتُ ناري) أي أجَّجْتُها في مكانٍ عالٍ حتَّى يراها البعيدون ، وذكر أنَّها لم تكن ناراً واحدةً بل (نارين) كانتا تضيئان تحت النجم ، وأراد بذلك أن يقول إن ناره توقَّدت واشتدَّ ضياؤها .

---

(١) انظر : اللِّسان ، مادة (عسكر) .

(٢) ديوان ابن شهيد ، ص١٣٣ .

(٣) الشعاع : ضوء الشمس ، انظر : اللِّسان ، مادة (شعع) .

(٤) النجم : الثريا وهو اسمٌ لها علم ، فإذا قالوا : طلع النجم يريدون الثريا ، انظر : اللِّسان ، مادة (نجم) .

(٥) مقرور الحشا : بارد الحشا ، انظر : اللِّسان ، مادة (قرر) .

ثمَّ صوَّر هذا الطارق الذي دلَّتهُ النارُ على ابن شهيد بأنَّه أصابه البرد (مقرور) و (النوائبُ) أي الحوادث والمصائب ، بما دلَّ به على أنه كان في شدّة الحاجة إلى القرى ، ثم قصَّ قصته معه ، فقال[1] :

فقلتُ إلى ذاتِ الدُّخانِ فقالَ لي ... وهل عُرِفتْ نارٌ بغيرِ دُخانِ
فملتُ به أجترُّهُ[2] نحو جمرةٍ[3] ... لها بارقٌ للضيفِ غيرُ يمانِ[4]
إذا ما حَسَا[5] ألقمتهُ[6] كلَّ فلذةٍ[7] ... لفرخةِ طيرٍ[8] أو لسلخةِ ضانِ[9]
فما زالَ في أكلٍ وشربٍ مُدارَكٍ[10] ... إلى أن تشهَّى[11] التركَ شهوةَ وانِي[12]

والقصَّةُ فيها تصويرٌ لشدَّة اعتناء الشاعر بهذا الضيف الطارق ؛ فهو يقول له (إلى ذات الدُّخان) أي هلمَّ إلى نارٍ غير كاذبة ، ثم (يجترَّه) و (يلقمه) قطعاً من لحم طيرٍ أو ضأن ـ وهي صورة قديمة في الشعر[13] ـ حتَّى اشتهى هذا الضيف أن يتركه الشاعر ، بعد أن كان مقروراً عصفت به النوائب ، بما أراد به المبالغة

---

(١) ديوان ابن شهيد ، ص١٣٣ .
(٢) أجترُّه : أجذبه ، انظر : اللِّسان ، مادة (جرر) .
(٣) جمرة : نار متوقدة ، انظر : اللِّسان ، مادة(جمر) .
(٤) غير يمان : غير كاذب ، انظر : اللِّسان ، مادة (يمن) .
(٥) حسا : يقال حسا الطائرُ الماء ، وهو كالشراب للإنسان ، ولا يقال للطائر شرب ، انظر : اللِّسان ، مادة (حسا) .
(٦) اللقم : سرعة الأكل والمبادرة إليه ، انظر : اللِّسان ، مادة (لقم) .
(٧) الفلذة : القطعة من الكبد واللحم ، انظر : اللِّسان ، مادة (فلذ) .
(٨) فرخة طير : الفرخ ولد الطائر ، انظر : اللِّسان ، مادة (فرخ) .
(٩) سلخة ضان : أي مسلوخة لا جلد لها ، انظر : اللِّسان ، مادة (سلخ) .
(١٠) مدارك : يلحق بعضه بعضاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (درك) .
(١١) تشهَّى : رغب وأحبَّ ، انظر : اللِّسان ، مادة (شها) .
(١٢) وانٍ : متعبٍ والأين الإعياءُ والتعب ، انظر : اللِّسان ، مادة (أين) .
(١٣) قال عديُّ بن زيد :

فقدَّدتُ الأديم لراهشيه ... وألفى قولها كذباً ومينَا

انظر : الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ص١١٣ .

في وصفِ شدَّةِ حفاوته به ، ثم قصَّ ابن شهيد بعد ذلك مدى عنايته بهذا الضيف ، قال[1] :

فألحفتُـــهُ فامتـــدَّ قـــوقَ مهـــادِهِ وخـــدَّاه بالصَّـــهباءِ يتَّقـــدانِ

فشبَّه شدَّة عنايته به وحفاوته ، بالعنايةِ بالطفل الرضيع ، لأنه ألحفه فوق مهاده ، وقوله (خدَّاه بالصهباء يتَّقدان) أراد به أنه سقاه الخمر ، فهو لم يكتفِ بإطعامه ، وإنما أكرمه بالشراب ، وزاد في صورة هذه الحفاوة ، فقال[2] :

وما انفكَّ معشوقَ الثَّـواءِ[3] نـمـــدُّهُ ببشـــرٍ وترحيـــبٍ وبســـطِ لســـانِ

تغنِّيـــه أطيـــارُ القيـــانِ[4] إذا انتشـــى بصـــنجٍ[5] وكيثـــارٍ وعـــودِ كـــرانِ[6]

ويسمُوا دخانُ المندلِ[7] الرَّطـــبِ فوقَـــهُ كما احتملت ريـــحٌ متـــونَ[8] عُثـــانِ[9]

استعار للإقامة شعور العشق ، وجعل الضيفَ معشوقها ، وأشاع في الصُّورة جوًّا من الرَّاحةِ والإسعاد ، بذكره البشر والترحيب ، وطيب الحديث ، والغناءَ والمعازف ، وأدخل في القصَّة البدويَّة من عناصر المعيشة الأندلسيَّة ، الكيثار من المعازف ، وزاد في صورة الحفاوة ، بنشرِ رائحةِ العود وبخوره في المكان ، واستعار للدُّخان المتون أي ظهور الرواحل التي جعلها تحمل الرائحة وتنشرها ، ثم ختم القصَّة بقوله[10] :

(١،٢) ديوان ابن شهيد ، ص١٣٣ .

(٣) الثواء : طول المقام ، انظر : اللِّسان ، مادة (ثوا) .

(٤) القيان : المغنيات ، انظر : اللِّسان ، مادة (قين) .

(٥) الصنج : في العرب ما يكون في الدفّ ، وعند العجم ذو الأوتار ، وهو فارسي معرَّب ، قال الأعشى : (تخال الصنج يسمعه) وكان يسمَّى بصناجة العرب لجودة شعره ، انظر : اللِّسان ، مادة (صنج) .

(٦) الكران : العود ، وقيل الصنج ، انظر : اللِّسان ، مادة (كرن) .

(٧) المندل : من العود أجوده ، وهو العود الرطب ، انظر : اللِّسان ، مادة (ندل) .

(٨) المتن : الظهر ، انظر : اللِّسان ، مادة (متن) .

(٩) عثان : دخان ، انظر : اللِّسان ، مادة (عثن) .

(١٠) ديوان ابن شهيد ، ص١٣٤ .

إلى أن تشهَّى البينَ من ذاتِ نفسِهِ وحنَّ إلى الأهلينِ حنَّةَ حانِي
فأتبعتُه ما سَدَّ خُلَّةَ حالِهِ وأتبعني ذكراً بكلِّ مكانِ

فالضيفُ (تَشهَّى) أي تمنَّى ورغِبَ في الفراق ، واحترز بقوله ـ من ذات نفسه ـ أي أنه لم يجد ما يكدِّر عليه إقامته ولكنَّه حنَّ إلى أهله ، وزاد في صورة الحفاوة بأن أعطاه ما سدَّ خلله ونقصه ، وذكرَ ما جناهُ بالمقابل من اشتهاره بالكرم في كلِّ مكان .

والقصَّة تدور حول معنى الكرم الذي كثر في الشعر وصفه ، والمدح به والفخر ، وكان من أعظم العادات البدويَّة ، وشيم البدو التي ظلَّ العرب يتفاخرون بها ، ويذمّون تاركها ممَّا حفل بصوره كثيرٌ من الشعر البدويّ الجاهليّ ، والشاعر يتَّكئُ في هذه القصَّة على الصورة البدويَّة لشبِّ نار القرى للضيوف في البوادي ليهتدوا إليها ، وبالغ في صورة النَّار ، وصورة اليوم البارد الشديد هبوب الريح ، لأنه أراد أن يكنِّي بذلك عن شدَّة كرمه ، لأن المدح بهذا الخلق وقتَ الشدَّة غيره وقت الرَّخاء وتوفُّر النعمة .

وبالغ ابن شهيد في تصوير الحفاوة بالضيف الذي كان يلقمه ويلحفه ، ويسمعه الألحان ، كما يشب له أفخر أنواع العود حتّى بدت من فوقه كالدُّخان ، وجاء بفعل (تشهّى) ومعناه الرغبةُ الشديدة في سياق أنَّ هذا الضيف : رغب في تركِ الطعام لكثرةِ ما شبع ، ورغب في ترك المضيفِ لحنينه لأهله ، بما دلَّ به على غاية الإكرام حتَّى لم يعد فوقها غاية تصل إليها .

والقصَّة تجنح في صورتها البدويَّة إلى الرَّمز ، والمغزى من هذه القصَّة ـ كما ذكرنا ـ وصف شدّة الكرم ، والبلوغ في هذه الصفة مداها ، بما استحق به أن ينال المدح ، وهي غايةٌ بدويَّة أُخرى ، من إكرام الضيف ـ ضمَّنها ابن شهيد صورته ـ وهي شراء المحامد[1] .

---

(١) قال الأعشى :

بأبي الأشجعِ قيسِ إنَّه يشتري الحمدَ بمنفوسِ الثمنْ

ديوان الأعشى ، ص٣٥٧ .

فالصُّور البدويَّة الممتدَّة التي تظهر من خلال الحوار والقصص ، تكثر في الشعر الأندلسيّ ، في سياقاتٍ متعدِّدة ، متنوعة ، يرمي الشعراءُ من ورائها إلى معانٍ جليلةٍ عظيمةٍ ومنها الشجاعة والبسالة ، والاقتدار ، والعزم ، والكرم ، وغيرها من المعاني التي تظهر من خلال مشاهد البداوة وقصصها وصورها .

الصُّورة التي تتشكَّل من خلال الحواس الخمس :

ونعني بها الصُّور التي يعتمد الشاعر في تشكيلها على حاسَّةٍ من الحواسِّ الخمس ، ممَّا يعطي دلالاتٍ أقوى في التعبير عن الصِّفة التي يعمدُ الشاعرُ إلى تصويرها ، فيوظف الحواسَّ لخدمة الخيال الشعري بما يثري الصورة ويمنحَها حيويَّة .

والخيال الشعري البدويُّ حافلٌ بمثل هذه الصُّور ، لارتباط المعيشةِ البدويَّة بحياة الرَّعي الفطريَّة في الصحراء ، حيث لم تكن تفصلهم عنها بيوتٌ مبنيةٌ أو أسوارٌ عالية ، ممَّا أهَّل أصحاب الوبر للتوافق التام مع الطبيعة البدويَّة ، أو لنقلْ : مراتع الشعر البدويّ ، فشكَّلت الصُّور المتناولة من خلال المشاهدات والمسموعات ، والمرئيات ، والمشمومات ، والمذوقات ، كثيراً من صور الخيال الشعري البدويِّ حيث أثَّرت الصَّحراء بألوانها ، ومراعيها ، ونباتاتها ، وزهورها ، وأمطارها ، ووحشها ، وطيرها ، وإبلها . . . وغير ذلك ، في هذه الصُّور المتناولة ، لاعتماد البدويِّ في حياتِهِ المعيشة على استنفار حواسِّه ، ممَّا شكَّل بيئة خصبة لمخيلته الشعريَّة .

وكان لهذه الصُّور البدويَّة المتوارثة من الشعر القديم أثرها في الشعر الأندلسيّ ، لما للشعر القديم من قيمةٍ كبيرةٍ في نفوسِ شعراءِ الأندلس ، وثقافتهم ، ومخيِّلتهم ، مما جعل للباديةِ أثراً كبيراً في الصُّور الشعريَّة الأندلسيَّة لأنَّ ((النفس لا تحتفظ إلاَّ بما هو موضع اهتمامها ، أو بما له مشهدٌ لا يبرحُ يتجدَّد في القلب))[1].

---

(١) التصوير البياني ، دراسة تحليلية لمسائل البيان ، دكتور محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط . الثانية ، ١٩٨٠م ، ص٣٣ .

وكانت مشاهد الصحراء مطبوعةً في أذهان الأندلسيين وثقافتهم ، فلم تعد مقصورةً في الصُّور الشعريَّة على أهلِ البادية ، وإنما أصبحت مملوكةً لكلِّ من رُبِّيَ على ثقافة هذه البادية ، ولا نعني بذلك أن صور البادية في الشعر الأندلسي منقولةٌ عن الشعر القديم ، وإنَّما نعني أنهم أُعجِبُوا بها ، وتأثروا بها جدًّا ، وأعادوا صياغتها ، فجاءت هذه الصُّور متلائمةً مع النفسيَّة ، والذوق ، والثقافة الشعريَّة الأندلسيَّة التي رُبيت على هذه الصُّور ، ممَّا هو ظاهرُ التأثُّر - وهو تأثر في الشعر العربي كلِّه - .

ومن هذه الصُّور البدويَّة في الشعر الأندلسيّ ، ما كان معتمداً في تشكيله على إحدى الحواس الخمس ، وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى هذه الصُّورة من خلال التشبيه فذكر أنَّه ((تشبيه الشَّيء بالشيء من جهة الصُّورة والشَّكْل)) [1] كالتشبيه من جهة اللَّون ، أو الهيئة ، وكلُّ تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس ، كتشبيه صوتٍ بعض الأشياء ، بصوتِ غيره ، وتشبيه بعض الفواكه الحلوة بالعسل والسكر[2] .

الصُّورة البصريَّة :

والصُّور البصريَّة التي تتناول المشاهداتِ البدويَّة المخزونة في الذاكرة الشعريَّة الأندلسيَّة ، كثيرة في هذا الشعر ، فقد انتقلت هذه المشاهدات من خلال الموروث البدوي الذي رُبيت عليه ثقافة الشعراءِ الأندلسيين ، حتَّى أصبحت من أبرز عناصر تشكيل هذه الصُّور ، التي كانت بداوتُها ذاتُ دلالاتٍ وإيحاءاتٍ قويَّة في هذا الشِّعر في سياقاته المختلفةِ وأغراضه المتعددة .

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في هذا الشعر ، من تناول الشعراء الأندلسيين صورة الصَّحراء ، المهلكة المضلّة ، من مثل قول ابن عبدون اليابري[3]:

(١،٢) أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، ص٩٠ .

(٣) ديوان ابن عبدون ، ص١٠٥ .

مررتُ على الأيَّـامِ مـن كـلِّ جانـبٍ أُصـعِّد[1] فيهـا تـارةً وأصـوِّبُ[2]
يـنمُّ[3] بي الثغـرانِ : صـبحٌ وصـارمٌ ويكتمني القلبان : نقـعٌ[4] وغيهـبُ[5]
وقـد لفظـتني الأرضُ إلاَّ تنوفـةٌ[6] يحـدِّثني فيهـا العيـانُ[7] فيكـذبُ

وهي صورةٌ بصريَّة استعاريَّة لحياةٍ مضطربة ؛ استعار فيها للأيَّام التصعيد والهبوط ، فجعلها أرضاً ذات مرتفعاتٍ ومنخفضاتٍ ، في مطابقةٍ بينهما أراد بها تقلُّبَ الأحوال ، ثم شبَّه الصُّبحَ والسيفَ بالثغر بجامع البياض والإنارة ، فـ ((الثغر : الفم ، وقيلَ هو اسم الأسنان كلها))[8]، كما استعار لهما صفتي النمِّ والوشاية ، وأرادَ أنهما دَفعَا به في هذه الأرض المجهلة ، وشبَّه الغبار والظلام بالقلبِ الذي يُكنُّ ما فيه ، ثم استعار للأرض صفة اللَّفظ وهو الرَّمي به (أي الشاعر) الذي لم يجد سوى صحراء مضلَّة يكذِّب فيها العيانُ الظنَّ ، في كنايةٍ عن حياتِهِ التي لا يعلمُ مصيره فيها .

واستعان بحاسَّة البصر ، في تصويره لهذه الحياة المضطَّربة التي كانَ فيها بين الارتقاء والنزول ، في صورة التصعيد والهبوط ، وفي صورة الألوان المتطابقة بين (الصبح والسيف) و (الغبار والسَّواد) وأراد النُّور والظلام وما وراء ذلك من معاني التيَّقظ ، والخوف ، واليأس والرَّجاء .

ثمَّ في صورة الأرض التي تلفظ والصحراء التي تأخذ في دلالة على عدم الاستقرار ، ثمَّ في صورة العيان وهو النَّظر الذي يكذبه ، في دلالةٍ على اختلاط

---

(١) أصعِّد : أرتقي وأصعد ، وهو خلاف الهبوط ، انظر : اللِّسان ، مادة (صعد) .
(٢) أصوِّب : أنزل ، وأهبط ، انظر : اللِّسان ، مادة (صوب) .
(٣) ينمُّ : يشيع ، انظر : اللِّسان ، مادة (نمم) .
(٤) النقع : الغبار الساطع ، انظر : اللِّسان ، مادة (نقع) .
(٥) الغيهب : شدَّة سواد الليل ، انظر : اللِّسان ، مادة (غهب) .
(٦) تنوفة : القفر من الأرض ، انظر : اللِّسان ، مادة (تنف) .
(٧) العيان : النظر ، انظر : اللِّسان ، مادة (عين) .
(٨) انظر : اللِّسان ، مادة (ثغر) .

الأمور ، والتباسها عليه ، وهي صورة لنفسٍ شاكيةٍ متعبة ، استعان في تصويرها بحاسَّة البصر .

وقد صوَّر الشعراءُ الأندلسيُّون بصريًا حيوانات البادية والصحراء ، ومن ذلك قول ابن حمديس يمدح[1] :

وسَـــمَا يُحلِّـــقُ في العُلـــى بعداتـــهِ مثلَ البغـاثِ خشـينَ وقـعَ الأجـدلِ

فشبَّه ممدوحه بالصقر الأجدل ، المحلِّق في الفضاء ، وشبَّه أعداءه بالبغاث من الطير ، وهي ألأم الطيور[2] ، فجاء بصورة بصريَّة لفضاء وطيرٍ وصقرٍ مهيَّأ للانقضاض ، بما أراد به الدلالة على قوَّة الممدوح ، ومهابته ، وسلطته على أعدائِهِ ، وتخوُّفهم منه لأنه ذكر الفعل (خشينَ) الذي أضفى على الصورة حيويَّة .

وابن حمديس يمدح في صورة أُخرى ، فيقول[3] :

رمينـا عُـداة اللهِ في عقـرِ دارهـمْ[4] بعاديـةٍ[5] في غمـرةِ المـوتِ تُقْحَـمُ
تعومُ[6] بـهـا بينَ العلـوجِ[7] مظلَّـةً كما حلَّقتْ فُتْخٌ[8] على الجـوِّ حُـوَّمُ[9]

فشبَّه عَدْوَ الخيل السَّريع الذي كان كالسِّباحة ـ وقد أغار بها الجيش على الأعداء العلوج ـ بالعقاب من الطيور الحائمات في الجوِّ ، ومشهدُ الطيور الحوَّم

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص٣٨٤.

(٢) البغاث : من طير الماء كلون الرماد طويل العنق ، ليس من جوارح الطير ، وبغاث الطير ألأمها وأشرّها ، انظر : اللِّسان ، مادة (بغث).

(٣) ديوان ابن حمديس ، ص٤١٤.

(٤) عقر الدار : وسطها ، وهو محلَّة القوم ، وفي الحديث : ما غزي قومٌ في عقر دارهم إلاَّ ذُلُّوا ، انظر : اللِّسان ، مادة (عقر) .

(٥) العادية : الخيل المغيرة ، انظر : اللِّسان ، مادة (عدا).

(٦) العوَّم : السبَّاحة ، انظر : اللِّسان ، مادة (عوم).

(٧) العلوج : الرِّجال من كفّار العجم ، انظر : اللِّسان ، مادة (علج).

(٨) الفتخ : عقاب فتخاء ، لينة الجناح ، انظر : اللِّسان ، مادة (فتخ).

(٩) حوَّم : تدور في طيرانها ، انظر : اللِّسان ، مادة (حوم).

في السماء على الجيش مشهد بصريّ قديم تداوله الشعراء ، وكثر تصويره ، وهو قريبٌ من المشهد البصريّ عند النابغة الذي صوَّر فيه عصائب الطير التي ترافق الممدوح لتنالَ من الأعداء ثقةً بالنصر[1] ، غير أنَّ ابن حمديس شبَّه الممدوحين فوق خيولهم بالطيور الفتخ التي تنقضُّ على غيرها من الطيور ، وهي صورة استهوت ابن حمديس كثيراً[2].

وقد جاء ابن حمديس بصورة بصريَّة أُخرى للجيش المغير ، قال فيها[3]:

يقتادُ كلٌّ عرمرمٍ[4] متموِّجٍ كالبحر تركلُهُ[5] نؤوجُ[6] الشمألِ
وتريكَ في أفقِ[7] العجاجِ[8] رماحُهُ شررَ[9]الأسنَّةِ[10] في رمادِ القسطلِ[11]

---

(١) قال النابغة يمدح :

إذا ما غزوا بالجيش حلّق فوقهم عصائب طيرٍ تهتدي بعصائب

ديوان النابغة ، ص٤٦ .

(٢) ومنه قوله :

غدت فوقه وحشُ العراءِ عواسلاً ومن فوقه طيرُ الهواء حوائمَا
كأنَّ عقاب الجوّ هزَّت خوافياً حواليك منه للوغى وقوادمَا

ديوان ابن حمديس ، ص٤٢٥ .

(٣) ديوان ابن حمديس ، ص٣٨٥ .

(٤) عرمرم : جيش عرمرم ، كثير شديد ، انظر : اللّسان ، مادة (عرم) .

(٥) تركله : الركل ضرب الفرس بالرجل ليعدو ، انظر : اللّسان ، مادة (ركل) .

(٦) نؤوج : الرياح الشديدة الهبوب ، والتحرُّك ، ولها مرٌّ سريعٌ مع صوت ، انظر : اللّسان ، مادة (نأج) .

(٧) الأفق : نواحي الفلك وأطراف الأرض ، انظر : اللّسان ، مادة (أفق) .

(٨) العجاج : الغبار ، انظر : اللّسان ، مادة (عجج) .

(٩) الشرر : ما تطاير من النار ، انظر : اللّسان ، مادة (شرر) .

(١٠) الأسنَّة : الرماح ، انظر : اللّسان ، مادة (سنن) .

(١١) القسطل : الغبار الساطع ، انظر : اللّسان ، مادة (قسطل) .

في كـــلّ ســـابغةٍ[1] كـــأنّ قتيرَهـــا[2] حدقُ الجنادبِ[3] في ســـرابِ المجهـــلِ[4]

فشبَّه في البيتِ الأوَّل الجيش الكثير العظيم بالبحر المتموِّج ، زاد في تموُّجه واضطرابه مرور رياحٍ شديدة الهبوب عليه ، واستعار لها صفة الفارس الذي يركل فرسه فيعدو ، وأراد بذلك سرعةَ مرِّها على الموج وتحرُّكه لذلك ، وهي لفتةٌ بصريةٌ دقيقةٌ في وصفِ تماوجِ الجيشِ واضطرابه .

ثمَّ شبه الرماح في احمرار أسنتها من دماء الأعداء وصورة هذا الاحمرار من خلال العجاج ، بالشرر المتطاير من النَّار ، ثم شبَّه المسامير التي في الدروع السابغةِ على المحاربين بحدقِ الجنادب ، والحدقةُ هي السواد المستدير وسط العين[5] ، والجندب الذكر من الجراد[6] ، وأراد أن الغبار ارتفع وتطاير حتَّى لم يبدُ من خلالهِ سوى مسامير الدروع التي تلمع كلمع حدقِ الجنادب في سرابٍ بصحراءَ مجهل ، لا يهتدي أحد فيها إلى شيء .

والصُّورة في الأبيات الثلاثة قائمةٌ على التشبيه الأخير للحرب بالمجهل لكثرةِ الغبار الذي لم يعد يُرى من خلاله شيء ، وهي صورة تقوم على حاسَّة البصر في تشبيهاتها واستعاراتها ، وقوله إن البحر يُركل من قبل الريح النؤوج ، إضافةٌ صوتيَّةٌ لأن الريحَ النؤوج ذاتُ صوتٍ في مرِّها ، وأضاف اللَّون أيضاً في ذكر الشرر المتطاير من الرماح في غبارٍ وعجاجٍ كالرماد ، ثمَّ كانت الحاسَّةُ البصريَّةُ شديدة الدِّقة ، في تشبيه لمع القتير في الدروع بلمع حدق الجنادب في

---

(١) السابغة : الدرع ، انظر : اللِّسان ، مادة (سبغ) .

(٢) القتير : مسامير الدروع ، انظر : اللِّسان ، مادة (قتر) .

(٣) الجندب : الذكر من الجراد ، وهو أصغر من الصَّدى يكون في البراري ، انظر : اللِّسان ، مادة (جدب) .

(٤) أرضٌ مجهل : لا يهتدى فيها ، انظر : اللِّسان ، مادة (جهل) .

(٥) انظر : اللِّسان ، مادة (حدق) .

(٦) انظر : اللِّسان ، مادة (جدب) .

سراب الصحارى ، وذكر السراب لأنه أراد أن يصف الدروع التي تشبه الماء ، واختار السَّراب الذي كأنَّه الماء ، لأنَّه يصف صورة معمَّاةً مظلمةً ، وتشبيه الدروعِ بالماء ـ والعكس أيضاً ـ كثيرٌ جدًّا في الشعر ، ومنه قول المعتمد ابن عبَّاد :

(صنعَ الريحُ من الماءِ زَرَدْ[1])[2]

وكانت إضافة ابن حمديس للصُّورة البصريَّة للدروع ، في تشبيه لمعِ المسامير بحدق الجنادب ، وهو تشبيهٌ دقيقٌ قائم على ملاحظةٍ بصريَّةٍ قويَّة ، لهذه الدويبة الصحراويَّة الصغيرة .

ومن الصُّور البصريَّة المستوحاة من المشاهداتِ البدويَّة ، قول ابن حمديس يصوِّر قوَّة بأس الممدوحين[3] :

ترحَّلُ من آجامها الأسدُ خيفةً إذا نزلوا للرَّعي فيها وخيَّمُوا

فصوَّرَ قوَّتهم ، وما يوقعونه في نفوسِ الأعداء من مهابة ، صورةً بصريَّةً ، تظهرُ فيها الوحوشُ وقد ترحَّلت من آجامها أي : الأشجار الملتفة التي تقيم بها[4] خوفاً من الممدوحين ، إذا نزلوا مكاناً كنّى عن حلولهم فيه بالرَّعي والخيام ، وأراد أن مجرَّد إقامتهم بهذا المكان تنفي الأعداء عنه ، وذكر الرَّعيَ والخيام لأنه أراد ما وراءَ الصُّورة من مدحٍ بشجاعةِ البدو وقوَّةِ بأسهم ، ممَّا هو مستقرٌّ في الأذهان عنهم ، ومعروفون به لحاجتهم إلى هذه الشجاعة في تأمين معيشتهم وحمايةِ أنفسهم ، وإهابة أعدائهم ، ممَّا كان يشكل خطراً دائماً ، كان البدو على استعداد له وتأهُّب ، ولذا بعدت معيشتهم عن الدِّعةِ والركون لحياة

---

(١) الزرد : حلق المغفر والدرع ، انظر : اللِّسان ، مادة (زرد).

(٢) ديوان المعتمد بن عباد ، ص٧٦.

(٣) ديوان ابن حمديس ، ص٤١٢.

(٤) انظر : اللِّسان ، مادة (أجم).

الترف كما هو الحال في الحاضرة ، وهو ما أراده ابن حمديس من وراء تشبيه الممدوحين بالبدو .

ومن الصُّور البصريَّة في الشعر الأندلسيّ ، ما كان مستوحى من مشاهد الخيامِ ، والقباب ، والمضارب ، ومنها صورةٌ لحازم القرطاجني مدح فيها بالكرم ، فشبَّه عطايا الممدوح بموارد الماء[١] ، وقال[٢]:

مصانعُ فيهـا أغـربَ الجـودُ والنـدى ... فما استُغْرِبَتْ مـن بعـدهنَّ الغرائـبُ

سمتْ وسطَها بيضُ القبابِ[٣]وأحـدقتْ[٤] ... قبابٌ بـهـا من سندسٍ[٥]ومضـاربُ

قبابٌ من الدَّوحِ[٦]المنيفِ[٧]تـهـدَّلتْ[٨] ... لـهـنَّ أعـالٍ بـالجنى[٩]وجوانـبُ

عَلَـتْ وضَـفَتْ[١٠] أطنابُهـا فتهـدَّلتْ ... على صفحاتِ الماءِ منـها هيـادبُ[١١]

وحـازم لمَّا ذكـر الإغرابَ فـي الجودِ والنَّدى ومعنـى أغـرب أي : (أمـعـن وتباعد وجاء بشيءٍ غريبٍ وصلَ إلى الغاية) [١٢] ، صوَّر صورةً جاء فيها أيضاً

(١،٢) ديوان حازم القرطاجني ، ص٢٠ .

(٣) القباب : القبة من الخيام بيتٌ صغيرٌ مستديرٌ من بيوتِ العرب ، انظر : اللِّسان ، مادة (قبب) .

(٤) أحدقت : أحاطت ، انظر : اللِّسان ، مادة (حدق) .

(٥) السندس : رقيق الديباج ورفيعه ، وهو الطيلسان الأخضر ، انظر : اللِّسان ، مادة (سندس) .

(٦) الدَّوح : جمع دوحة وهي الشجرة العظيمة المتسعةُ من أي شجرٍ كانت ، وهي شديدة العلو ، انظر : اللِّسان ، مادة (دوح) .

(٧) المنيف : المرتفع العالي المشرف ، انظر : اللِّسان ، مادة (نوف) .

(٨) تهدَّلت : تدلت واسترخت لثقلها بالثمر ، انظر : اللِّسان ، مادة (هدل) .

(٩) الجنى : الثمر وما يجنى من الشجر ، انظر : اللِّسان ، مادة (جني) .

(١٠) ضفت : ضفا كثر وطال ، والضفو : السعةُ والخير ، انظر : اللِّسان ، مادة (ضفا).

(١١) هيادب : هدب الشجرة طول أغصانها وتدلّيها ، انظر : اللِّسان ، مادة (هدب).

(١٢) انظر : اللِّسان ، مادة (غرب) .

بغرابة ، وأراد أن يصل بها عن طريق التصوير البصريّ الاستعاريّ إلى الغاية في الكرم التي وسم بها ممدوحه ، فجاء بصورةٍ بدويّةٍ لقباب ومضارب عالية سامية مرتفعة ، لأنه أراد جوداً وكرماً عظيماً ، وزيَّن هذه القباب ولوَّنها فجعلها بيضاً أحاطت بها قبابٌ أُخَرُ من ديباجٍ أخضر ، لأنه أراد نفساً جادت بالأفضل ، ثمَّ مَطَّل الصُّورة ومدَّها ؛ فذكر القبابَ مرَّةً ثالثة وشبَّهها بالدَّوح ، وهو شجرٌ شديد العلوِّ ، وذكر أنَّه مثمرٌ مسترخٍ متدليةٌ جوانبه لثقل أغصانه بالثمر ، ثمَّ مطَلَ الصُّورة مرَّة أُخرى ، فصوَّر علوَّها ، وطولها ، وسعتها ، في قوله (ضَفَتْ) وشبَّه أغصانها بأطنابِ الخيام المتهدِّلةِ المتدلِّية ، وهي أغصانٌ مسترخيةٌ على الماء .

وأراد بهذه الصُّورة : للكثافة والعلوِّ في الشجر ، والتدلِّي للأغصان والثمر ، وكثرتها ، وتهدُّلها ، أن يصفَ ممدوحاً عالي المكارم ، دانٍ في الفضل والجود ، يجمعُ بين الندى والسماحة .

والصُّورة استعاريَّة في مجملها ، أراد بها جوداً وسعة فضل ، وصل فيها الممدوح غايةً ما بعدها غاية ، فجاء بصورةٍ بصريَّةٍ لخيامٍ وقبابٍ عاليةٍ ملوَّنة ، مسترخيةِ الأطناب ، وأشجارٍ كثيفةٍ طويلةٍ متدليةِ الأغصان ، جعلها على صفحات الماء ، ليمنحها حياةً مستمرَّة ، لأنه أراد كرماً دائماً لا ينضب ، بل يظل دوحُهُ مخصباً ، خضلاً ، مثمراً .

وقد تأتي الصُّورة البصريَّة للنباتِ الندي بالماء في سياقٍ آخر ، كالتشوُّقِ للأحبَّةِ والدُّعاء لهم ، كما في صورةٍ للسان الدين بن الخطيب ، يقول فيها[1]:

---

(١) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٦٥٩/٢ .

يا عُريبَ[1] الشِّعبِ[2] من وادي[3] النَّقا[4] أخضلَ[5] الغيثُ رباكمْ[6] ونَقَعْ[7]
أخلقَ الصَّبرُ[8] فما في ثوبهِ أبداً والله لي من منتفَعْ

والسِّياق سياق تشوّق ، ولذلك جاء بياء النداء ، وذكر الرَّبعَ فقال (عُريب) مصغِّراً لهم تحبُّباً ، وهو تصغير عرب ، وأراد بهم الأعراب من البدو ، لأنَّه أسنده إلى الشِّعب ، وذكر الوادي والنَّقا ، ودعا لهم فقال (أخضلَ الغيثُ رباكم ونقع) أي جعل الله الغيث يهمي على مرتفعات أرضكم وروابيها ، حتَّى يخضل الزرع أي ينبتُ ويندى ، ويبقى في الأرض من المطر ماءٌ ومسيلٌ ، يثبت ، وأراد بقوله (نقع) أن تكون هذه السقيا دائمةً لا تنضب .

والبيت كلُّه يشي برواءٍ وإرواء ، فقد ذكر الشِّعب وهو مسيل الماء والوادي وهو مسلك السيل ، والغيث ، ومنقع الماء ، وتخضُّل النبات بالنَّدى ، وهي دلالاتُ دعاءٍ بالخصب والنماء والخير الدَّائم ، وظَّف الشاعر لتصويرها البصرَ في رؤيةِ ماءٍ يشقُّ واديه وشعبه النَّقا ، حتَّى يروي النباتَ ويبقى منه ، ليجعله نديًّا متجدِّداً دائماً ، وهي صورةٌ بصريَّة ، مطابقةً معنويًّا للصُّورة البصريَّة في البيت التالي ، والتي اتخذت منحًى استعاريًّا ، حيث استعار للصبر صفة الثوب

---

(١) عُريب : تصغير العرب ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرب) .

(٢) الشِّعب : ما انفرج بين جبلين ، وهو أيضاً مسيلُ الماء في بطنٍ من الأرض ، انظر : اللِّسان ، مادة (شعب) .

(٣) الوادي : كل منفرج بين الجبال ، والتلال ، والأكام ، سمي بذلك لسيلانه ، يكون مسلكاً للسيل ، ومنفذاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (وديَ) .

(٤) النقا : الكثيب من الرمل ، انظر : اللِّسان ، مادة (نقا) .

(٥) أخضل : نبات خضل أي رطب بالندى ، والخضل النبات الناعم ، انظر : اللِّسان ، مادة (خضل) .

(٦) الرُّبى : ما ارتفع من الأرض ، انظر : اللِّسان ، مادة (ربا) .

(٧) النقع : الماء في المسيل ونحوه ، إذا اجتمع وثبت ، انظر : اللِّسان ، مادة (نقع).

(٨) أخلق الصبر : أبلاه وقطعه ، انظر : اللِّسان ، مادة (خلق) .

الخلق البالي ، الذي لم يعد به منتفع ، وأراد به ذهاب صبره لذهابهم ، فصوَّر لنا بالخيال البصري هذا الصَّبر ثوباً مقطَّعاً ممزَّقاً لم يعد في لبسه من فائدة .

ومن الصُّور البصريَّة المرتبطة بالإرواء والغيث ، صورةُ البرق ، الذي يظهر في السماء مومضاً يجذب إليه الأنظار ، ويغذي الشِّعر بالخيال ، فرأى الشعراءُ في مشهده ، تبسُّمَ الصاحبة ، أو وجيف القلب ، أو توقَّدَ نار الشوق . . . وما إلى ذلك ، ومن هذه الصُّور البصريَّة ، قول سليمان بن بطَّال المتلمِّس[1]:

وأرى خلالَ الليلِ مبسمَ بارقٍ كالزَّندِ[2] يقدحُ أو ضرامِ[3] العرفَجِ[4]
فكأنَّه من أضلعي متوقِّدٌ في الجوِّ إلاَّ أنَّه لم يوهَجِ[5]

فاستعار للبرق صفة التبسُّم بجامع البياض ، وشبَّهه في إيماضه بقدْحِ النَّار في نباتِ العرفج البدويّ ، وجعله متوقّداً من ضلوعه ، مبالغةً منه في وصف الشوق والوجد ، الذي أوغل في صفته عندما قال إن البرق (لم يوهج) أي أنه لم يشتعل بل كانت ضلوعُه هي المشتعلة .

فالشاعر أراد أن يُبينَ عن معنى الشوقِ في نفسه ، فجاء بصورةٍ بصريَّةٍ بدويَّةٍ للبرق ، والنار ، والتبسُّم ، والاشتعال ، وجمع إليها لوني البياض ، والحمرة ، الظاهرين في الصُّورة .

ومن الصُّور البصريَّة للبرقِ والسحاب ، قول ابن خفاجة[6]:

---

(١) التشبيهات ، ابن الكتَّاني ، ص٣١.

(٢) الزَّند : العود الذي يقتدح به النار ، انظر : اللِّسان ، مادة (زند) .

(٣) ضرام : اشتعال ، انظر : اللِّسان ، مادة (ضرم) .

(٤) العرفج : نباتٌ طيب الريح أغبر إلى الخضرةِ يوقد منه النار ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرفج) .

(٥) يوهج : يتوقّد ، انظر : اللِّسان ، مادة (وهج) .

(٦) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٤٣ .

وخميلةٍ[١] قد أخملَتْ[٢] سربالَها[٣] كفَّا صناعٍ[٤] تستهلُّ[٥] هتونِ[٦]
طوتْ السُّرى[٧] والبرقُ سوطٌ خافقٌ بيدِ الدُّجى[٨] والريحُ ظهرُ أمونِ[٩]

والبيتُ فيه تقديمٌ وتأخير أراد : إنَّ كفَّ الهتون الصَّنَّاع أخملت سربال خميلة ، فاستعار للسحابة الهتون الممطرة ، اليدين أو الكفين ، من المرأةِ الصَّنَّاع الماهرة وجعلها تسقي هذه الخميلة حتى كستها سربالاً أخضرَ ، استعار له من المرأة القميصَ أو الدِّرع السَّابغ .

والجمع بين الخميلةِ والديمة في الصُّورة ، جمع بين (الخصب والنماء والإمراع) ، وسببه وهو : (السحاب والغيث والمطر) ، وهو ربطٌ قديمٌ في الشعر[١٠] ، لأنَّه ناتجٌ عن تزاوج في الطبيعةِ ومشاهداتها .

وقد عاد ابن خفاجة فشخَّص في البيت الثاني السحابة والدُّجى والريح ، فذكر أن السَّحابة طوتْ الأرض[١١] ساريةً ، وشبَّه البرق بسوطٍ خافقٍ أي مضطربٍ متحرِّك ، وجعل للدُّجى وهو الظلام الشديد يداً تحمل هذا السوط

---

(١) الخميلة : الشجر المجتمع الكثير الملتف الذي لا يرى فيه الشيء إذا وقع في وسطه ، انظر : اللِّسان ، مادة (خمل) .
(٢) أخملت : أخفضت ، وأسقطت ، انظر : اللِّسان ، مادة (خمل) .
(٣) السربال : القميص والدرع ، انظر : اللِّسان ، مادة (سربل) .
(٤) الصناع : الحاذقة الماهرة بعمل اليد ، انظر : اللِّسان ، مادة (صنع) .
(٥) تستهلّ : يشتدُّ انصبابها ، انظر : اللِّسان ، مادة (هلل) .
(٦) الهتون : السحابة الهتون تصبُّ المطر صبًّا ، انظر : اللِّسان ، مادة (هتن) .
(٧) السُّرى : المسير ليلاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (سرا) .
(٨) الدُّجى : سواد الليل مع غيم ، وأن لا ترى نجماً ، ولا قمراً ، انظر : اللِّسان ، مادة (دجا) .
(٩) أمون : أمينة وثيقة الخلق ، قد أمنت أن تكون ضعيفة ، وهي التي أمنت العثار ، والإعياء ، انظر : اللِّسان ، مادة (أمن) .
(١٠) يقول لبيد بن ربيعة :
باتت وأسبل واكفٌ من ديمةٍ يروي الخمائل دائماً تسجامُها
ديوان لبيد بن ربيعة ، ص١٧٢ .
(١١) وهو من المجاز ، انظر : أساس البلاغة ، الزمخشري ، ٢/٨٥، مادة (طوي).

أو البرق ، وتضربُ به الريح التي استعارَ لها من الناقة الأمون الوثيقةِ الخلق الظهرَ الذي يُضرب ، فتضمَّنت الصورة مشاهد بصريّةٍ لطبيعةٍ ألبسها ابن خفاجة باستعاراته وتشخيصه حياةً وحيويَّةً ، وهو ما كان من سماتِ شعره ، وصوره .

ومن الصُّور البدويَّة البصريَّة الأخرى ، ما جاء في مشهد الوداع والرَّحيل ، من وصف الإشارة والتلويح ، من مثل قول لسان الدين بن الخطيب[1]:

ولـمَّـا سَرَتْ والليلُ قد مالَ وانقضى وأعجلَهـا ضـوءُ الصَّـباحِ الملمَّـعِ
ولم تستطعْ ردَّ السَّلامِ مخافةً أشارت بطرفٍ ثم أومتْ بإصبعِ

فصوَّر وداعها له وقد انقضى الليل وأعجلَها الصبح ، وأراد بذلك أنَّ القوم تيقَّظوا ، فكان الوداعُ منها بالنظر بمؤخّر العين اختلاساً ، والإشارة بالإصبع عوضاً عن الكلام ، وهي صورة بصريَّة حسيَّة ، لوداعٍ دعَا بعده لصاحبته دعاءً بدويًّا بقوله[2] :

عليكم سلامُ الله ما هبَّت الصَّبَا وما لاح برقٌ في أجارعِ لعلعِ

ومن الصُّور البصريَّة ما كان فيها اللَّون غالباً على المشهد ، مثل قول ابن شكيل[3] :

وقالوا : أتهواهُ على قلحٍ[4] به؟ فقلتُ : هَنانِي دونَ غيري موردُ
متى أبصرتْ عيناكَ في الماءِ عرمضاً[5] إذا كانَ في كلّ الأحايينِ يوردُ؟!

والصُّورة غريبةُ الدلالة ، وهي مخالفةٌ للصُّور التي درج فيها الشعراءُ على إعطاءِ المرأةِ صفاتٍ غاية في الجمال ، ممَّا يدخلُ ـ أحياناً ـ في باب المبالغات الخياليَّة ، للتدليل على الحسنِ وأسباب الهوى والعشق ، ولكن هذه الصُّورة

---

(١) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٦٥٤/٢ .

(٢) المصدر السَّابق ، ٦٥٥/٢ .

(٣) ديوان ابن شكيل ، ص٥٣ .

(٤) القلح : صفرة وسواد وخضرة تعلو الأسنان ، وهو تكدُّر في اللون ، انظر : اللِّسان ، مادة (قلح).

(٥) العرمض : الطحلب ، وهي خضرة على الماء ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرمض).

جنحت نحو تصويرٍ واقعيٍّ لهوىً لا يبالي فيه الشاعر بما في محبوبتهِ من عيبٍ في الخلقة : فهي ذات أسنانٍ متكدِّرة اللَّون ، شبهها في هذا اللَّون المائل للخضرة بالماء في الفلاة يكسوه العرمض ، لا يبالي الواردون بعرمضهِ عند شربهم ونهلهم منه .

والصُّورة ـ على أنَّها ذاتُ تصويرٍ واقعيٍّ ـ غَلبَ على مشهدها البصريِّ اللَّون المتكدِّر الذي تشابه في أسنان الصاحبة والماء الآجن ، إلاَّ أنَّها أيضاً ذات واقعيَّةٍ غير محببَّةٍ وغير مطلوب وجودها في الشِّعر ، لأنَّ الماء الآجن مقزِّزٌ للنفس ، وكان يستطيع ضربَ المثل بشيء آخر ، ولكنَّه اهتمَّ بالشبه دون غيره وبمعنى حاجةِ الواردِ في الصحراءِ للماء دون الاكتراث للَّون ، فوقع في تشبيهٍ غير لائق ، لامرأةٍ قال إنه يحبُّها ، ولم يكترث لعيبٍ فيها .

ومن الصُّور البصريَّة البدوية الأُخرى ، التي ظهر اللون فيها غالباً على المشهد ، قول ابن درَّاج[1] :

شيما[2] سنا البارقِ المنهلّ فالتمحَا[3] أيُّ السُّرى[4] أمَّ[5] أم أيُّ البلادِ نَحَا[6]

واستخبرا نفحاتِ[7] الرِّيحِ هل سبكتْ[8] ذرًّا[9] من التبرِ[10] أو شابتْ[11] دُجى[12] بضحى

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص٥٣٩ .

(٢) شيما : شام السحاب والبرق ، نظر إليه أين يقصد وأين يمطر ، انظر : اللِّسان ، مادة (شيم) .

(٣) التمحا : انظرا ، ولمح البرق لمع ، انظر : اللِّسان ، مادة (لمح) .

(٤) السرا : المسير ليلاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (سرا) .

(٥) أمَّ : قصد ، انظر : اللِّسان ، مادة (أمم) .

(٦) نحا : قصد ، انظر : اللِّسان ، مادة (نحا) .

(٧) نفحات الريح : دفعاتها وهبَّاتها ، انظر : اللِّسان ، مادة (نفح) .

(٨) سبكت : ذوبت وأفرغت ، انظر : اللِّسان ، مادة (سبك) .

(٩) ذرًّا : نثراً ، انظر : اللِّسان ، مادة (ذرر) .

(١٠) التبر : الذهب ، انظر : اللِّسان ، مادة (تبر) .

(١١) شابت : خلطت ، انظر : اللِّسان ، مادة (شوب) .

(١٢) الدُّجى : سواد الليل مع غيم ، انظر : اللِّسان ، مادة (دجا) .

أم استهامت[1] هوادي الليلِ[2] فاقتبستْ[3] أم هل تضَّلل[4] حادي المزنِ فاقتدحَا[5]

فابن درَّاج يصوِّر البرق ، ويبدأ هذه الصُّورة بالطلب التقليدي الجاهليّ من رفيقين له أن يساعداه بالنظر إلى البرق ، ومعرفةِ أين يتجه ويذهب ، فقال (شيما) و (التمحا) من اللَّمح ، أراد أن يطلب منهما إمعان النَّظر وتدقيقه ، لمعرفةِ أين يقصدُ البرق (وهي عادةٌ بدويَّة) ، وشخَّص هذا البرق في قوله (أيُّ السُّرى أمَّ) فجعله يقطع المسافاتِ كالمسافر ليلاً ، وهو السَّاري ، ثم جاء بفعل (استخبرا) على صيغة (افتعل) مرَّة أُخرى ، التي أراد بها تقصِّي الخبر ، وذكر الريح التي شخَّصها ، وطلب من رفيقيه أن يسألاها عن اللَّون الذي طرأ في السماء ،ممَّا دلَّ به على أنَّ الضُّحى كان سائداً ومضيئاً خالطته السَّحابة الممتلئةُ بالمطر ، المظلمةُ لامتلائها به ، وكان البرقُ يضيء في جنباتها ، ممَّا جعل المشهدَ اللَّوني يختلط فيه الضُّحى بالسواد بالحمرة التي تظهر من التماع البرق في السحاب المظلم ، فشبَّه هذا اللَّون بسبكِ الذهب ، وأراد بذلك الحمرة المصاحبة لوميض البرق ،أو أنّ السحابة لسوادها اختلطت بالضُّحى المنير فظهر لونٌ آخر مختلفٌ مشوبٌ بين لونين[6].

---

(١) استهامت : ذهبت على وجهها ، انظر : اللِّسان ، مادة (هيم) .

(٢) هوادي الليل : أوله وما تقدَّم منه ، انظر : اللِّسان ، مادة (هدي) .

(٣) اقتبست : أخذت ناراً ، انظر : اللِّسان ، مادة (قبس) .

(٤) تضلل : الضلال ضد الهداية والإرشاد ، انظر : اللِّسان ، مادة (ضلل) .

(٥) اقتدحا : أشعلت منه ناراً ، والقدح الزند الذي تقدح به النار ، انظر : اللِّسان ، مادة (قدح) .

(٦) والمشهد اللوني هنا يشبه قول أبي تمَّام يصف النهار الممتزج بياضه بخضرة النباتِ التي جعلت ضوء النهار كأنه مقمر :

يا صاحيَّ تقصَّيا نظريكما ... تريا وجوه الأرضِ كيف تصوَّرُ

تريا نهاراً مشمساً قد شابَه ... زهر الرُّبى فكأنما هو مقمرُ

ديوان أبي تمام ، شرح الخطيب التبريزي ، ١/٣٦٦ .

وقوله (سبكت) و (شابت) أسندهما للريح التي شخَّصها ، ثم صوَّر هذا اللَّون المشوب المختلط بحمرةٍ في البيت التالي ، فاستعار للَّيل صفة الهيام والضلال ، وجعله لذلك يقتبس نوراً ليهتدي به ، وهو النُّور الذي أضاءه البرق ، ثم استعار للمزن صفة النوق التي تُحدى ، وجعل حاديها يضلُّ فيطلبُ ناراً يقدح بها ليتبيَّن الطريق ، فشبَّه بها لون البرق ، وطابق بين (هوادي) و (تضلُّ) ولاءم بين (اقتبست) و (اقتدحا).

فالصُّورة البصريَّة لمشهد لوني ، اختلط فيه لون الضّحى بالسحاب الأسود ، بلمع البرق المضيء المشبه للحمرة ، ولذلك كانت التشبيهات والاستعارات ، تصبُّ في وصف هذا اللَّون ، الذي ذكر أنَّه سُبك أو شِيبَ ، أو اقتبست في ظلمته النَّار ، أو اشتعلت فيها .

ومن الصُّور البصريَّة التي كان اللون فيها سائداً ، قول لسان الدين ابن الخطيب يصف خيلاً[1]:

مـن كـلِّ أحمـرَ ورديٍّ تنازعُـهُ[2] ظبـاءُ وجـرةَ في الألـوانِ والخلـقِ[3]

فابن الخطيب شبه الخيول بالظباء ، وفصَّل وجه الشبه فذكر الألوان والخلق ، وخصَّ من الألوان الأحمر الورديَّ في الخيل ، وشبهها فيه بالظباء العفر وهي ما تعلو بياضها حمرة[4] ، وهو اللون الأحمر الورديُّ الذي أراده في الخيل ، وجعل الصفة المشتركة بين المشبه والمشبه به قويَّةً في كليهما ، حتَّى أنهما يتنازعانها ، ويتجاذبانها ، وذكر التشبيه البدويّ القديم بظباء وجرة ، ولكنَّه صرفه من تشبيه المرأة بها ـ كما كان الحال عليه في الشعر القديم وغيره ـ إلى تشبيه الخيل بها .

---

(١) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢/٦٩٢ .

(٢) تنازعه : تجاذبه وتغالبه ، انظر : اللِّسان ، مادة (نزع) .

(٣) وجرة : موضع بين مكة والبصرة ، تكثر فيه الظباء ، انظر : اللِّسان ، مادة(وجر) .

(٤) انظر : اللِّسان ، مادة (عفر) .

وتشبيه الخيل بالظباء قديم ، ولكنهم كانوا يخصُّون بعض الصفات ، فيذكرون الضمور أو غيره من مثل قول امرئ القيس (له أيطلا ظبي) [1] ، أمَّا ابن الخطيب فقد شبَّه الخيل بالظبي في جميع الخلقِ وفي الألوان ، وخصَّ (وجرة) لأنه مكان بدويٌّ مشهورٌ بالظباء ، وأراد بذلك لفت النظر إلى صفاتِ الحسن في الخيل ، بما اشتهر في الشعر القديم من ذكر ظباء وجرة عند تشبيه النساء بهنَّ في الحسن .

ومن هذه الصُّور اللونيَّة ، قول ابن الحدَّاد [2] :

وشهبٌ[3] القنا[4] كالنَّقبِ[5] والنقعِ ساطعٌ[6] هنـــاءٌ[7] وأيـــدي المقربـــاتِ[8] هـــوانئُ

فشبَّه أسنَّة الرِّماح وقد طُعنَ بها الأعداء فاعتلاها الدم بالشهب أي : العيدان التي أُوقِدَ في طرفها شعلة نارٍ ، بجامع الاحمرار الناتج عن توقُّدِ النَّار الذي شبه به تلطُّخها بالدم ، وأراد أن يبرز المشهد اللوني في الصُّورة ، فجعل هذه الشهب أو الرماح متوقّدة أو دامية في غبار المعركة الساطع الذي يشبه في سواده ـ في دلالةٍ على كثرته ـ الهناءَ وهو القطران الذي تُطلى به الإبلُ المصابة بالجرب .

وذكر المقربات ؛ والمقربات تكون صفة للإبل التي حرمت للركوب ، وصفة أيضاً للخيول المقرَّبة المكرَّمة المعدَّة للرَّكوب [9] ، والأَوْلَى لمناسبةِ الحرب أن يكون أراد بالمقربة الخيول .

---

(١) ديوان امرئ القيس ، ص٥٨ .

(٢) ديوان ابن الحدَّاد ، ص١٥١ .

(٣) الشهب : جمع شهاب وهو العود الذي فيه نار ، انظر : اللِّسان ، مادة (شهب) .

(٤) القنا : الرماح ، انظر : اللِّسان ، مادة (قنا) .

(٥) النقب : القطع المتفرقة من الجرب ، انظر : اللِّسان ، مادة (نقب) .

(٦) النقع : الغبار الساطع ، انظر : اللِّسان ، مادة (نقع) .

(٧) الهناء : ضربٌ من القطران ، انظر : اللِّسان ، مادة (هنأ) .

(٨) المقربات : من الإبل التي حُرمت للركوب ، ومن الخيل التي ضمّرت للركوب وأُعدّت ، والمقرب من الخيل التي تُدنى وتقرَّب وتكرَّم ، انظر : اللِّسان ، مادة (قرب) .

(٩) انظر : اللِّسان ، مادة (قرب) .

وشبَّه أيديها في عدوها وكرِّها على الأعداء بأيدي من يضعُ الهناءَ على الإبل ليعالج الجرب ، وأراد بهذه الصُّورة البدويَّة لمشهد طلاء الإبل وعلاجها ، ما وراءها من معنى الدَّاء والدواء ، أي أن هذه الرماح التي تنال من الأعداء بقتلهم ، فيها شفاءٌ للقلوب منهم ، كما يشفي القطران الإبلَ من دائها ، فشبَّه النَّيْلَ من الأعداء بالشفاء من الداء ، وهو ما يشبه صورة (شكّ المبيطر) في قول النابغة يصف قتل الثور للكلب[1] :

شكَّ الفريصةَ بالمدرى[2] فأنفذَها ... شكَّ المبيطرِ إذ يشفي من العَضَد[3]

وابن الحدَّاد في هذه الصُّورة التي أراد بها هذا المعنى ، جعل اللون فيها غالباً ، وهو اللَّون الأحمر في (الرماح والجرب) والأسود في (الغبار والقطران) ، وجانس بين (القنا ، والنقب ، والنقع) وبين (الهناء ، والهوانئ) .

ومن الصُّور البصريَّة اللَّونية ما جاء في قول ابن زُمْرُك[4] :

فيا أيُّها الرَّاكبُ الذي وَصَلَ السُّرى ... وأزجى القلاصَ[5] البُدْنَ[6] حَسْرى[7] وظُلَّعَا[8]

إذا ما نَضَتْ[9] بُردَ[10] الأصيلِ[11] مورَّسًا[12] ... لبسنَ مُسُوحًا[13] للظلامِ وأدرُعَا[14]

---

(١) ديوان النابغة ، ص٨٠ .

(٢) المدرى : القرن ، انظر : اللِّسان ، مادة (درى).

(٣) العضد : داءٌ يأخذ الإبل في أعضادها ، انظر : اللِّسان ، مادة (عضد).

(٤) ديوان ابن زُمْرُك ، ص١٤٦ .

(٥) القلوص : الفتية من الإبل ، انظر : اللِّسان ، مادة (قلص).

(٦) البدن : السِّمان المكتنزة العظيمة ، انظر : اللِّسان ، مادة (بدن).

(٧) حسرى : الحسر التعب والإعياء ، انظر : اللِّسان ، مادة (حسر).

(٨) ظُلَّع : من الظَّلَع وهو العرج في المشي ، والظلع داءٌ في قوائم الدابة تغمز منه ، انظر : اللِّسان ، مادة (ظلع) .

(٩) نضت : خلعت ، وألقت ، انظر : اللِّسان ، مادة (نضا).

(١٠) البرد : ثوب فيه خطوط ، وخصّ بعضهم به الوشي ، انظر : اللِّسان ، مادة (برد).

(١١) الأصيل : العشيّ ، انظر : اللِّسان ، مادة (أصل).

(١٢) مورَّساً : الورس الصبغ ، وثوبٌ مورّس مصبوغ بالورس الأصفر ، وهو نبات في اليمن ، انظر : اللِّسان ، مادة (ورس).

(١٣) المسوح : الكساء من الشعر ، انظر : اللِّسان ، مادة (مسح).

(١٤) أدرع : جمع درع وهو لباس الحديد ، انظر : اللِّسان ، مادة (درع).

وإن فـــارقَ الأقتـــابَ[1] منـــها حُـــدَاتُها فرشْـــنَ[2] جنوبـــاً أو توسَّـــدنَ[3] أذرُعَـــا

والصُّورة البصريَّة هنا لإبلٍ فتيَّةٍ سمانٍ أعياها التعب وشكت من الظَّلع لطول المسيرِ وإرهاقه لها ، وصوَّر الشاعر مواصلتها السيرَ ليلاً ونهاراً لونيًّا ، فاستعار لها صفة لبس البرد المصبوغ بالأصفر نهاراً ، وأراد به وقت الأصيل أي العشيِّ قبل مغيب الشمس ، واستعار لها في اللَّيل صفة لبس المسوح والدروع ، وأراد إسباغ السواد والظلمة عليها في وقت الليل .

فجعل اللَّون غالباً في الصُّورة البصريَّة ، التي أراد بها أن يظهر مواصلتها الليل بالنهار في المسير ، وأتمَّ الصُّورة بصريّاً باستعارته لها بسط الجسد ومدَّه ، والاتكاء والتوسُّد ، وجعل فرشهنَّ أجسادهن ، ووسائدهنّ أذرعهَنَّ ، في إشارةٍ إلى طلبهنَّ الراحة ، حال أن يسمح لها الحداةُ بذلك ، وأراد همَّة المسافرين وعزمهم .

والصُّور البصريَّة البدويَّة ومنها اللونيَّة ، تكثر في الشعر الأندلسيّ ، وقد ضربنا أمثلةً تدلُّ على ارتباط الصُّور الأندلسيَّة في هذا الشعر بالقديمة البدويَّة ارتباطاً وثيقاً ، ممَّا يدلُّ على الوفاءِ للموروث القديم ، وشدَّة العناية به ، وتلبُّسه في دواخل المخيلة الشعريَّة الأندلسيَّة .

الصُّورة السمعيَّة :

وقد يعتمد الشاعر في الصُّور البدويَّة الحسيَّة ، على حاسة السمع ممَّا يضفي عليها حيويَّة الصوت ، ومن هذه الصُّور السمعيَّة ، ما كانت متضمنة صوت حنين الإبل ، وهو الصَّوت ، الذي تطرب به في أثر ولدها . وتنزع به

---

(١) الأقتاب : جمع قتب وهو رحلٌ صغيرٌ على قدر السنام ، وأقتب البعير إذا شد عليه القتب ، انظر : اللِّسان ، مادة (قتب) .

(٢) فرشن : بسطن ، انظر : اللِّسان ، مادة (فرش) .

(٣) توسَّدن : اتكأنَ ، انظر : اللِّسان ، مادة (وسد) .

إلى أوطانها[1] ، وهو مرتبطٌ بعاطفةِ الأمومة ، وحبّ المكان ، وكان له أثرٌ قديمٌ قويٌّ في الصُّور الشعريَّة التي استلهم فيها الشعراء صورة الإبل تحنُّ إلى أولادها وفي أثرهم ، وتحنُّ أيضاً إلى أوطانها وتنزع إليها ، وهو صوتٌ مثيرٌ للشجن قويُّ الدلالةِ على عمق الشعور العاطفي إلى ما أراد الشعراءُ الأندلسيُّون أن يصفوا ارتباطهم به ، ونزوعهم له ، ورغبتهم فيه ، فوجدوا ضالَّتهم في الصوت البدوي الحنينيِّ في الإبل ، ومن ذلك قول ابن حمديس يصوِّر نزوعه لوطنه[2] :

أحنُّ حنينَ النِّيبِ[3] للموطنِ الذي ... مغانيْ[4] غوانيهِ[5] إليه جواذبي

ومَنْ سارَ عن أرضٍ ثوى[6] قلبُهُ بها ... تمنَّى له بالجسمِ أوبَة آيبِ[7]

فشبَّه ابن حمديس حنينه لوطنه ونزوعه إليه بحنين الإبل وصوتها في إثر ولدها ، واختار (النيب) منها أي المسنَّة ، لأنَّ عاطفة الأمومة أقوى عندها من القلوصِ الفتيَّةِ ، وارتباطها بأولادها أشدُّ وأوثق ، وكذلك بأوطانها ، ولذلك تشبه بها في ارتباطه بوطنه ونزوعه إليه ، وزاد في الصُّورة بأن وصف هذا الوطن آهلاً بالجواري الحسان ، وأراد من صورة الجواري أن يدلَّ على قوّة الإغراء في الوطن الذي استعار له صفة الأيدي الجواذب ، ثم صوَّر كيف أن قلبه متيمٌ بهذا

---

(١) حنت الإبل نزعت إلى أوطانها أو أولادها ، والناقة تحن في إثر ولدها ، حنيناً تطرب مع صوت ، انظر : اللِّسان ، مادة (حنن) .

(٢) ديوان ابن حمديس ، ص٣٣ .

(٣) النيب : جمع ناب ونيوب ، وهي الناقة المسنَّة ، انظر : اللِّسان ، مادة (نيب) .

(٤) المغاني : المنازل التي كان بها أهلوها ، واحدها مغنى ، وقيل المنزل الذي غني به أهله ثم ظعنوا عنه ، انظر : اللِّسان ، مادة (غني) .

(٥) الغواني : جمع غانية ، وهي الجارية الحسناء ، سميت غانية لأنها غنيت بحسنها عن الزينة ، انظر : اللِّسان ، مادة (غني) .

(٦) ثوى : أقام ، انظر : اللِّسان ، مادة (ثوا) .

(٧) أوبةً : رجوعاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (أوب) .

الوطن ، وأن جسده يتمنَّى الرجوع إليه ، في كنايةٍ عن شدَّة الحنين الذي شبهه بحنين النوقِ سابقاً .

ويكرر ابن حمديس الصُّورة السمعيَّة لحنين الإبل في سياق النزوع للوطن ، يقول[1] :

أحنُّ إلى أرضي التي في ترابها ... مفاصلُ من أهلي بلينَ وأعظمُ
كما حنَّ في قيد الدُّجى بمضلَّةٍ ... إلى وطنٍ عَوْدٌ[2] من الشوقِ يرزمُ[3]
وقد صفرت[4] كفَّايَ من ريِّق[5] الصِّبا ... ومني ملآنٌ بذكر الصِّبا فمُ

فصوَّر ابن حمديس شوقه لوطنه ـ صوتيًّا ـ بذكره الحنين الذي قال إنه لوطن فيه قبورُ من يحبُّ ، وفيه دلالةٌ على عمق هذا الحنين وشدَّة تلبُّس الشعر الصوتَ البدويَّ في صورة الإبل التي تحنّ إلى أعطانها ، وتنزع إلى موطنها فقد قيل ((أكرم الإبل أحنُّها إلى أعطانها)) [6] ، ولذلك ارتبط الحنين بالتراب والوطن ، ارتباطه بالحبيب والابن ، والزمن الماضي وغيره ، لأن في صورة الصوت البدويِّ للإبل تكمن رموز الحنين ، والشوق ، والوجد ، ولذلك كانت الإبل لا تدعُ الحنين ، كما أن العربي لم يدعه في الشعر ـ بدويًّا كان أم حضريًّا[7] ـ ولذلك شبَّه ابن حمديس نفسه في هذا الوجد والشوق بجملٍ مسنٍّ

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص٤١٦ .

(٢) العود : الجمل المسن وفيه بقية ، انظر : اللِّسان ، مادة (عود) .

(٣) الرزم : ضربٌ من حنين الناقة على ولدها حين ترأمه ، وقيل هو دون الحنين ، والحنين أشدّ من الرزمة ، وأرزمت الناقة : صوتٌ تخرجه من حلقها لا تفصح به فاها ، وأرزمت أي صوَّتت ، انظر : اللِّسان ، مادة (رزم) .

(٤) صفرت : خلت ، انظر : اللِّسان ، مادة (صفر) .

(٥) ريِّق الشباب : أوَّله ، انظر : اللِّسان ، مادة (روق) .

(٦) مجموعة الرسائل ، رسالة الأوطان والبلدان ، الجاحظ ، ص١٠٢ .

(٧) قال رسول الله ﷺ «لاتدعُ العربُ الشعرَ حتى تدعُ الإبلُ الحنينَ» المحدِّث السبكى الإبن طبقات الشافعية الكبرى ، ٣٣٨/٦
انظر العمدة ، ابن رشيق ، ٣٠/١ .

(عود) في فلاةٍ واسعةٍ ، وظلام ليلٍ ، ذكر موطنه فأرزم ، وهو ضربٌ من حنين الناقة إلى ولدها ، وصوتٌ تخرجه من حلقها لا تفتح به فاها ، وربط الصُّورة البدويَّة للجمل المسن بظلام وفلاة ، لأنه أراد صورة الحال التي هو عليها من وحشة بعيداً عن وطنه ، وجعل الجمل مسنًّا لأنه أدعى لشدَّة التوجُّع على الماضي ، ولأنه رأى فيه نفسه التي ذهب عنها الشَّباب ، فكنَّى عن تولِّيه بقوله (صفرت كفَّاي من ريِّق الصِّبا) ، والمسنُّ عندما يكبر يذكر الماضي ويحدِّث عنه ويخبر ، وكنّى عن ذلك ابن حمديس بقوله إنَّ فمه ملآن به .

والسِّياق الذي صوَّر فيه ابن حمديس شدَّة الشوق لموطنٍ وأهل ، كان الصَّوت فيه غالباً ، فقد شبَّه حنينه إلى وطنه ونزوعه له بحنين الإبل وإرزامها ، كما دل على كثرة الحديث عن الصِّبا وأيَّامه بصورة الفم الملآن .

وتأتي هذه الصُّورة السمعيَّة في الحنين للوطن عند لسان الدين بن الخطيب الذي يقول[1] :

كلفُ[2] الجَنَانِ[3] إذا جرى ذكرُ الحمى والبانِ[4] حنَّ لهُ حنينَ النِّيبِ

فأسند إلى قلبه صفة الولوع وشدَّة التعلُّق بالحمى والبان ، وذكر الحمى والبان لأنهما من رموز البادية التي تحمل إيحاءاتٍ بدويَّةٍ حنينية ، زاد في بداوة الصورة عنده تشبيه هذا الحنين بحنين الإبل المسنَّة وصوتها في أثر ولدها ، وقد يكون ابن الخطيب قد رمز بالحمى والبان إلى ذكرى سلفت وشباب تولَّى وغيره ، فهو يقول بعد ذلك (رحل الصِّبا) [5] ، فذكر الحنين لأنه أراد صوت التوجُّع لفقد الماضي من الأيَّام والملذَّات .

---

(١) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ١٢٨/١ .

(٢) كلف : كلف بالشيء لهج به وأولع به ، انظر : اللِّسان ، مادة (كلف) .

(٣) الجنان : القلب لاستتاره في الصَّدر ، انظر : اللِّسان ، مادة (جنن) .

(٤) البان : ضربٌ من الشجر ، انظر : اللِّسان ، مادة (بون) .

(٥) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ١٢٨/١ .

ومن الصُّور السمعيَّة التي ذكر فيها الحنين في سياقٍ آخر ، قول ابن حمديس يرثي عمته[1] :

أهاتفةً بـاسمي عليَّ تعطُّفاً ... حنينَ عطوفٍ شقَّ[2] سامعتي سقبِ[3]

فشبَّه نداءها له متعطِّفةً بصوتِ حنينِ ناقةٍ عطوفٍ على ولدها ، ولم يذكر النداء والصوت فقط ، وإنما أضاف ما أراده في الصُّورة من دلالة الحنان في قوله (عليَّ) و (تعطُّفاً) ، وقال (حنين عطوف) لما في صوت الحنين من نزعٍ واشتياق ، زاد في معاني الرِّقة والرَّحمة .

وفي صورةٍ سمعيةٍ أُخرى ، يأتي لسان الدين بن الخطيب بصوت الحادي إضافةً للحنين في سياقٍ ديني يقول فيه[4] :

ويتبعُ آثارَ المطيِّ مشيِّعاً ... وقد زمزمَ[5] الحادي وحنَّ نجيبُ[6]

إذا أثرُ الأخفافِ[7] لاحتْ محاربـاً[8] ... يخرُّ عليها[9] راكعاً وينيبُ

فذكر ابن الخطيب توديعه الرَّكب الحجازيّ وقت الرحيل الذي صوَّره صوتيًّا ، ودلَّ عليه بزمزمة الحادي ، وهو صوتٌ لا يُفهم منه شيء ، وإنما يعطي معنى الاستنفار للرحلة ، وجَعَل الشاعر الإبلَ تجاوبُ الحادي في ذلك بصوت الحنين ، وهذه الصُّورة الصوتية فيها دلالة الاستعداد للمسير والعزم

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص٣٦.

(٢) شقّ : صدع ، انظر : اللِّسان ، مادة (شقق).

(٣) السقب : ولد الناقة ، انظر : اللِّسان ، مادة (سقب).

(٤) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ١٥٧/١ .

(٥) الزمزمة : صوت خفيٌّ لا يكاد يفهم ، انظر : اللِّسان ، مادة (زمم) .

(٦) النجيب : الكريم العتيق من الإبل ، انظر : اللِّسان ، مادة (نجب) .

(٧) الخف : خف البعير ، انظر : اللِّسان ، مادة (خفف) .

(٨) محارباً : جمع محراب وهو صدر المسجد ، وأشرف موضع فيه ، انظر : اللِّسان ، مادة(حرب) .

(٩) يخرُّ عليها : يسقط عليها ، انظر : اللِّسان ، مادة (خرر) .

على الارتحال ، وهو عزم قويٌّ اختار له من الإبل النجيبةَ الكريمةَ ، لأنَّها تقصد الديار الحجازيَّة ، ثم أردف ذلك بصورة بصريَّة يتبع فيها الشاعر آثار مواطئ الإبل ويجعلها محراباً يركعُ فيه ويسجد ، في دلالةٍ على الشعور الإيماني القويِّ الظاهر في تمثُّل مواطئ الإبل مكاناً روحياً لأنَّها تقصد الزيارة النبويَّة .

ومن الصُّور السمعيَّة ـ أيضاً ـ قول ابن حمديس[1]:

من كـلِّ داميـة الأخفـافِ مرقلـةٍ[2] ترتاعُ من صوتِ حادٍ خلفها شـرسِ[3]
مستوحشٍ[4] من كـلام الإنـسِ تؤنسُـهُ من جُوَّعٍ من ذئاب المهمـهِ الطُّلـسِ[5]

وابن حمديس أراد أن يفخر بنفسِهِ ونشاطِهِ وهمَّته وقدرته على خوضِ المهالك ، فجاء بصورة الإبل وإرقالها ، ونسب إلى ذاته الشراسةَ في حدائها ، لأنه يُصوِّت فترتاع أي تفزع وتفرق لسوءِ خُلُقِهِ في معاملتها ، وأراد بذلك حرصه على غذِّ السَّير ، فعمد إلى تخويفه الإبل منه لتزيد فيه ، ثمَّ جاء بصورة أُخرى فيها دلالة ثانيةٌ على الشراسة ، فذكر أنه يستوحش من الإنس وحديثهم ، ويألف الوحش بل الذئاب الطُّلس الجائعة منها .

وأراد بهاتين الصورتين أن يدلَّ على قوّته وشجاعته وبأسه فجاء بصورةٍ صوتيَّةٍ لحادٍ شرسٍ ذي صوتٍ مروِّع ، يألف أصواتَ الوحش دون كلام النَّاس .

وهي صورة مختلفةٌ عن صورة الحادي الصوتيَّةِ في قول ابن الخطيب[6]:

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص٢٨٥ .

(٢) مرقلةٍ : الإرقال ضربٌ من الخبب ، وهو سرعة سير الإبل ، انظر : اللِّسان ، مادة (رقل).

(٣) شرس : سيئ الخلق ، انظر : اللِّسان ، مادة (شرس) .

(٤) مستوحش : لا يستأنس بالنَّاس ، ويستوحش عنهم ، انظر : اللِّسان ، مادة (وحش).

(٥) ذئب أطلس : في لونه غبرةٌ إلى السواد ، انظر : اللِّسان ، مادة (طلس) .

(٦) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٥٤٧/٢ .

فيـــا مـــن رآني والحـــداةُ مرنَّـــةٌ[1] بشعري إذا ما زمزمَ[2]القومُ أو زمَّـــوا[3]
تـــخـــبُّ برحلي كلُّ شـــاكيةِ الـــوجَى هي القوسُ ترمي الرُّكنَ راكبُهـــا ســـهمُ

والسِّياق في المدح النبوي ، وفيه فخرٌ بالذات ، لأنه ذكر الإرنان بشعره في الحُداء ، ممَّا اختلفت به الصُّورة السمعيَّة عنها عند ابن حمديس التي كانت تحمل دلالة النُّفور من الناس لعزوفه عن كلامهم ، ودلالة العزم والمضاء لصياحه على إبله في الحداء ، لأنَّ السِّياق سياق فخرٍ بقوّةٍ وشجاعة .

أما ابن الخطيب فالسياق عنده سياق مدح نبويٍّ ، وصفَ فيه ساعة الرحيل والتأهُّب والاستعداد للرحلة الحجازيَّة بشوقٍ وعزمٍ ، دلَّ على أنه وقت رحيل الصورة السمعيَّة في قوله (زمزم القوم أو زمّوا) لأنَّ الـزمـزمـة صـوت خـفـيٌّ لا يفهم ،وأراد به اختلاط أصوات المرتحلين بالرواحل وقت الاستعداد للمسير حتّى لم يتبين فيها كلام ، ثم جانس بين هذا اللفظ الصَّوتيّ وقوله (زمَّوا) أي شدّوا الأزمَّة على الإبل لقيادتها وتوجيهها في الرِّحلة .

وقد أضاف إلى ذلك صوت الإرنان بالحداء ، وهو صوتٌ شجيٌّ فيه تطريب للإبل ،والإبل إذا سمعت صوت الحادي وأعجبها حثَّت السير وأسرعت ، فذكر ذلك لأنها زيارة للرسول ﷺ ، وضمَّ إليه فخراً بنفسه لأن الحداء كان بشعره ، ثم ذكر في البيت التالي كيف أنه كان يغذُّ السّير بهذه الإبل حتى اشتكت من أخفافها ، وشبَّهها بالقوس التي تُرمى ، وشبَّه نفسه بالسهم الرامي لها ، في دلالةٍ على إغذاذها وإرقالها ، وإتعابها بالسير حتّى تصل (الرّكن) وهو مكان الطواف في البيت الحرام بالديار الحجازيّة .

---

(١) مرنّة : الرنّة الصيحة الحزينة ، والرنين الصّوت الحزين عند البكاء ، والرنين الصّوت الشجيّ ، انظر : اللّسان ، مادة (رنن).

(٢) الزمزمة : صوتٌ خفيٌّ لا يكادُ يُفهم ، انظر : اللّسان ، مادة (زمم).

(٣) زمَّوا : علّقوا الأزمَّة على الإبل ليقودوها بها ، انظر : اللّسان ، مادة (زمم).

ومن الصُّور السمعيَّة الأخرى ، ما جرى تمثيله في الشعر الأندلسي من أصواتِ بعض الوحش ،ومنه قول ابن حمديس يصف قوماً صحبهم[1]:

صحبتهُم في موحشِ الأرضِ مقفراً به الذئبُ يعوي والغزالةُ تبغمُ

فابن حمديس يلحُّ على صورة الشجاعة والبأس بذكر التوحُّش في القفار ، ويستلهم في هذه الصُّورة صوت الوحش بنوعيه : المفترس والأليف ، للدلالة على البسالة والقدرة على قطع القفار الموحشةِ المهلكة المخيفة ، فذكر عواء الذئب وهو صوت يمدُّه[2] ، وبغام الغزالة ، وهو صياحها إلى ولدها بأرخم ما يكون صوتها[3] ، وفي الصوتين وصورتيهما تطابقٌ ، لعلَّهُ أراد به نقل الصُّورة الحقيقيَّة لصحراء فيها الذئاب والظباء ، أو لعلَّهُ أراد أنه قد يمرُّ لهم فيها أيَّام أنسٍ كنَّى عنها بذكر صوت الظباء الرَّخيم ، وأيَّام شدَّةٍ كنَّى عنها بذكر صوت عواء الذئب المخيف .

وفي صوت الظبيةِ يقول ابن هانئ[4] :

وبيضةِ خدرٍ تجترُّ الذيولَ كما أتلعَ[5] الخشفُ[6] لما بَغَمْ[7]

ابن هانئ يصوِّر هنا فتاةً جميلةً مصونةً قال إنَّها بيضة خدر ، وكانت النساء تُشبَّه ببيضِ النعام لصفائِهِ ولونه المشرب ، ولذلك قال امرئ القيس (وبيضة

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص٤١٢ .

(٢) انظر : اللِّسان ، مادة (عوي) .

(٣) انظر : اللِّسان ، مادة (بغم) .

(٤) ديوان ابن هانئ ، ص٣٣٠ .

(٥) أتلع : مدّ عنقه ، انظر : اللِّسان ، مادة (تلع) .

(٦) الخشف : الظبي بعد أن يكون جداية ، وقيل هو خشفُ أول ما يولد ، انظر : اللِّسان ، مادة (خشف) .

(٧) بغم : البغام صوت الظبية إذا صاحت إلى ولدها بأرخم ما يكون من صوتها ، والمبغوم الولد ، وأمه تبغمه أي تدعوه ، وامرأة مبغوم : رخيمة الصوت ، انظر : اللِّسان ، مادة (بغم) .

خدر)[1] ، وذكر ابن هانئ الخدر لأنه أراد فتاةً مستورةً لازمةً خدرها ، وجمع إلى هذه الصُّورة الدلال والأنوثة في قوله (تجرُّ الذيول) وفي تشبيهه لها بالخشف وهو ولدُ الظبية الذي يمدُّ عنقه ويبغم أي ينادي أمَّه ، وهو صوتٌ رخيم ، يشبِّه به صوت المرأةِ كثيراً ، لما فيه من دلالاتِ الوداعةِ والحاجة والدلال ، وهي معانٍ أكَّدها بإضافته إلى الخشف ، والتفت فيها إلى جمال العنق في لفظة (أتلع) ، وفيها حركة مدِّ العنق وإظهاره ، وهي حركة أراد ما وراءها من جمالٍ حالَ خروج الصوتِ والنداء .

ومن الصُّور السمعيَّة البدويَّة ما تداخل فيه وصف السَّحاب والمطر ، مع صوتِ الرَّعد ، ورغاء الإبل ، ومنه قول ابن خفاجة[2] :

وبكـلِّ مرقبـةٍ[3] مَنـاخٍ[4] غمامـةٍ مثلُ الضَّريبِ[5] بـها مُجَاجَ[6] لُغـامِ[7]
رعدتْ[8] فرجَّعتْ[9] الرُّغـاءَ[10] مطيَّـةٌ لم تدرِ غـيرَ الـبرقِ خفـقَ[11] زمـامِ

---

(١) شرح المعلقات السبع ، الزوزني ، ص٢٤ .

(٢) ديوان ابن خفاجة ، ص٨٤ .

(٣) المرقبة : الموضع المشرف ، انظر : اللِّسان ، مادة (رقب) .

(٤) المناخ : المبرك والموضع الذي تناخ فيه الإبل ، انظر : اللِّسان ، مادة (نوخ) .

(٥) الضريب : من اللبن الذي يُحلَبُ من عدّة لقاحٍ في إناءٍ واحدٍ ، فيضرب بعضه ببعض ، ولا يكون ضريباً إلاَّ من عدّة من الإبل ، انظر : اللِّسان ، مادة (ضرب) .

(٦) مجاج : مجاج المزن مطره ، يقال للمطر مجاج المزن ، انظر : اللِّسان ، مادة (مجج).

(٧) لغام البعير : زبده ، واللغام زبدُ أفواه الإبل ، انظر : اللِّسان ، مادة (لغم) .

(٨) رعدت : رعدت السماء صوَّتت للإمطار والرعد الصوت الذي يسمع من السحاب ، انظر : اللِّسان ، مادة (رعد) .

(٩) رجعت : رددت ، انظر : اللِّسان ، مادة (رجع) .

(١٠) الرُّغاء : صوت ذوات الخفّ ، والرُّغاء صوت الإبل ، رغا البعير والناقة صوّت وضج ، انظر : اللِّسان ، مادة (رغا) .

(١١) خفق : اضطراب ، انظر : اللِّسان ، مادة (خفق) .

أوحتْ[1] هنـــاك إلى الـــرُّبى أن بشِّـــري بـــالرَّي فـــرعَ أراكـــةٍ[2] وبشـــام[3]
وكفى بلمحِ الـــبرقِ غمـــزةَ[4] حاجـــبٍ وبصـــوتِ ذاكَ الرَّعـــدِ رجـــعَ كـــلامِ

والصُّورة صوتيَّة ، جمع إليها ابن خفاجة البصر في الخيال الشعري الذي جنح فيه إلى تشخيص الطبيعةِ كعادته ـ غالباً ـ فهو في البيت الأوَّل يصوِّر غمامةً مرتفعةً عاليةً شبه ارتفاعها باعتلاء مرقبةٍ رفيعةٍ مما كان من عادات البدو ، ثمَّ شبَّه هذه الغمامة بالنُّوق التي كان ضريبها وهو لبنها المجتمع مجاج لغام ، فشبَّه ما تمجُّه الناقة من فمها وهو الزَّبد ، بما تصبُّه السحابة من ماء المطر ، ويسمّى أيضاً (مجاج المزن) ، ثمَّ عمد إلى التصوير الصَّوتي ، فبعد أن شبَّه الغمامة بالإبل ، ذكر أن أصوات الرَّعد فيها تتكاثر وتتجاوب ، حتَّى كأنَّها نوقٌ ترجِّع الصَّوت بالرُّغاء ، وشبَّه البرق الذي يتألَّقُ في هذه السحب بالزمام ، في تشبيتٍ لصورة الناقة في المزن .

وفي تصويت السحابة بالرَّعد ، ولمعان البرق فيها دلالةٌ قويَّة على انهمال المطر ، ولذلك ذكر ابن خفاجة أنَّها بهذه الإشارة الضوئية ، ألهمت الرُّبى أن تبشِّر الأراك ، والبشام وهو من نبات البادية بهطول المطر ، ثمَّ عاد فصوَّر هذه الإشارة ، وهي لمع البرق الذي استعار له تحريك الحاجب ، وجعل صوت الرَّعد الذي استعار له الإفصاح والكلام يجاوبه في مطابقةٍ بين الوحي والصَّوت .

فاستعارَ ابن خفاجة للغمامة من الناقة الإناخة ، واللَّبن ، واللُّغام ، والرُّغاء ، وشخَّصها ، وجَعَلَهَا تشير إلى الرُّبى وتوحِي لها ، كمَا شخَّص البرقَ ، والرَّعد .

---

(١) أوحت : أشارت ، وألهمت ، والوحي الكلام الخفي ، انظر : اللِّسان ، مادة (دحي) .
(٢) أراكة : من شجر السواك يُستاك بفروعه ، وهي شجرة طويلة خضراء ناعمة كثيرة الورق والأغصان ، انظر : اللِّسان ، مادة (أرك) .
(٣) البشام : شجر طيب الريح والطعم يستاك به ، انظر : اللِّسان ، مادة (بشم) .
(٤) الغمزة : الإشارة بالعين والحاجب ، انظر : اللِّسان ، مادة (غمز) .

والصُّورة بصريَّة كان فيها الصَّوت غالباً على المشهد ، لأنَّ الغمامة رعدت أي صوَّتتْ ، ورجَّعتْ أي ردَّدت الصَّوت ، ورغتْ ، وهي مشابهةٌ في الصُّورة لهدير الإبل ، كما أوحت وهو إلهامٌ بدون صوت أو حديث بدون كلام ، ثمَّ تحدَّث عنها الرَّعد ، وهو صوتٌ قويٌّ هادر .

وصورة النُّوق في الغمام واللَّبن واللُّغام ، من الصُّور البدويَّة التي كثرت في الشعر القديم وكان فيها معاني الإرواءِ والإخصابِ والنماء ، وذلك بتخيُّل المرعى في السماء ، ومداخلةُ الصُّورةِ بينهما ، لما ينتج عن المطر من الخصب والإنبات الذي يكون سبباً لرعي السَّوام ، بما يؤدي إلى النمَّاء ، والوفرةِ ، والخير ، وهي صورة بدويَّة ربطت بين الرَّعي والسماء أو السَّبب والمسبِّب .

وكثر ترديد هذه الصُّورة بتشكيلاتها المختلفة في الشعر الأندلسيّ ، ومنه قول الأعمى التطيلي يصوِّر سحابة[1] :

سَرَت[2] ضخمةَ الأكنافِ[3] تامكة[4] الذُّرى[5] دلوحَ[6] السُّرى[7] تتلى[8] على ذاك أوتَتْلُو

---

(١) ديوان الأعمى التطيلي ، ص١٠٨ .

(٢) سرت : سارت ليلاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (سرا) .

(٣) الأكناف : النواحي ، انظر : اللِّسان ، مادة (كنف) .

(٤) تامكة : مرتفعة عالية ، والتامك السنام المرتفع ، انظر : اللِّسان ، مادة (تمك) .

(٥) الذُّرى : الأعالي ، جمع ذروة وهي أعلى السنام ، انظر : اللِّسان ، مادة (ذرا) .

(٦) دلوح : ناقة دلوح مثقلةٌ حملاً أو شحماً ، والسحابة تدلح في مسيرها من كثرة مائها ، وسحابة دلوح مثقلةٌ بالماء ، وكثيرة الماء ، انظر : اللِّسان ، مادة (دلح) .

(٧) السُّرا : الأعالي والظهر والوسط ، والسارية السحابة الممطرة التي تكون بالليل ، انظر : اللِّسان ، مادة (سرا) .

(٨) تتلى : تتبع وناقة متلية يتلوها ولدها أي يتبعها ، والمتلي التي يتلوها ولدها . قال الشاعر :

وكـــل شمـــالىّ كـــان ربابـــه متالي مهيب مـــن بـــني الســـيد أوردا

شبه السحاب بها ، وشبه صوت الرَّعد بحنين هذه المتالي ، انظر : اللِّسان ، مادة (تلا).

كـــأنَّ التمـــاعَ الـــبرقِ في جنباتِهـــا ... مصابيحُ[1] تُذكى[2] أو صـــوارمُ تُســـتلُ[3]

وقهقهةً[4] فيها الرَّعـــدُ مـــن كـــلِّ جانـــبٍ ... كما هَدَرتْ[5] في الهجمةِ[6] الفتقُ[7] البُـــزلُ[8]

أرنَّت[9] على ذي الأثلِ[10] غيرَ حليمةٍ[11] ... فهل عندها علمٌ بـــمـــا لقـــيَ الأثـــلُ

والصُّورة تجمع بين السُّحب والنُّوق ، لأنَّه شبَّه الغمامَ الضَّخم المرتفع العالي المثقلَ بالماءِ الكثيرِ المتتابع ، بالنُّوق العظيمةِ العالية الأسنمة الممتلئةُ بالشَّحم ، والتي تتتالى فتتبعُ ولدها ، أو يتبعها ولدها ، وهي صورةٌ بصريَّة جمع إليها لمعَ البرقِ في نواحيها الذي شبَّهه بإيقاد السُّرُجْ ، أو سلِّ السيوف الصَّوارم من أغمادها ، والتماعها ، وجاء بالمصابيح تُوقدُ بالليل وشبه بها البرق لأنه ذكر أن السحابة سَرَتْ ، والسحابةُ السَّاريةُ هي الممطرة باللَّيل ، ولذلك جاء بالمصابيح لأنَّها تُشْعَل في ذلك الوقت وهو الظلام .

---

(١) مصابيح : سرج ، انظر : اللِّسان ، مادة (صبح).

(٢) تذكى : تشعل وتوقد ، انظر : اللِّسان ، مادة (ذكا).

(٣) تُستل : تُسلُّ ، انظر : اللِّسان ، مادة (سلل).

(٤) قهقه : رجَّع في ضحكه ، وقيل هو اشتداد الضحك ، انظر : اللِّسان ، مادة (قهقه).

(٥) هدر البعير : صوَّت في غير شقشقةٍ ، انظر : اللِّسان ، مادة (هدر).

(٦) الهجمة : القطعة الضخمة من الإبل ، انظر : اللِّسان ، مادة (هجم).

(٧) الفتق : داءٌ يأخذ الناقة ما بين ضلوعها وسرتها من السمن ، انظر : اللِّسان ، مادة (فتق).

(٨) البزل : جمع بازل وهو البعير أو الناقة التي فطر نابها أي انشقّ ، انظر : اللِّسان ، مادة (بزل).

(٩) أرنَّت : صاحت بصوتٍ شجيّ ، والإرنان صوت الشهيق مع البكاء ، انظر : اللِّسان ، مادة (رنن).

(١٠) الأثل : شجرٌ ذو أصول غليظة ، تؤخذ منه الأبواب ، والقداح ، انظر : اللِّسان ، مادة (أثل).

(١١) غير حليمة : غير صبورة ، انظر : اللِّسان ، مادة (حلم) .

ثمَّ صوَّر المشهد صوتيًّا ، فاستعار للرَّعد صوت القهقهةِ والضَّحك ، وأراد بذلكَ شدَّته ، التي تعني كثرة الماء والمطر ، وشبَّه هذا الصَّوت العظيم بصوتِ هدرِ قطيعٍ من الإبل ، وجعلَه قطيعاً لأنه أراد صوتاً عالياً ، كما جعلها تشتكي الفتق وهو داءٌ يطرأ على السِّمان منها ، وأراد بهذه الصُّورة أن يدل على تفتُّقِ السحاب بالمطر لامتلائه به ، وناسب بين قوله (الفتق) وهو السُّمن في الإبل الذي شبَّه به سحباً مثقلةً مليئة بالماء ، وقوله (دلوح) سابقاً الذي يعني الثقل في الإبل والسحاب ، وأتبعَ هذه الصُّورة الصوتية للرَّعد ، بصورةٍ صوتيّةٍ لتساقط الماء ، وهطول المطر ، فاستعار للسحابةِ الإرنان ، وهو صوت بكاءٍ مع صياحٍ شجيٍّ ورنين ، واستعار للسحابة المرنة أيضاً صفة عدم الصَّبر فقال (غير حليمة) وهو أدعى لكثرة البكاء ، ممَّا دلَّ به على شدَّة انهمار المطر ، الذي شبهه بتدفق الدمع ، كما جعله على (ذي الأثل) وهو مكان بدويٌّ لأنه أراد الرمز الحنيني وراء ذكره ، وهو الرمز الذي يكمن أيضاً وراء الصَّوت البدويّ في الإرنان .

ومن الصُّور الصوتيَّة البدويَّة للسحب قول ابن حمديس[1] :

وريـــحٍ خفيفـــةِ رَوْح[2] النســـيمِ[3] أطَّـــتْ[4] بلـــيلٌ[5] وهبَّـــتْ[6] رُخـــاءَ[7]
ســـرتْ وحياهـــا[8] شـــقيقُ الحيـــاةِ علـــى ميِّـــتِ الأرض تُبكـــي السَّـــماءَ

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص٣ .
(٢) الروح : نسيم الهواء ، انظر : اللِّسان ، مادة (روح) .
(٣) النسيم : نفس الريح إذا كان ضعيفاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (نسم) .
(٤) أطَّتْ : الأطيط أصوات الإبل وحنينها ، وصوت الرحل وأحمالها ، انظر : اللِّسان ، مادة (أطط) .
(٥) ريحٌ بليلٌ : باردة مع مطر ، انظر : اللِّسان ، مادة (بلل) .
(٦) هبَّت : ثارت وهاجت ، انظر : اللِّسان ، مادة (هبب) .
(٧) رُخاء : ريحٌ رخاء ليِّنة سريعة لا تزعزع شيئاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (رخا) .
(٨) الحيا : المطر لإحيائه الأرض ، والمطر سبب الخصب ، انظر : اللِّسان ، مادة (حيا).

فمن صوتِ رعدٍ يسوقُ السَّحابَ كما يُسمع الفحلُ[1] شولاً[2] رُغاءَ[3]
وتشعلُ في جانبيها البروقُ بريقَ السيوف تُهَزُّ انتضاءَ

صوَّر ابن حمديس الريحَ العليلة الضعيفة فاستعار لها الأطيطَ من الإبل وهو صوتُ حنينها ، وذكر الحنين لأنَّه صوتٌ فيه ضعفٌ أراده للريح لوصف علَّتها ولينها ، ثمَّ ذكر المطر فقال : إن هذه الريح سرت به ، وجعله شقيق الحياة أي أخوها لأبيها وأمِّها ، لأنَّ حياة الأرض مرتبطةٌ به ارتباطاً وثيقاً ، فلا خصبَ دون مطر ، وهو ما أراده عندما جاء بصورة الرَّعي لإبلٍ تسوقُ نوقاً ، ويُسمع لها صوت رغاءٍ عالٍ ، شبه به صوت الرَّعدِ وصورته يسوقُ السحاب ، ثمَّ أردف الصُّورة الصَّوتيَّة بالبصريَّة في لمع البرق الذي شبَّهه بالسيوفِ المُشرعة .

فجمع ابن حمديس إلى صورة صوتِ الإبل في السُّحب ، صورة الصَّوت لها في الريح أيضاً ، وهو ما يدلُّ على أنَّ هذه الصُّورة البدويَّة للنوق وقطيعها كانت من مكوِّنات الخيالِ الشعري الأندلسيِّ ، الذي نظر للطبيعة نظر البدويِّ لها ، وصوَّر بالبصيرة ما صوَّره البصر في حياة البادية ، ومراعيها .

ومن هذه الصُّور السمعيَّة أيضاً ، قول ابن حمديس من قصيدة أُخرى[4]:

ثرَّ[5] الشآبيبِ[6] أصواتُ الرُّعودِ بهِ كأنهنَّ هديرُ الجلَّةِ[7] البُزُلِ[8]

فشبَّه أصوات الرَّعدِ في المطر المنهمر الكثير بأصواتِ الإبل والنوقِ البازلةِ المسنَّة .

---

(١) الفحل : البعير الكريم المنجب ، انظر : اللِّسان ، مادة (فحل).
(٢) شولاً : الشول من النوق التي خف لبنها وارتفع ضرعها ، انظر : اللِّسان ، مادة (شول).
(٣) الرُّغاء : صوت الإبل ، انظر : اللِّسان ، مادة (رغا) .
(٤) ديوان ابن حمديس ، ص٣٩٢ .
(٥) ثرَّ : السحابُ ثرّ أي كثير الماء ، انظر : اللِّسان ، مادة (ثرر) .
(٦) الشآبيب : الدفعات من المطر ، انظر : اللِّسان ، مادة (شأب) .
(٧) جلّةٍ : جلّت الناقة إذا أسنَّت ، وناقة جلالة أي ضخمة ، انظر : اللِّسان ، مادة (جلل).
(٨) البزل : جمع بازل وهو البعير أو الناقة التي فطر نابها أي انشقَّ ، انظر : اللِّسان ، مادة (بزل).

ومن الصُّور السمعيَّة البدويَّة في الشعر الأندلسيّ ما جاء في وصف الجيش الكثير ، ومنه قول ابن هانئ[1] :

أقْبَلْتَهُمْ[2] زَجِلَ[3] الأصواتِ ذا لجبٍ[4] فيه القنوسُ[5] كبيضاتِ[6] الأداحيِّ[7]

فابن هانئ جاء بمشهدِ حرب داخلته البداوة ، في ذكره الأدحية وهي بيضة النعامة ، والتي كثيراً ما تشبَّه بها الحديدة التي توضع على الرأس عند الحرب وهي الخوذة ، وأضاف لهذا التشبيه البدويّ ، الصُّورة السمعيَّة لجيشٍ عظيمٍ اختلطت فيه الأصوات وتعالت ، حتّى كانت زجلاً وجلبة ، وقال (أقبلتهم) أي قابلتهم بهذا الجيش العظيم الذي صفته أنَّه (زجل الأصوات) ، والصورة السمعيَّة للصِّياح والجلبة تدلُّ على اختلاطٍ وتدافع ناشئ عن كثرةٍ في العدد ، وهو ما أراده الشاعر من هذه الصُّورة .

ومن الصُّور السمعيَّة التي داخلتها البداوة ، وصف صوت خفق القلوب ، ووجيفها ، وهي صورةٌ أراد الشعراء بها الدلالة على قوّة العاطفة التي أدّت إلى ذلك ، ومنها قول ابن الصَّباغ الجذامي يصف رحلة نبويَّة ، وصفاً ذا ملامح عذريَّة ، يقول[8] :

إذا لمعتْ عندَ الأصيلِ بروقُ تذكَّر ذو وجدٍ وحنَّ مشوقُ

---

(١) ديوان ابن هانئ ، ص٣٨٢.

(٢) أقبلتهم : أقبله الشيء قابله به ، انظر : اللِّسان ، مادة (قبل).

(٣) الزجل : الجلبة ورفع الصَّوت ، انظر : اللِّسان ، مادة (زجل).

(٤) اللجب : الصوت والصياح والجلبة ، انظر : اللِّسان ، مادة (لجب).

(٥) القنوس : القونس أعلى البيضة من الحديد ومقدَّمها ، انظر : اللِّسان ، مادة (قنس).

(٦) البيضة : واحدة البيض من الحديد ومقدِّمتها ، انظر : اللِّسان ، مادة (بيض).

(٧) الأداحيّ : جمع أدحية وهي مبيض النعام في الرَّمل ، وموضعها الذي تفرخ فيه ، انظر : اللِّسان ، مادة (دحا).

(٨) ديوان الجذامي ، ص٣٠.

وإن صـــدحتْ ورقٌ بصـــرحةِ[1] أيكـــةٍ فاشـــواقُهُ تحـــدو بـــه وتشـــوقُ
يهيجهـــا ذكـــرُ العقيـــقِ إذا ســـرى وأيـــنَ مـــن الصَّـــبِ القصـــيِّ عقيـــقُ
إذا حـــرَّكَ الأظعـــانَ حـــادٍ بشـــدوهِ فقلـــبي لـــه نحـــو القبـــابِ خفـــوقُ

والصُّورة في مجملها سمعيَّة ، فيها إشاراتٌ حنينيةٌ رمزيَّة ، فالجذامي حمَّل صورة الحنين الصوتية دلالة الشوق للديار الحجازيَّة في قوله (وحنَّ مشوقُ) ثم أتبعها بسجعِ الحمامة التي ترفع الصَّوتَ بالتطريب وفيها أيضاً دلالة النزوع ، ثم أضاف إليها صوت الحادي الذي استعاره للأشواق التي يشتدُّ وجدها لذكر العقيق على البعد ، ثم صوَّر الأظعان وهي تتحرَّك تبعاً لغناء الحادي لها ، وسوقها بهذا الغناء ، الذي استثار صوتاً آخر وهو صوت خفق القلوب واضطرابها .

والصُّورة فيها توظيفٌ عذري للشوق للزيارة النبويَّة ، استلهم من رموز البادية : لمع البرق ، وغناء الحمام ، وحداء الشوق ، وذكر العقيقِ ، والأظعان ، والقباب ، وشحن الصُّورة صوتيًّا : بذكر الحنين ، وسجع الحمام ، والحداء ، وتحرُّك الأظعان ، وخفق القلوب .

ومن الصُّور السمعيَّة التي وظَّف فيها الشعراءُ غناء الحمام في النسيب البدوي ، قول ابن بقي القرطبي[2] :

وقـــالوا : ألا تبكـــي وتلـــكَ مطـــيُّهم على الشُّهبِ يـــحـــملنَ الأوانسَ كالدُّمى
أإن نفـــدتْ مـــني الـــدموعُ تغـــامزوا وقالوا سَلاَ ، أولم يكـــن قبـــلُ مُغْرَمَـــا؟
فهـــلاَّ أقـــامُوا كالبكـــاءِ تنهُّـــدي إذا ما بكـــى القمـــريُّ قـــالوا ترنَّمـــا!

فصوَّر ابن بقي المطايا وقد سرت ، وجعلها على الشُّهب ، وهي النجوم[3] في كنايةٍ عن البعد ، والذهاب ، لأن الشهب تـأفـل وتـغـور ، وذكـر أن النـسـاء

---

(١) الصرَّحة : الساحة ، انظر : أساس البلاغة ، الزمخشري ، ١٢/٢، مادة (صرح).
(٢) خريدة القصر ، وجريدة العصر ، العماد الأصفهاني ، ١٣٧/١٧.
(٣) انظر : اللِّسان ، مادة (شهب) .

أو الأوانس فوقها كالدُّمى في تشبيهٍ أراد به ما وراء صورة الدُّمية من إتقان في الحسن ، وهو تشبيهٌ قديم في الشعر[1] ، ثم صوَّر بصريًّا حركة التغامز التي تكون من العواذل لنفاد دموعه ، التي أراد بها الدلالة على كثرة البكاءِ حتَّى جفَّت ، وجاء بصورةٍ سمعيَّة دلَّ بها على مواصلةِ هذا البكاء دون دمع في صوت التنهُّد وهو تردُّدُ النَّفَس في الصَّدر عالياً ، وشبَّه ذلك ببكاءِ القمريِّ الذي يقال عنه غناءٌ وترنّم وتطريب بالصَّوت[2].

وأراد بهذه الصُّورة السمعيَّة ، للبكاء ، والتنهُّد ، والترنُّم ، أن يدلَّ على شدَّة الوجدِ والكلف ، بمن ترحَّلت ، وهي صورةٌ عذريَّةٌ بدويَّة .

والحمامة من رموز الحنين والشوق البدويّ ، استلهم الشعراءُ غناءَها وتطريبها في كثيرٍ من السياقات ، التي تدلُّ على قوَّة النزوع إلى وطنٍ أو ذكرى أو حبيب . . . أو غيره ، ومن ذلك قول لسان الدين بن الخطيب ، يصوِّر صوت الحمام من خلال موقف الطلل[3] :

وقفنا على الأطـلالِ وهـي بلاقـعٌ[4] نساجلُ[5] فيهنَّ الحمامَ المرجِّعَا[6]
ولا جسمَ إلاَّ أن يـذوبَ صبابةً ولا قلْبَ إلاَّ أن يحنَّ ويزعَا

فصوَّر بكاءه على الطَّلل بصوتٍ شجيٍّ ، وجمع معه في هذا البكاء الحمامة التي ترجِّع الصوت وتردده ، وجعل هذا البكاء بينهما مساجلةً ، في دلالةٍ على

---

(١) يقول بشر بن أبي خازم :

الواهب البيضَ الكواعب كالدُّمى حوراً بأيديها المزاهر تعزفُ

ديوان بشر بن أبي خازم ، ص١٨٦ .

(٢) انظر : اللِّسان ، مادة (رنم) .

(٣) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٣٥٩/١ .

(٤) بلاقع : جمع بلقع وهو الخالي ، انظر : اللِّسان ، مادة (بلقع).

(٥) نساجل : نباري ، انظر : اللِّسان ، مادة (سجل) .

(٦) المرجِّعا : المردد صوت الغناء ، انظر : اللِّسان ، مادة (رجع) .

كثرتِهِ عنده ، لأن الحمامة دائمة السجع ورفع الصَّوت ، ثم أردف ذلك بصورة بصريَّةٍ لجسدٍ ذهب وذاب حبًّا ولوعة ، بسبب وجدِ قلب دائمِ الحنين والنزوع والشوق ، لأهل الطلل الذين أكثر البكاء عليهم .

فالحمامة رمزٌ حنيني للشوق والوجد ، ارتبطت في الشعر بصورة البكاء وترجيع الصَّوت ، فكثر وجودها في الشعر البدويّ القديم ، وغيره من الشعر ومنه الأندلسيّ ، لأنها كانت ـ ولا تزال ـ ذات دلالةٍ صوتيَّة على البكاء الحنيني وقوَّة الشجن .

والصوُّرة السمعيَّة البدويَّة كثيرة في الشعر الأندلسي ، ممَّا ضربنا أمثلةً له ، وجدنا فيها الصوت يثري الصُّورة ، ويخيِّلُها لنا صوتيًّا كما يخيلُّها بالبصر ، مما يمنح به هذا الخيالُ للشعر ، متعة حضور الحواسِّ وتمثُّلها .

الصُّورة الشميَّة :

وهي الصُّورة التي يشيع الشاعر في جوانبها رائحة تُدركُ بالشمِّ والأنف ، يمكن للمتلقي تخيلها ، وتمثُّلها عن طريق هذه الحاسَّة ، لأنَّ تصوير التنسُّم في الصُّورة ، يمنحها جمالاً يعطي الإحساس بالانتشاء ، وهو ما يزيدُ من إشراقها في النفس ، فالرائحة لها دورٌ كبيرٌ في التخيُّل .

ومن هذه الصُّور الشمية البدويَّة ما كانت متضمَّنةً نباتاتِ البادية ذات الرائحة العبقة ، من شيحٍ ، وعرار ، ورند ، وخزامى ، وغيرها ، وهي رائحةٌ احتفظت بها المخيلة الشعريَّة الأندلسيَّة ، عبر الموروث القديم ، ومن الأمثلة على ذلك قول ابن خفاجة من أبياتٍ يصوِّر فيها مكاناً أصابه المطر ، وذكر فيها من بيئة البادية (الرَّبع)[1] و (الأجرع)[2] ، ثم قال[3] :

(١،٢،٣) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٩١ .

وهفـــت[1] بتغريـــدٍ[2] هنالـــك أيكـــةٌ[3] خفّاقةٌ بـــمـــهـــبٍّ ريـــحِ عـــرار[4]

صوَّر ابن خفاجة اهتزاز وحركة الشجر الكثيف الملتفّ ، لتداخل النسائم بين أغصانه ، وما أدَّى له هذا التحرُّك من سطوعِ رائحةٍ طيبةٍ لنباتِ العرار البدويِّ ، واستعار للأيكةِ صفة التغريد ، وهو صوتُ التطريب بالغناء ، لأنه أراد وصف اهتزاز الأغصان بفعل الرياح ، وما يحدثه ذلك من صوتٍ وظهورِ لرائحة العرار ، فداخل في الصُّورة بين الحركة ، والسمع ، والبصر ، والشمّ .

ومن الصُّور الشميَّة لنباتِ العرار البدويّ ، قول لسان الدين بن الخطيب[5]:

أرتـــاحُ فيـــكَ للـــومِ لُـــوَّامي كمـــا يرتـــاحُ نـــجـــديٌّ لشـــمِّ عـــرارِ

والصُّورة تدلُّ على الارتباط الوثيق في المخيلة الشعريَّة الأندلسيَّة ، بين المكان والنبات البدوي (نجد) و(العرار) ودلالات الحنين ، والوجد ، والشوق ، ولذلك شبَّه ابن الخطيب ارتياحه للوم العذَّال ، بما دلَّ به على تمسكه بمن يحبُّ حتَّى أصبحَ اللوم فيه والعذل يريحه ، فيتحوَّل المكروه بفعل الحبِّ مرغوباً ، وشبَّه ذلك بارتياح النجديِّ لتشمُّم العرار من نباتِ أرضه وديارِه ، والصورة إضافةٌ لإشاعتها رائحة العرار النجديَّة ، تعطينا دلالاتٍ على عمق ارتباط الرمز البدوي لنجد أو نباتاتها ، بالحبِّ ، والوجد ، والهوى ، والحنين .

ومن النباتات البدويَّة (الخزامى) ، وفي رائحته يقول ابن خفاجة مصوِّراً ذكرياتِ مكانٍ ، وزمانٍ تقضَّى[6] :

---

(١) هفت : هبَّت وحرَّكت ، انظر : اللِّسان ، مادة (هفا) .

(٢) التغريد : التطريب في الصوت والغناء ، انظر : اللِّسان ، مادة (غرر) .

(٣) الأيكة : الشجر الكثير الملتف ، انظر : اللِّسان ، مادة (أيك) .

(٤) العرار : بهار البرّ ، وهو نبتٌ طيب الريح ، وقيل هو النرجس البري ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرر) .

(٥) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٣٦٧/١ .

(٦) ديوان ابن خفاجة ، ص٥٦ .

ومن لي بردُ الريح من أبــرقِ الحمــى[1] وريَّا[2] الخزامى[3] من أجارعِ[4] لَعْلَعَا[5]

والصُّور الشميَّة لنباتاتِ البادية مرتبطةٌ ـ غالباً ـ بالمكانِ البدويِّ ، للدلالةِ الرمزيَّة في رائحتها على الحنين لذكريات قديمةٍ في زمنٍ ماضٍ ومكان أوَّل ، فكان تصوير عبقها في الشعر ، يجعل الخيال يجمعها بالمكان البدويِّ القديم في كثير من السياقات التي تتضمَّن معنى الحنين ، ولذلك جاء ابن خفاجة بالاستفهام الذي أراد به تمنِّي رؤية البرق الذي يتألَّقُ من جهةِ الحمى ، وتنسُّم الريح المحمَّلَةِ برائحةِ الخزامى العطرة ، القادمة من ناحية أجارع لعلع .

ولذلك ارتبطت الرائحة بالرِّيح التي كثر ذكرها في الشعر البدويِّ العذريِّ لدلالاتها الرمزيَّة أيضاً على الذكريات والحنين ، ومنها ريح الصَّبا[6] ، والنَّعامى[7] ، من مثل قول ابن شهيد في صورة شميَّة[8] :

لعلَّ نسـيمَ الــريح تــأتي بــه الصَّـبا بنشرِ الخزامــى والكبــاءِ[9] المعبَّــقِ[10]

---

(١) أبرق الحمى : رؤية برق الحمى ، أبرقوا البرق رأوه ، انظر : اللِّسان ، مادة (برق).

(٢) الريَّا : الريح الطيبة ، وريا كل شيء طيب رائحته ، قال امرؤ القيس : (نسيم الصَّبا جاءت بريا القرنفل) ، انظر : اللِّسان ، مادة (روي).

(٣) الخزامى : نبتٌ طيب الريح ، قال أبو حنيفة : لم نجد من الزهر زهرة أطيب نفحةً من نفحة الخزامى ، انظر : اللِّسان ، مادة (خزم).

(٤) الأجارع : جمع أجرع ، وهي الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل ، انظر : اللِّسان ، مادة (جرع).

(٥) لعلع : موضع ، وقيل جبل ، انظر : اللِّسان ، مادة (لعع).

(٦) الصَّبا : ريح معروفة تقابل الدبور ، وهي تستقبل البيت ، قيل لأنها تحنُّ إلى البيت ، انظر : اللِّسان ، مادة (صبا).

(٧) النعامى : من أسماء ريح الجنوب ، من أبلِّ الرياح وأرطبها ، انظر : اللِّسان ، مادة (نعم).

(٨) ديوان ابن شهيد ، ص١٠٣.

(٩) الكباء : ضرب من العود يُتبخَّر به ، انظر : اللِّسان ، مادة (كبا).

(١٠) المعبَّق : الذي علق به الطِّيب ولصق ، انظر : اللِّسان ، مادة (عبق).

فتمنَّى ابن شهيد في سياق الحنين للمحبوبة التي قال في وداعها (بكى أسفاً للبين يوم التفرُّق)[1] أن يأتيَ نسيم ريح الصَّبا من الديار التي هي فيها برائحة الخزامى ، والعود الذي يُتبخَّر به ، فأضاف إلى الرائحة الطيبة في الزهر البريِّ البدويِّ ، رائحةَ الكباء الذي تتطيب به النساء ، وشخَّص الريح التي تحمل هذه الرائحة ، فتمنَّى زيارتها له ،وقد علق بها ولزق نشر الخزامى والكباء .

ومن نباتات البادية التي جرى ذكر رائحتها في الصُّور الشميَّة (الرَّند ، والعرار) ، وفيهما يقول ابن الأبَّار في سياق التشوق للصبا والشباب ، ممَّا ارتبط في دلالاتِ الحنين بالمكان البدويّ ونباتاته ، في قوله (يا حبَّذا نجدٌ وسالف عهده)[2] ، ثم قوله بعد ذلك[3] :

وصـــباً تحمَّـــلُ مـــن تضـــوُّعِ[4] رنـــدهِ وعـــرارهِ مـــا زادَ في وَصـــبِي بـــهِ

فقوله (صباً) معطوفٌ على (نجد) ، وجاء ذكرها في سياق التمنّي لعودة السالف من الأيام ، الذي كثيراً ما تأتي فيه (نجد) لرمزيتها الحنينيَّة ، إضافة للصَّبا ، والرند ، والعرار ، المرتبطة نسائمها ورائحتها أيضاً بالدلالات الحنينيَّة للمكان البدويِّ .

ولذلك يجري ـ غالباً ـ ذكر الأمكنةِ البدويَّة في الشِّعر الأندلسيّ مع صورة الرائحة وتخيُّل الإحساس بها ، في هذه السياقات الحنينية ومنها قول أبي بكر ابن طفيل[5] :

ألـــمَّـــتْ[6] وقد نامَ المشيحُ[7] وهوَّمَا[8] وأسْرَتْ[9] إلى وادي العقيقِ من الحمـــى

---

(١) ديوان ابن شهيد ، ص١٠٣ .

(٢،٣) ديوان ابن الأبَّار ، ص٨٢ .

(٤) تضوَّع : تضوّع الريح تفرُّقها وانتشارها وسطوعها ، انظر : اللِّسان ، مادة (ضوع).

(٥) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، المراكشي ، ص١٧٧.

(٦) ألمَّتْ : نزلت ، انظر : اللِّسان ، مادة (لمم).

(٧) المشيحُ : المعرض ، انظر : اللِّسان ، مادة (شيح).

(٨) هوَّما : التهويم ، النوم الخفيف ، انظر : اللِّسان ، مادة (هوم).

(٩) أسرتْ : سارت ليلاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (سرا).

وجرَّتْ على تُرْبِ الـمُـحـصَّبِ ذيلَها ... فما زالَ ذاكَ التُرب نـهـباً[1] مقسَّـما

تناولُـه أيـدي التجـارِ لطيمـةً[2] ... ويـحـمـلهُ الدَّاريُّ[3] أيَّانَ يَمَّمَـا[4]

ولـمَّـا رأتْ أن لا ظـلامَ يُجنُّهـا ... وأنَّ سُـرَاها فيـه لـن يتكتَّمَـا

نَضَتْ[5] عذبات[6] الرَّيط[7] عن حُرِّ وجههـا ... فابـدتْ محيَّـا يُـدهشُ المتوسِّـما[8]

وأبو بكر هنا يصوِّر زيارة طيف من يحبّ ، فذكر التهويم ، ثمَّ صوَّر سُرَا هذا الطيفِ من الأمكنةِ البدويَّة (العقيق) و (الحمى) ، وجعلها حينما سرت إليه بطيفها ، جرَّت ثوبها على رمل المحصَّب ، وهو مكان بدويٌّ أيضاً ، فأثَّرت فيه رائحتها حتَّى كان هـذا الثرى بعـدهـا غنيـمـةً يتقاسـمـهـا النَّاس ويتـنـاولـون ما يأخذونه من طيبها ، ويتداولونه بينهم ، ويحملونه معهم أينما حلُّوا ، ثمَّ بعد أن صوَّر رائحتها ، جاء بوصفٍ لإشراقِ وجهها ، وجعله يعزُّ على الكتمِ والخفاء ، ولذلك ألقت ونزعت عنها الملاءة الرقيقة التي غطَّته ، فأسفر هـذا الوجه وأشرق ، وأدهش الرائي ـ وهو الشاعر ـ بنوره ووضاءته .

والصُّورة ترتكز على تصوير الرائحة التي تبعث الإحساس بالانتشاءِ والمتعة ، لتخيُّلها ، فتحوِّلُ الترابَ مسكاً يتناهبُه النَّاس ، ويحملونه معهم ، وربط الشاعر هذه الرائحة بالأمكنة البدويَّة ، لأنه أراد تعميق الإحساس بالوهج الحنيني الدافئ في نفسه ، والسرور المنعش لذكر محبوبةٍ سرى خيالها ،

---

(١) نهباً : غنيمة ، انظر : اللِّسان ، مادة (نهب) .

(٢) اللطيمة : المسك ، وقيل وعاء المسك ، انظر : اللِّسان ، مادة (لطم) .

(٣) الدَّاريُّ : الغريب ، انظر : اللِّسان ، مادة (درأ) .

(٤) يمَّم : توجَّه وقصد ، انظر : اللِّسان ، مادة (يمم) .

(٥) نَضَتْ : ألقت ، ونزعت ، انظر : اللِّسان ، مادة (نضا) .

(٦) عذبات : جمع العذبة ، وهي طرف الشيء ، انظر : اللِّسان ، مادة (عذب) .

(٧) الريطة : الملاءة إذا كانت قطعة واحدة ، أو كل ثوبٍ لين دقيق ، انظر : اللِّسان ، مادة (ريط) .

(٨) المتوسِّما : المتفرِّس ، انظر : اللِّسان ، مادة (وسم) .

وعبقت أنفاسُها في روحه ، فتنسَّم رائحتها وتخيَّلها تُحوِّلُ الترابَ مسكاً بمجرَّدِ مرورها عليه ، وهي مبالغة منه في هذه الصورة الشميَّة .

والملاحظُ أن هذه الصور تأتي ـ غالباً ـ في سياقِ الحنين للوطن أو الحبيبِ أو ذكريات الشباب وغيرها ، لأنَّ تخيُّل الرائحة يساعدُ على استعادة اللحظاتِ المختزنةِ في ذاكرة الصورة ، واسترجاعها ، وإثارتها ، وذلك للعلاقة الوثيقة التي تربط حاسة الشمِّ بالعواطف ، فكثيراً ما تأتي الرائحة في الصُّور الشَميَّة مرتبطةً بسياق التشوُّق للمكان والحنين إليه ، ومن ذلك قول الرُّصافي يتشوَّقُ إلى بلنسية[1] :

خليليَّ ما للبيدِ قد عبقَتْ[2] نَشْرَا[3]؟ وما لرؤوسِ الرَّكب قد رنَّحتْ[4] سُكْرَا؟
هل المسكُ مفتوقاً[5] بمدرجةِ الصَّبَا[6]؟ أم القومُ أجروا من بلنسيةٍ ذكرا؟

فالرُّصافي يتشوَّقُ إلى مكانٍ أندلسيٍّ ، فيذكر البيدَ ، والرَّكب ، والصَّبَا ، والتشوُّق لديارٍ قريبةٍ يظهر في الصُّورة الشعريَّة الأندلسيَّة ـ غالباً ـ من خلال الرموز البدويَّة القديمة البعيدة ، ولذلك نجد الصُّورة عند ذكر النزوع للوطن والديار ، تنجرف باتجاه المكان البدوي وتنصرف إليه ، لدلالته الرمزيَّة القويَّة على الحنين ، ولذلك تختلط نجد بقرطبة ، أو بلنسية بالحجاز ، لما في الحجاز ونجد ـ وغيرها من أماكن البادية ـ من عناصر إيحائية قويَّة الدلالة على التشوُّق والنزوع الجارف ، والرُّصافي هنا يوظِّف حاسَّة الشمِّ في الصُّورة ، فيتساءل عن طريق التقرير عن سبب الرائحة العبقة التي انتشرت وعمَّت البيد؟!.

---

(١) ديوان الرُّصافي ، ص٦٧ .
(٢) عبقت : عبقت الرائحة في الشيء بقيت ولصقت ، انظر : اللِّسان ، مادة (عبق) .
(٣) النشر : الريح الطيبة ، انظر : اللِّسان ، مادة (نشر) .
(٤) رنَّحت : تمايلت من السكر وغيره ، انظر : اللِّسان ، مادة (رنح) .
(٥) مفتوقاً : فتق المسك بغيره استخرج رائحته بشيء تُدخله عليه ، الفتاقُ : أن تفتق المسك بالعنبر ، انظر : اللِّسان ، مادة (فتق) .
(٦) مدرجة الصَّبا : ممرُّها ، ومسلكها ، انظر : اللِّسان ، مادة (درج) .

وسببُ ترنُّح الرؤوسِ وميلانها من السُّكْر؟! وهو السؤال الذي أجاب عنه باستفهام آخر ، أبان به عن حنينه لبلده ، وصوَّر هذا الحنين شميًّا ، فذكر أن هذه الرائحة قد يكون مصدرها المسك الذي فُتِقَ ، وخُلِط برائحةٍ أُخرى لينتشر فملأ الجوَّ على مدارج الصَّبَا وممرَّاتها؟! أم أنَّ السَّبب يرجع إلى ذكر بلنسية؟!

وقصد الرُّصافي ؛ الثَّاني من الأسباب ، وملأ الصُّورة بالرَّائحة العطرة لأنَّه أراد مكاناً غالياً عزيزاً على نفسه ، أحدثَ ذكره في النُّفوس انتشاءً ومتْعَةً ، تشبه ما تحدثه الرائحة العطرة الزكيَّة النَّفاذة ، لمسكٍ انتشر في البيد وعمَّتْ نسائمه الصَّبَا ، وأراد بذلك المبالغة في وصف انتشاء النفس واستمتاعها بذكر المكان ، فأسبغ ـ من خلال الرائحة ـ هذه المتعة على الجوِّ المحيط ، والمكان الفسيح الممتدّ ، الذي جعله بدويًّا ، لأنَّه يدرك ما وراء صورة الرَّوائح الطيبةِ من زيادة الشُّعور بالسعادة ، والسُّرور ، ويدرك أيضاً أن ارتباطها في الصُّورة بالبادية يزيدها حنيناً ودفئاً .

ولذلك قال في القصيدة[1] :

أكلُّ مكـانٍ كـانَ في الأرضِ مسـقطاً ... لرأسِ الفتى يهواهُ مـا عـاشَ مضـطَرا

ولا مثلَ مدحوٍّ[2] مـن المسـكِ تربـةً ... تـمـلّـي الصَّبا فيها حقيبتَهـا عِطْـرا

وهو في هذه الصُّورة يشخِّصُ الصَّبَا ، ويجعلها تملأ الحقائب بالمسك من الأرض بدل التُّراب ، فزاد من صورة الانتشار والامتلاء للرائحة العبقةِ التي أراد بها ذكر وطن عزيز ، جعل تربتهُ مبسوطة بالمسك ، وأجرى عليه ريح الصَّبا البدوية العليلة ، لما في الصَّبا من دلالات العذريَّة والهوى والتشوُّق التي جعلها للديار .

ويكرِّر الشاعر إشاعة الإحساسِ بالانتشاء لذكر المكان في الصُّورة من خلال الرائحة في موضع آخر من القصيدة ، فيقول[3] :

---

(١) ديوان الرُّصافي ، ص٦٩ .

(٢) الدَّحو : البسط ، انظر : اللِّسان ، مادة (دحا) .

(٣) ديوان الرصافي ، ص٧٤ .

وكم بالنَّقا[1] من روضةٍ مـر جحنَّـةٍ[2] تضمَّخُ[3] أنفاسُ الرياحِ بِهـا نَشْـرا[4]

فهو يذكر الرَّائحة ، ويربطها بالنَّقا ـ للدلالة البدويَّة الحنينيَّة التي يشي بها ذكر النَّقا ـ ويستعير للروضة صفة الاهتزاز والتمايل وأراد بها امتلاء هذه الروضة بالزهر والورد ، مما يجعل الرياح تتلطَّخ بالطيب منها ، في استعارة أُخرى لهذه الصِّفة .

وأراد بهذه الصورة صفة الانتشار والشيوع لرائحةٍ جميلةٍ قويَّةٍ نفَّاذة لمكان أندلسي حنَّ له فرمز له بالنَّقا ، وأحدث ذكره في القلب متعةً تضاهي متعة تنشُّق الروائح الذكيَّة العطرة .

ومن هذه الصُّورة التي وظَّفت فيها حاسَّة الشمّ ، ما ذكره الشعراء في سياقِ تبليغ السلام ، وسؤال الرِّياح ، ومنه قول ابن زُمْرُك[5]:

أدَّ عنِّـي لـروضِ نـجـدٍ سَـلامًا يُخْجِـلُ المسـكَ طيبـهُ فافتضـاحِ[6]

فشبَّه الشاعر السلام الذي بعث به لروض نجدٍ بالمسك ، وجعله أقوى منه رائحةً وأعبق ، لأنَّه قال (يُخجل) و (بافتضاح) ، وهما لفظان دلَّ بهما على أنَّ هذا السلام كان أكثر طيباً من المسك ، كما شخَّص بهما هذا المسك .

وقد تأتي الصُّورة الشميَّة للسلام المطيَّب ، في سياق الترحُّم على زمن وفاءٍ مضى ، وعهدِ صداقةٍ تقضَّتْ ، ومنه قول ابن خفاجة يعاتب : (سلامٌ على عهدِ الوفاء مودِّعاً) [7] ، وفيه يقول[8] :

---

(١) النقا : القطعة المحدودبة من الرمل ، انظر : اللِّسان ، مادة (نقا) .

(٢) مرجحنَّة : تهتز متمايلة مليئة ، انظر : اللِّسان ، مادة (رجح) .

(٣) تضمخ : الضمخ لطخ الجسد بالطيب حتى كأنما يقطر ، انظر : اللِّسان ، مادة (ضمخ) .

(٤) النشر : الريح الطيبة ، انظر : اللِّسان ، مادة (نشر) .

(٥) ديوان ابن زُمرُك ، ص٢٧٨ .

(٦) بافتضاح : انكشاف ، وتشهير ، انظر : اللِّسان ، مادة (فضح) .

(٧،٨) ديوان ابن خفاجة ، ص٧٣ .

وقد كان يَسْرِي والتنائفُ[1] بينَنَا فتندى به ريحٌ وينفحُ[2] طيبُ

فالشاعر يُلقي السَّلام على الماضي الآفل الذي كان الودُّ فيه قائماً ، وكانت التحيَّات تصلُ على البعد مطيَّبةً نديَّة لنقاءِ النفوس ، وصفائها ، أما وقد تغيَّرت هذه النفوس ، فقد أصبح السلام وداعاً لذلك العهد الجميل .

وصورة الرائحة الطيبة وتنسُّمها تأتي ـ غالباً ـ في سياقِ الوجدِ والحب والهوى والحنين ، وغيرها من لواعج النفس التي تنزع إلى ما تحب وتهوى ، ومن ذلك قول أحمد بن فرج الجيَّاني[3] :

وربَّتَ ريحٍ امتزجتْ بنفسي مزاجَ الرَّاحِ[4] بالماء الزُّلالِ[5]
وجدتُ بها وبي للشَّوقِ ما بي كما وجدَ المهجَّرُ[6] بالظِّلالِ
وبات ثَرى العقيقِ ينمُّ[7] منها إليَّ بمثلِ أنفاسِ الغوالِي[8]

فشبَّه الجياني امتزاج الريح بنفسه وأثرها في قلبه ، وما أحدثته من انتشاءٍ ومتعة ، بامتزاج الخمر بالماء البارد الصافي ، وجلوسِ السائر في الهاجرة في ظلٍّ من الشمس ، وقرن الظلَّ بالهاجرة لأنَّه أراد عُمق الإحساس بنعيمِ الظلِّ ومتعته ، وشخَّص تربة العقيق ، وجعلها تحدِّث وتنشر الحديث عن هذه الريح ، وجعل حديثها الرائحةَ الساطعةَ المنتشرة ، التي تشبه رائحة الغوالي ، وهي أخلاطٌ من الطيب .

---

(١) التنائف : جمع تنوفة ، وهي القفر من الأرض ، انظر : اللِّسان ، مادة (تنف) .
(٢) ينفح : يهبُّ ، انظر : اللِّسان ، مادة (نفح) .
(٣) الحدائق والجنان ، ص٤٧ .
(٤) الراح : الخمر ، انظر : اللِّسان ، مادة (روح) .
(٥) الزلال : العذب الصافي ، انظر : اللِّسان ، مادة (زلل) .
(٦) المهجَّر : الذي يسير وقت الهاجرة عند اشتداد حرّ الشمس ، انظر : اللِّسان ، مادة (هجر) .
(٧) ينمّ : يشيع ويُظهر ، انظر : اللِّسان ، مادة (نمم) .
(٨) الغوالي : جمع غالية ، وهي من الطيب معروفة ، وهو نوع من الطيب مركب من مسك ، وعنبر وعودٍ ودهن ، انظر : اللِّسان ، مادة (غلا) .

فجمع الجيَّاني في صورة الرائحة بين انتشارها في قوله (ينمُّ) وأثرها في ذكره (السكر) و (الظلّ) بما أراد به وصف الانتشاء النفسي الذي يحدثه تذكُّر المكان ، ولذلك أضاف لهذه الصُّورة حميميَّةً بذكر العقيق البدويِّ .

وهذا الانتشاء النفسيِّ ، هو الذي يجعلُ الشاعر يصوِّر المحبوبةَ بخيالِهِ فيذكر الرَّائحة ، لأنَّ شيوع الرَّائحةِ في الصُّورة يبعث الإحساس بالمتعة ، ومن هذه الصُّور الشميَّة قول ابن حمديس يصف شَعْرَ امرأة يحبُّها[1] :

وتريكَ ليلاً في الذوائبِ[2] يجتلي[3] نوراً عليكَ ظلامُهُ وصَقالا[4]

وإذا تداولتْ الولائدُ[5] مشطهُ عَرُضَ السُّرى بالمشطِ فيه وطالا

وتنفَّستْ بالندِّ فيه فخيَّمتْ نارٌ مواصلةٌ به الإشعالا

والبيت الأوَّل فيه تقديم وتأخير ، أراد (يجتلي ظلامه عليكَ نوراً وصقالاً) وصورة شعر المحبوبةِ هنا بصريَّة لونيَّة ، صوَّر فيها ابن حمديس شعراً أسودَ طويلاً ، يشبه اللَّيل فيعكس سواده إشراق الوجه ويجلوه ويظهره ، والصُّورة اللَّونية ظهرت في التطابق بين النور والظلام ، والسواد والبياض ، وقال (يجتلي عليك) لأنه أراد إشراقاً بوجهها عليه ، وكأنَّها أضاءت بهذا الوجه خلال الظلام ، وأشرقت إشراق الشمس وتجلِّيها .

وفي البيت الثاني يصوِّر لنا بصريًّا هذا الشَّعر الكثيفَ الطويل ، مبالغاً في وصف طوله وكثافته ، فيقول (تداولت الولائدُ مشطه) أي أنَّ الجواري يتناوبن مشطه ، ممَّا دلَّ به على غزارته وكثرته وطوله ، دلَّ على هذا أيضاً تشبيهه المشط بسارٍ في فلاةٍ ممتدَّة ، يطول به الطريق ويعرض ، وأراد طول هذا الشعر

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص٣٨٧ .

(٢) الذوائب : جمع ذؤابة ، وهي الشعر المضفور من شعر الرأس ، انظر : اللِّسان ، مادة (ذأب) .

(٣) يجتلي : يكشف ويظهر ، انظر : اللِّسان ، مادة (جلا) .

(٤) صقالاً : جلاءً ، انظر : اللِّسان ، مادة (صقل) .

(٥) الولائد : الجواري ، انظر : اللِّسان ، مادة (ولد) .

وغزارته ، وقال (السُّرى) أي المسير ليلاً ، لأنَّه شعرٌ أسود ، ثمَّ صوَّر ابن حمديس رائحة هذا الشَّعر فشخَّص عود الندِّ الذي يُتبخَّر به ، وجعله يتنفَّس فيه ، في دلالةٍ على أنَّها رائحةٌ متجدِّدة دائمة مثل تجدُّدِ النَّفسِ ، ولذلك استعار للنَّار التي يُشب بها عودُ الندِّ صفةَ الإقامة والتخييم .

فالصُّورة شميَّة ، أشاع الشاعر في جوانبها الرائحة لأنه يعلم ما تحدثه في النفس من انتشاءٍ لتخيُّل عبقها ، وأضاف لها بصريًّا ولونيًّا ، إضاءَة الوجه المشرق من خلال ظلام الشعر المطبق .

ومن الصُّور الشميَّة الأخرى لرائحة المحبوبة قول ابن خفاجة مخاطباً البرق :

(ولقد أقول لبرقِ ليلٍ هاجني) [1]

ثم طلبه منه[2] :

وإذا غشيتَ ديارَ ليلى باللّوى فاسألْ رياحَ الطيبِ عنها تُخْبَرِ

فصوَّر محبوبةً بدويَّةً مقيمةً باللّوى ، شخَّصَ لسلامها البرق ، وطلب منه أن يزورها ، ويعرِّجَ عليها ، ودلَّهُ على علامةِ معرفته بمكانها ، وهي رائحةُ الطيب التي شخَّصها أيضاً فهي تُسْأَل ، وتخبر .

وصورة البرق ، وإرساله بالسلام ، وليلى ، واللّوى ، رموز بدويَّة حنينية ، أراد بها الشاعر إحياءَ ذكرى في نفسه حنَّ إليها فرمز لها ، وضمّ إلى هذه الرموز الرائحة العبقة التي أضفت على الصُّورة إحساسَ انتشاءٍ بهذه الذكرى .

وقد تكون هذه الذكرى لزمانٍ أو مكانٍ أو شبابٍ أو غيره ممَّا يحنُّ له الشَّاعر ، فيعمِّق شعور الحنين بذكر رموز البادية ، ومن ذلك الحنين إلى الصِّبا ، يقولُ ابن الزَّقاق[3] :

(١، ٢) ديوان ابن خفاجة ، ص٤٩ .

(٣) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها ، ص١٥٥.

مـــاءُ الشـــبيبةِ والجمـــالِ أرقُّ مـــن صقلِ الـحُـــسامِ المنتضـــى وفرنـــدِهِ
ونســـيمُه أنـــدى وأعطـــرُ مـــن صَـبَا نجـــدٍ ونشـــرِ عـــرارِهِ أو رنـــدِهِ

ويُقَال للشَّباب (ماء الشَّباب) لأنهم أرادوا ترقرق الماء ونضارته في الوجه وحسنه وصفاءَه ، وشبه ابن الزَّقاق هذا الشباب والجمال بالسَّيف المصقول المزيَّن ، وفضلَّه عليه ، وشبَّه نسائمه ونداه ـ وأراد بها الحياةَ التي كان يعيشها بما فيها من صبواتٍ وملَّذاتٍ ـ بصبا نجدٍ ، ورائحة العرار والرَّند وفضَّلها عليها أيضاً ، وقد ربط النشر بالصَّبا ، ونباتاتِ البادية ، لأنه أراد ذكريات الشباب ، وما كان فيها من نعم الحياة ومتعها ، فجعل طريقهُ لوصفِ ما يحدثُه تذكُّرها من انتشاءٍ في النفس ، أن يفضِّلها في ذلك على رائحة نباتاتِ البادية ونسيم صباها ، لما لروائح البادية من قيمةٍ حنينية عاليةٍ في القلب .

وقد يوظِّف الشعراء الصورة الشميَّة في سياق وصف الهوى ولواعجه ، ومن ذلك قول أبي بكر بن حبيش[1] :

كأنَّمـــا القلـــبُ منِّـــي مجمـــرٌ عبـــقٌ يزيـــدُ في حُـــبِّكم طيبـــاً إذا اشـــتعلا

فشبَّه قلبه في الاشتعال والوجد ، وتعاظم الحبِّ ، بمجمرٍ وُضع فيه الطيب من العود ، فإذا أُوقِدَ المجمر زاد سطوع الرائحةِ وانتشارها ، وهو وصفٌ قريب من البداوة والعذريَّة التي يُشبَّه فيها اشتعال الحبِّ في القلب باشتعال جمر الغَضَا البدويّ المتوقّد ، زاد في صورته هنا أنه اشتعالٌ بطيبٍ يعبق ، لأنه أراد ما وراء الشمّ من إضافة إحساس الانتشاء بالحب .

وهكذا . . .نجدُ أنَّ الصُّورة الشميَّة البدويَّة تكثر في الشعر الأندلسيّ ، لأنَّها تعطيه رائحةً خاصَّةً وجمالاً حسيًّا ملموساً في الصُّورة ، التي ترتبط فيها غالباً برموزٍ بدويَّة من نباتاتٍ ، وأمكنةٍ وأسماء ، لدلالةِ وجودها في سياقات الشعر المختلفة على عمق الشعور الحنيني فيه .

---

(١) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها ، ص١٣٦ .

الصُّورة الذوقيَّة :

وهي الصُّورة التي تعتمدُ على حاسَّة الذوقِ في الخيال الشعري ، ممَّا يعطيها طعماً ومذاقاً خاصًّا يثريها حسيًّا .

ومن أكثر هذه الصور الذوقية البدويَّة شيوعاً في الشعر الأندلسيّ ما ارتبط فيه بوصف ريقِ المرأة ، وتصوير عذوبته ، وطعمه ، وتشبيهه بمذاقاتٍ حلوةٍ مختلفة ، تتيح للمتلقِّي تخيُّل هذه الصُّور ، وتمثُّلها ، ومنها قول أحمد ابن عبد الملك المرواني[1] :

ولقد نفستُ[2] على الأراكِ[3] وحُقَّ لي ... لما اجتنى[4] بالذَّوقِ طيبَ جناكِ[5]

وبيَ الصَّدى[6] لا بالأراكِ فما لهُ ... رَشَفَ[7] اللَّمى[8] وحُرِمتُ رشفَ لماكِ

فالشَّاعر في البيتِ الأوَّل استعار للأراكِ البدويِّ ، الذي يُستاكُ به صفة التقبيلِ لامرأةٍ شبَّه ريقها بجنى ثمرٍ رطبٍ طريٍّ طيب ، وحَسَد الأراك على أخذه منه دونه ، ثمَّ صوَّر في البيت الثاني شدَّة عطشه لهذا الريق مع حرمانِهِ منه ، ونيل الأراك له ، وهي صورةٌ ذوقيَّة لريقِ امرأةٍ شبَّهه الشاعر بجنى ثمرٍ جعل الأراك فيها غريماً له في أخذه لهذا الريق .

وصورة الريق الذي يروَى السِّواكَ منه دون الشاعر تتردد كثيراً في الشعر الأندلسيِّ ، وهي صورةٌ حسيَّةٌ استلهم فيها الشعراءُ استخدام نباتِ الأراكِ البدويِّ

---

(١) شعر بني أميَّة في الأندلس حتَّى نهاية القرن الخامس الهجري ، دكتور السيد أحمد عمارة ، مكتبة المتنبي ، الدمام ، ط . الثانية ، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م ، ص٤٦١ .

(٢) نفستُ : أي أصبتُه بالعين ، انظر : اللِّسان ، مادة (نفس) .

(٣) الأراك : شجر السواكِ يُستاك بفروعه ، انظر : اللِّسان ، مادة (أرك) .

(٤) اجتنى : أخذ بيده ثمراً رطباً طريًّا ، وهو جنى ما دام رطباً ، والجنى : العسل ، انظر : اللِّسان ، مادة (جني) .

(٥) جناك : ثمرك الطريّ الرَّطب ، انظر : اللِّسان ، مادة (جني) .

(٦) الصَّدى : شدَّة العطش ، انظر : اللِّسان ، مادة (صدي) .

(٧) رشف : تناول الماء بالشفتين ، انظر : اللِّسان ، مادة (رشف).

(٨) اللَّمى : الريق البارد ، انظر : اللِّسان ، مادة (لما).

لجلوِ الأسنان ، وجعلوا منه غريماً ينالُ ما لم ينالوه ، وفي ذلك يقول ابن حمديس[1] :

وهي لمياءُ[2] تمنعُ الريقَ صوناً وتُروِّي السواكَ منه برغمي

وابن حمديس أضفى على الصُّورة جلالَ العفَّة ، ونقاءها ، في قوله (تمنعُ الريق صوناً) إضافةً لواقع الغيرةِ عند الشاعر في قوله (تروِّي) و (برغمي).

والصُّورة الذوقيَّة لطعم الريق تكثر في الشِّعر منذ القدم ، لأنَّها صورة يمثّل الشاعر فيها إحساسه بمن يحبّ وشعوره النفسيّ حيال طعم الريقِ ، الذي اختلفت تشبيهاته ، ولكنَّها تصبُّ في سياق وصف الحلاوة ، واللذة ، والمتعة بها ، ومنه قول ابن خفاجة[3] :

وما كان أعطَر تلكَ الصَّبَا وأندى معاطفَ تلك الرُّبا

وأطيبَ ذاكَ الجنَى روضةً ومصَّةَ ذاكَ اللَّمى مَشرَبَا

وابن خفاجة يصوِّر الريق في سياق وصف الشباب وأيَّامه[4]:

ليالِيَ عهدي بنا فتيةً وعهدي بأحبابنا ربرَبَا

فقد كان فتيًّا ، وكانت فتاتُه جميلةً تشبه الظبية ، وعندما صوَّر ريقها وما ناله منه ، جاء بهذا التصوير من خلال الطبيعةِ التي أراد بها الزمان الغضَّ ، والصبابة ، والصِّبا ، واللَّهو ، ولذلك حدَّث عنه بصيغةِ التعجُّب ، فقال (وما كانَ أعطر . . وأندى) وجعل للصَّبا البدويَّة العليلةِ رائحةً عطرة ، كما استعار للرُّبى المعاطف ، وجعلها نديَّة ، وهو تشخيصٌ لطبيعةٍ حيَّةٍ ، أراد ابن خفاجة بصورتها ، رواءَ الشبابِ ونضارته ، جمع إليها صورة الريق الذي شبَّهه بجنى

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص٤٢٨ .

(٢) لمياء : اللَّمى : سمرة الشفتين واللثات ، وهي أيضاً برودة الريق ، انظر : اللِّسان ، مادة (لما) .

(٣) ديوان ابن خفاجة ، ص١١٧ .

(٤) المصدر السَّابق ، ص١١٦ .

روضةٍ عذب ، وأراد به العسل[1] الذي جمع طعومَ الأزهارِ ورحيقها ، فضمَّ إلى الصُّورة الذوقيَّة للريق ، الصُّورة الشميَّة في تعطُّر الصَّبا ، والبصريَّة في نداوة الرُّبا .

وتشبيه الريق بجنى النحل كثير في الشعر البدوي القديم ، ومنه قول عنترة[2]:

كاعبٌ ريقها ألذُّ من الشـ ـهدِ إذا ما زجتُه بنتُ الكروم

فجمع في الصُّورة الذوقيَّة للريق بين العسل والخمر ومثله في الشعر الأندلسيّ ، قول ابن حمديس[3] :

فأمسيتُ منها بماءِ اللَّمى أروِّي أُواماً[4] وأُشفي سقامَا
حَلاَلِي وأَسْكَرني ريقُها فهل خامرَ[5] الأريُ[6] منه المُدامَا

فشبَّه ريقها الذي روى عطشه ، وشفى سقمه ، بالعَسَل الذي خالط الخمر ، وهي صورةٌ ذوقيَّة أراد بها الطعم الحلو المذاق في العسل ، إضافةً للأثر الذي أحدثه في نفسه فذكر الخمر وما تفعله بالنفوس من الانتشاء لحالة السُّكْر .

وهي الصُّورة التي جاء ابن حمديس بها في قصيدة أخرى ذكر فيها الثَّغر ، وبياض الأسنان ، فقال[7] :

للأقاحي بفيكِ نَوْرٌ[8] ونُورُ ما كذا تسنحُ[9] المهاةُ النُّفورُ

---

(١) الجنى : العسل ، انظر : اللِّسان ، مادة (جني) .
(٢) ديوان عنترة ، ص١٩٢ .
(٣) ديوان ابن حمديس ، ص٤٥٢ .
(٤) أواماً : الأوام العطش ، انظر : اللِّسان ، مادة (أوم) .
(٥) خامر : خالط (خمر) .
(٦) الأري : العسل (أري) .
(٧) ديوان ابن حمديس ، ص٢٤٤ .
(٨) نَوْر : زهر أبيض ، انظر : اللِّسان ، مادة (نور) .
(٩) تسْنح : السانح ما أتاك عن يمينك ، يتيمَّن به ، انظر : اللِّسان ، مادة (سنح).

ثم قال بعد ذلك بأبياتٍ ، يضمُّ صورة الرّيق[1] :

وثنايـــا يضـــاحكُ الشـــمسَ منـــها في محيّـــاكِ كوكـــبٌ يســـتنيرُ
ريقهـــا في بقيّـــة اللّيـــل مســـكٌ شيبَ بـــالرّاحِ منـــه شـــهدٌ مشـــورُ[2]

وفي قوله (نَوْرٌ ونُورُ) تصويرٌ لبياض الأسنان ، التي شبَّهها بالضياء ، والزَّهر الأبيض ، وشبَّه المرأة بالظبية النُّفور ، أي (المذعورة) [3] لأنها حالةٌ تبدو فيها الظبيَّةُ أجمل ما تكون لمدَّها عنقها وجيدها ، وتلفُّتها خوفاً ، وجعلها (سانحة) أي تأتي عن يمينه ، وأراد به التفاؤل الذي يحدثه مرآها في نفسه ، و (السانح والبارح) من المعتقدات الجاهليَّة التي أبطلها الإسلام ، ولكنَّها ظلَّت تحمل دلالاتها القديمة في الشعر على التفاؤل والتشاؤم .

وابن حمديس لمَّا شبَّه الثغر والأسنان بالنَّور وهو الزهر الأبيض ، عاد بعد ذلك بأبياتٍ فقال (ثنايا يضاحكُ الشمس منها) فهم ((يقولون : ضحكت الأرض إذا أنبتت ، لأنها تبدي عن حسن النباتِ كما يفترُّ الضاحكُ عن الثغر ، ويقال : ضحكت الظلمة ، والنَّور يُضاحك الشمس ، قال الأعشى :

يضاحك الشمس منها كوكبٌ شرقٌ)) [4]

فشبَّه ابن حمديس الثنايا بالنَّور ، ثمَّ استعار لها مضاحكة الشمس وشبَّهها بالكوكب ، وأراد زيادة الإشراق ، والتألُّق ، وطابق هذه الصُّورة اللونيَّة في الإضاءة ، بصورة ظلام الليل في البيت الثاني ، الذي وصف فيه حلاوة ريقها ، وشبَّهه بالرَّاح الممزوج بالعسل ، وهي صورة ذوقيَّة ، جمع لها أيضاً الصُّورة الشميَّة في تشبيهه رائحة فمها بالمسك ، وقال (بقيَّة اللَّيل) لأنَّه أراد رائحة فمها

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص٢٤٥ .

(٢) مشور : شار العَسلَ استخرجه ، واجتناه ، انظر : اللِّسان ، مادة (شور) .

(٣) انظر : اللِّسان ، مادة (نفر) .

(٤) الصناعتين ، أبو هلال العسكري ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصريَّة ، بيروت ، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م ، ص٢٧٦ .

في أواخر الليل الذي تتغيَّر فيه عادة رائحة الفمّ وطعمه عند الناس ، إلاَّ أنَّه عند من يحب شهدٌ ممزوجٌ بعسلٍ في رائحة مسك .

والصُّورة الذوقيَّة للريق وطعمه في الصَّباح ، أو أواخر الليل ، صورةٌ بدويَّة قديمة ، جرى فيها الشعراء على الاعتراض بجملة : (أواخر الليل) أو (في الصبح) أو (بعد الكرى) ، وهي كثيرةٌ في الشعر الجاهليّ ، ومنه قول عبيد ابن الأبرص[1] :

كأنَّ ريقتها بعد الكرى اغتبقَتْ[2] صهباءَ صافيةً بالمسكِ مختومَهْ

كما جرى أيضاً في الشعر القديم تشبيه الريق بالتُّفاح ، ومنه قول حسان ابن ثابت[3] :

على أنيابها ، أو طعمُ غضٍّ من التُّفاحِ هصَّرهُ الجَنَاءُ

وفي مثل الصُّورة الذوقيَّة السابقة يقول ابن خفاجة[4] :

تندى بفيهِ أقاحةٌ[5] تفَّاحةٌ شربت على ظمأٍ بماءِ الكوثرِ[6]

فشبَّه ابن خفاجة فمها في لون أسنانِهِ بالأقحوان ذي الزَّهر الأبيض ، وفي رائحته وطعم ريقه بالتفاحة .

وجمع إلى هذه الصُّورة الذوقيَّة ، الصُّورةَ البصريَّة في لون الأقحوان الأبيض ، والشميَّة في قوله (تفاحة) التي تدلُّ إضافة للطعم الحلو على الرائحة الجميلة ،

---

(١) ديوان عبيد بن الأبرص ، ص١٣٥ .

(٢) اغتبقت : الغبق شرب العشيّ ، انظر : اللِّسان ، مادة (غبق) .

(٣) ديوان حسَّان بن ثابت ، ص١٢ .

(٤) ديوان ابن خفاجة ، ص٤٩ .

(٥) أقاحة : مفرد أقحوان من نبات الربيع ، دقيقُ العيدان له نور أبيض ، كأنه ثغر جارية حدثة السنّ ، وهو البابونج ، انظر : اللِّسان ، مادة (قحا) .

(٦) الكوثر : نهر في الجنَّة يتشعَّب منه جميع أنهارها ، وهو للنبي ﷺ ، انظر : اللِّسان ، مادة (كثر) ، قال رسول الله ﷺ : أتدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : فإنه نهر وعدنيه ربى عز وجل في الجنة ، وعليه خير كثير ، عليه حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد الكواكب ... الراوى أنس بن مالك ، المحدث الألبانى ، المصدر صحيح أبى داود ، ص ٤٧٤٧ حديث حسن .

وقال (تندى) بالفعل المضارع ، لأنه أراد دلالةَ استمرار تألُّق الأسنان ، وتنوُّرها ، وتأجُّج الرائحة الطيبةِ وسطوعها ، لأنَّ هذا الزَّهر والثمر اللذين شبَّه بهما الثغر والريق ، يُسقيان بالندى من ماء الكوثر في الجنَّة ، وأراد بذلك المبالغة في وصف عذوبة الريق وحلاوته حتّى شابه ما هو علويٌّ غير مرئيٍّ أو مُذاق أو مجرَّب الطعم ، ولكنَّه وُصِفَ في الحديث الشريف بأنَّه أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل[1].

ومن الصُّور الذوقيَّة البدويَّة ، ما جاء أيضاً في قول ابن خفاجة يصوِّر ظلاماً سرى فيه فقال[2] :

في سُدْفةٍ[3] يندى[4] دُجاها[5] صفحةً ... ويطيبُ ريَّا[6] ريحها متنسَّما

فتكادُ ريقةُ[7] طلِّها[8] أن تُجْتَنى ... رشفاً ومبسمُ برقها أن يُلْثما

فصوَّر ابن خفاجة الظلمة المختلط سوادها بالغيم وما كان فيها من النَّدى والطلّ ، وصوَّر رائحة ريحها وريَّاها الطيبةِ في النفس ، ثمَّ جاء بصورة ذوقيَّة قلب فيها التشبيه القديم لريق المرأة بماءِ المزن ، فشبَّه الطلَّ وهو صغارِ القطر

---

(١) ((سُئل رسول الله ﷺ عن الكوثر؟ فقال : « هو نهرٌ أعطانيه الله تعالى في الجنة ترابه مسك ، أبيضُ من اللبن ، وأحلى من العسل ، ترده طير أعناقها مثل أعناق الجزر» قال أبو بكر : يا رسول الله إنها لناعمة؟ قال : أكلها أنعم منها)) . مختصر تفسير ابن كثير ، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني ، المكتبة العصريّة ، صيدا ، بيروت ، ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣م ، ص٥٥٢ .

(٢) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٨٢ .

(٣) سدفة : ظلمة ، انظر : اللِّسان ، مادة (سدف) .

(٤) يندى : يبتلّ ، والندى ما أصابك من البلل ، انظر : اللِّسان ، مادة (ندي) .

(٥) الدُّجى : سواد الليل مع غيم ، انظر : اللِّسان ، مادة (دجي) .

(٦) الريَّا : الريح الطيبة ، انظر : اللِّسان ، مادة (روي) .

(٧) ريقة : الريق ماء الفم ، وريقةُ الفم لعابه ، انظر : اللِّسان ، مادة (ريق) .

(٨) الطلّ : المطر الصغار القطر الدائم ، وهو أرسخ المطر ، انظر : اللِّسان ، مادة (طلل).

بريقِ الفم الذي يُشْتهى رشفه ، وقلب أيضاً التشبيه القديم لوضاءة المبسمِ بالبرق ،فشبَّه البرق في لمعانِهِ وإيماضِهِ بالمبسم الذي يُشْتَهَى لثمه .

فجاء بصورة بصريَّة لبرق وتبسُّم ، وصورة شميَّة لريحٍ وتنسُّم ، وصورة ذوقيَّة في ذكره (الريق) و (المجتنى) و (الرشف) و (اللثم) .

وابن خفاجة يجري هنا على عادتِهِ في شعره ـ غالباً ـ فهو يمنح الطبيعة حياةً وحيويَّةً وخصباً فيشبهها بالمرأة ، كما قد يمنح المرأة حياةً وخصباً وحيويَّة أيضاً فيشبهها بالطبيعةِ الحيَّة ، وصورهُ تجري كثيراً على هذه الطريقةِ في المزاوجة بين الطبيعةِ والمرأة .

ومن الأمثلة على الصور الذوقيَّة البدويَّة في الشعر الأندلسيّ ، قول ابن الحدَّاد[1] :

ومـــن تكـــن الأقـــدارُ مســـعدةً لـــه يَعُدْ شبماً[2] عذباً لـــه الآجـــنُ[3] الملـــحُ

وابن الحدَّاد يقول : إن من كانت الأيَّامَ مسعدةً والحظُّ مواتياً له ، فإنه يلقى الصعبَ سهلاً ، والمتكدِّر صافياً ، وشبَّه ذلك بمن يجدُ طعمَ الماءِ الآجنِ المتكدِّر المتغيِّر اللون والمذاق ـ مما يكثر وجوده في الصحارى والفلوات ـ حلواً عذباً ، وأراد بهذا التشبيه أن السعادة إذا ملأت القلب ، أحالت كلَّ ما هو سيئٌ كدرٌ إلى حسنٍ سهلٍ مواتٍ ، وقال ذلك على سبيل الحكمة ، ولعلَّه نظر فيه إلى بيتِ أبي الطيب[4] :

ومـــن يـــكُ ذا فـــمٍ مـــرٍّ مـــريضٍ يـــجـــد مـــرًّا بـــه المـــاءَ الـــزُّلالا

ولكنَّ ابن الحداد صرفَ المعنى من وصفٍ للنَّفسِ واختلاف النَّاس ، إلى وصفٍ للحظوظِ واختلاف الأقدار .

---

(١) ديوان ابن الحدَّاد ، ص١٧٩ .

(٢) الشبم : الماء البارد ، انظر : اللِّسان ، مادة (شبم) .

(٣) الآجن : الماء المتغير الطعم واللون، ويغشاه العرمض، انظر : اللِّسان، مادة (أجن).

(٤) ديوان المتنبي ، ٣٤٤/٣ .

وقد ينحى الشعراءُ الأندلسيُّون بالصُّورة الذوقيَّة منحًى استعاريًّا ، فتستعارُ الطعومُ ، والمذاقاتُ الحسيَّة ، لما هو غيرُ حسّي ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾(النحل:١١٢)، ومن هذه الصُّورة المتعلقة بالبداوة ، قول الرُّصافي[١] :

قد رُحتهم من شمائله ذِكرٌ كما يتضوَّعُ[٢] النَّدُّ
نعمَ الحديثُ الحلوُ تملكهُ الرِّ كبانُ حيثُ رمى بها الوخدُ
يا صاحبيَّ أخبُرهُ عجبٌ لكما على ظمأٍ به وردُ

والسياق في المدح ، شبَّه فيه الرُّصافي ذكر شمائل الممدوح والانتشاءَ بالحديث عنها ، بعود البخور الذي تسطع رائحته الطيبة فينتشي المتطيبون به ، وهي صورةٌ شمّيَّةٌ للحديثِ الذي استعار له صفة (حلاوة المذاق) وقال إنَّه (نعم الحديث) الذي يتسامر به الرُّكبان في مسيرهم إليه ، وشبَّه ممدوحَهُ في البيت الثالث بالوِرْد الذي يقصده الظمأى ، وأراد أن يدل بذلك على كرمه وجوده الذي تحيا به نفوسُ الرُّكبان ، حياة الظمأى بالماء العذب الوِرْد .

والصورة ذوقيَّة استعار فيها لحسن الحديث عن الممدوح (حلاوة الطعم) ، وشبَّه هذا الممدوح في كرمه وعطائِهِ (بالماء المورود على الظمأ) وقال (على ظمأ) للدلالةِ على الحاجةِ عند الواردين ، لأنَّه مناطُ حياتهم ومعوَّلُها ، ولأنَّ الحاجة تجعل هذا الماء أعذب ماءٍ وأصفاه ، لانعدام غيره ، وهي الصفة التي أرادها لعطايا الممدوح وفعلها بالنفس .

وفي مثل هذه الصُّور الذوقيَّة ، يقول ابن عبد ربّه الأندلسيّ[٣]:

ما ذقتُ طعمَ الموتِ في كأسِ الأسى حتَّى سقتنيهِ الظِّباءُ الغيدُ[٤]

---

(١) ديوان الرصافي ، ص٦٠ .

(٢) التضوع : تضوع الريح الطيبة أي نفحتُها وانتشارها ، وسطوعها ، وتفرقها ، انظر : اللِّسان ، مادة (ضوع) .

(٣) ديوان ابن عبد ربّه ، ص١١٥ .

(٤) الغيد : النواعم ، انظر : أساس البلاغة ، الزمخشري ، ١٧٩/٢، مادة (غيد).

فاستعار للموت الطعم والمذاق ، واستعار للأسى الكأس ، واستعار لليأسِ وانعدام الرجاء وعذابِ الهوى صفة الشراب والخمر الذي يُسقى ، وجعل الساقي محبوبةً تشبه ظبيةً ناعمةً .

وأراد بهذه الصورة الذوقيَّة الاستعاريَّة التدليل على شدَّة عذابه في الهوى ، فجاء بوصف عذريٍّ لهوى يائسٍ وجد فيه طعم الموت .

وقد يمنح الشاعر للهوى نفسه مذاقاً وطعماً ، ومن ذلك قول ابن فركون[1]:

فكم ذا تلومـاني علـى كَلَفـي بـه[2] كأنْ لم يذقْ طعمَ الـهـوى عاشقٌ قبلي

والصُّورة الذوقيَّة جاءت في استعارة الطعم للهوى الذي يذوقه ويحسُّه ويشعر به العشَّاق نحى بها الشاعر منحًى عذريًّا في ذلك ، وفي تصوير لوم العواذل له ، ممَّا يتخذه الشعراء دلالةً على قوّة الحبّ ، وشدَّة التمسُّك بالمحبوبةِ رغم لوم اللائمين .

وفي مثل هذه المعاني العذريَّة ، يقول المعتمد بن عبَّاد[3] :

وهـواكِ لـولا أنَّ طيفـكِ زائـرٌ في الغبِّ[4] لي ما ذقتُ طعمَ رُقادي

فأقسمَ بالهوى ، وذكر أنه لولا زيارة طيفها له بعد انقطاع عنه ما ذاقَ طعم الرقاد ، فاستعار للرُّقاد والنَّوم صفة الذوق والاستطعام ، وجعل سببَه توقع رؤية الطيف وزيارته .

ومن هذه الصُّور الذوقيَّة ذات الملامح العذريَّة ، قول أبي عبد الله بن جابر الضرير[5] :

---

(١) ديوان ابن فركون ، ص٢٦٥ .

(٢) كلفي به : ولعي به ، وحبي له ، والكلف الولوع بالشيء مع شغل قلبٍ ومشقّة ، انظر : اللِّسان ، مادة (كلف) .

(٣) ديوان المعتمد بن عباد ، ص٥٠ .

(٤) غبّ الرجل : إذا جاء زائراً بعد أيام ، والغبّ الزيارة في كل أسبوع ، انظر : اللِّسان ، مادة (غبب) .

(٥) نفح الطيب ، المقرّي ، ٦٧/٢ .

يا أيُّها الحادي اسقني كـأسَ السُّـرى نحـوَ الحبيـبِ ومهجـتي[1] للسَّـاقي
حيِّ العراقَ علـى النَّـوى واحمـلْ إلى أهـلِ الحجـازِ رسـائلَ العشَّـاقِ
يا حسـنَ ألحـانِ الحـدُاةِ إذا جَـرَتْ نغماتُهـا بـمسـامعِ العشَّـاقِ

فنادى الحادي ، وطلب منه أن يسقيه كأس السُّرى ، في استعارةٍ للمسير ليلاً ومواصلته صفة الكأسِ الذي يُشرب منه ، وقدَّم مهجته أي روحه وقلبه للحادي إذا سقاه ، ثمَّ حيَّا العراق وراسلَ الحجاز ، وأضاف للصُّورة الذوقيَّة للسُّرى ، صورةً سمعيَّةً في صوتِ الحداةِ الذي يشبه الألحان والأنغام في مسامع العشاق ، وأراد بذلك وقع هذا الصَّوت في النفس المحبَّة ، لأنَّه يزيد من نشاط الإبلِ فتغذُّ السير إلى من يهوى ، وهو المعنى الذي أراده من وراء الصُّورة الذوقيَّة لكأسِ المسير التي ذكر أنَّه يشربها ليصل لمن يحب .

وهكذا نجدُ . . . أنَّ الصُّور الذوقيَّة تعطي المعنى الشعري خيالاً حسيًّا ، مختلفَ الطعومِ والمذاقات ، استلهم الشعراءُ الأندلسيُّون البداوة فيها ، ووظَّفوها في كثيرٍ من السياقات .

الصُّورة اللمسيَّة :

وهي الصُّورة التي تهيمن على الخيال الشعري فيها حاسَّة اللَّمس ، وهي من الحواس التي تساعدُ على إدراكِ الجمال في هذا الشِّعر وتجسيده وتمثيله عن طريقِ تلمُّسه في الصُّورة ، ومنها ما جرى منذ الشعر القديم تصويره ، من تقبيل الفمِّ ولثمه ، أو تمنِّي ذلك ، يقول ابن هانئ يصوِّر محبوبةً بدويَّةً منعها أهلها عنه[2] :

حسـبُوا التكحُّـلَ في جفونـكِ حليـةً تـاللهِ مـا بـأكفِّهم كحلـوكِ

---

(١) مهجتي : المهجة ، دم القلب ، وقيل المهجة ، الروح والنفس ، انظر : اللِّسان ، مادة (مهج) .

(٢) ديوان ابن هانئ ، ص٢٥٢ .

وجلوكِ[1] لي إذْ نحنُ غُصْنَا بانةٍ[2] حتَّى إذا احتفلَ[3] الهوى حجبوكِ
ولوى مقبَّلَكِ اللِّثامُ ومادروُا أن قد لثمتُ به وقُبِّلَ فوكِ

جاء الشاعر في البيت الأوَّل بصورة لمسيَّةٍ لكحلٍ يلامسُ العينَ فيظهر جمالَها ، غير أنَّ ابن هانئ نفى هذا التزيُّن عن محبوبته ، ولذلك قال إن أهلها حسبوا التكحُّل الطبيعي في عينيها حليةً وزينةً اتخذتها ، وأراد بذلك المبالغة في وصف جمال عينين كانت الزينة فيهما خلقةً وطبيعةً ، حتّى بدت وكأنَّها حلية ، وأشار في البيت الثاني إلى عادةٍ بدويَّةٍ قديمةٍ ، كانت لا ترى في اجتماع الشاب بالفتاةِ غضاضةً إلاَّ إذا ظهر حبٌّ وهوى ، وحينئذٍ يحجبون الفتاة عمَّن هويها ، حمايةً لشرفهم ، وعرضهم وسمعتهم ، وقد عانى شعراءُ عذريُّون كُثُر من هذه العادة البدويَّة ، ومنهم ابن ميادة[4] ، ومجنون ليلى ، وغيرهم ، وقد ذكر مجنون ليلى هذه العادة في شعره ، فقال[5] :

ألا حُجِبَتْ ليلى وآلى أميرُهَا عليَّ يميناً جاهداً لا أزورُها
وأوْعَدني فيها رجالٌ أبرَّهُمْ أبي وأبوها خُشِّنَتْ لي صدورُها

وابن هانئ يشير إلى هذه العادة البدويَّة في قوله في البيت الثاني ، أنَّهم جلُوهَا له وأظهروُها عندما كانَا صغيرين ، ثمَّ لمَّا ظهرَ الهوى ، وانتشَرَ بين

---

(١) جلوكِ : كشفوك ، وأظهروك ، انظر : اللِّسان ، مادة (جلا) .
(٢) البان : ضربٌ من الشجر ، انظر : اللِّسان ، مادة (بون) .
(٣) احتفل : اجتمع وامتلأ وكثر ، انظر : اللِّسان ، مادة (حفل) .
(٤) الذي ((كان يهوى أم جحدر ، وينسب بها ، ويتردد عليها ، ولم يزل كذلك حتى علم أبوها ، باختلافه إليها ، فأنف لشرفه وعرضه ، وحجبها عنه ، ثم قرّر أن يخرجها إلى رجلٍ من غير عشيرتِه ، وأن لا يزوجها بنجد)) .
شعراء الدولتين الأمويَّة والعباسيَّة ، دكتور حسين عطوان ، دار الجيل ، بيروت ، ط . الثانية ، ١٩٨١م ، ص٢٦٨.
(٥) ديوان مجنون ليلى ، ص١٥٦.
وله أيضاً :
كيفَ السبيلُ إلى ليلى وقد حُجِبتْ عهدي بها زمناً ما دونها حُجُبُ
الديوان : ص٩٢ .

النَّاس حجبوها ومنعوها عنه ، وأردف هذا المعنى بصورة اللِّثام الذي حجب فمها أيضاً ، وذكر أنَّه قبَّلها رغم اللِّثام ورغم أهلها ، وصورةُ اللِّثام الذي يُلامسُ الفم ، والقبلةُ التي لامسته قبله ، صورةٌ حسيَّةٌ ، أثْرتْ المعنى بدلالاتها الصَّريحةِ على الحبِّ والهوى .

وقد ينحى الشاعر بالصُّورة اللمسيَّة منحًى استعاريًّا ، يؤدي إلى تجسيد هذه الصُّورة وتمثيلها ، وتشخيصها ، بما يكسبها حيويَّة الحياة ، ومنها قول ابن حمديس ، يصوِّر ريحاً تهبُّ من جهة بلده[1] :

إنِّي لأبسطُ للقبولِ إذا سَرَتْ ... خدِّي وألقاها بتقبيلِ اليدِ
وأضمُّ أحنائي[2] على أنفاسِها ... كيما تبرِّد حرَّ قلبٍ مُكْمَدِ[3]
مَسَحَتْ كراقيةٍ[4] عليَّ بكفِّها ... ونقابُها نَدٌّ[5] من الزَّهرِ النَّدي[6]
وعرفتُ في الأرواحِ مَسْرَاهَا كَمَا ... عرفَ المريضُ طبيبهُ في العُوَّدِ

قال جالينوس قديماً في التروِّح بالنَّسيم : ((يتروَّحُ العليلُ بنسيمِ أهلِهِ ، كمَا تتقوَّتُ الحيَّةُ ببلِّ المطرِ إذا أصابَ الأرض)) [7] والتروُّحُ بالنسيم ، مرتبطٌ بالحنين للوطن ، والنزوع إلى المكان الأوَّل ، والمنزل القديم ، ولذلك ذكر ابن حمديس استرواحَ نسيمِ القبولِ ـ وهي من رياح الصَّبَا[8] ـ الهابَّةِ من جهةِ بلده ، وجاء بصورةٍ لمسيَّةٍ لبسطِ الخدِّ منه ، وتقبيله يدَها ، وهي استعارة أراد بها

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص١٦٧.
(٢) أحنائي : جوانبي ، ويقال فلان أحنى الناس ضلوعاً عليك ، أي أشفقهم عليك ، انظر : اللِّسان ، مادة (حنا).
(٣) مكمد : محزون ، انظر : اللِّسان ، مادة (كمد).
(٤) راقيةٍ : الرقية العوذة ، ورقيته عوَّذته ، ونفثت في عوذته ، والرقية العوذة التي يرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصَّرع وغير ذلك من الآفات ، انظر : اللِّسان ، مادة (رقا).
(٥) ندّ : عود ندي فتق بالندى أو ماء الورد ، انظر : اللِّسان ، مادة (ندي) .
(٦) الندي : المبلل ، انظر : اللِّسان ، مادة (ندي) .
(٧) ديوان المعاني ، أبو هلال العسكري ، ١٨٨/٢ .
(٨) انظر : اللِّسان ، مادة (قبل) .

تشخيص الريح ليعطي دلالةً حيَّةً على حرارة الاستقبال لها منه ، والترحيب بها ، وأضاف لهاتين الصُّورتين اللمسيَّتين صورةً شميَّةً في قوله : (أضمُّ أحنائِي على أنفاسِهَا) فاستعارَ للرياحِ صفةَ التَّنفس ، وجعل أنفاسَها وهي نواسمَهَا تنفثُ عليه فيضمُّ عليها ضلوعه لتبردَ نارُ الحزنِ والكمدِ في قلبه ، جرَّاءَ البعدِ عن الدِّيار ،وربطَ هذه الصُّورة بالبيتِ التَّالي الذي شبه فيه الرياح بالرَّاقي الذي يعمدُ إلى النَّفثِ بأنفاسِهِ ، أو المسح بكفِّه ، على المرقى عليه ، ولا يُرقى إلاَّ عليلٌ صاحبُ داء ، وقد كان داء الشاعر البعدَ عن الوطن ، ولذلك شبَّه هذه الرِّيح ـ أيضاً ـبالطبيب الذي يعودُ المريض ودلَّ بذكره الراقي والطبيب على مدى سوء حالته التي استدعت ذلك لبعده عن وطنه ، وجمع إلى الصُّورة اللمسيَّة للريَّاح في المسحِ بالكفّ ، صورةً شميَّةً لها في ذكره النَّدى ، وطيبَ رائحة الزَّهر ، واستعارتِهِ في هذه الصُّورة النِّقاب من المرأة .

والصُّورة اللمسيَّة في بسطِ الخدّ ، وتقبيل اليد ، والمسح ، أضفت على الشّعر حيويَّة الحركة وتمثيلها .

ومن هذه الصُّورة اللمسيَّة الاستعاريَّة ، قول ابن فركون يصوِّر برقاً[1] :

أمِنْ بارقٍ أعلامَ نجدٍ يصافحُ ... تذكَّرتَ عهداً بالحمى وهو نازحُ

يلوحُ بآفاقِ[2] الثَّنايا[3] كأنَّهُ ... مُصافي ودادٍ بالسَّلامِ يصافحُ

فشخَّص ابن فركون البرق الذي أومضَ من جهة نجدٍ والحمى ، وأطراف الثنايا ، وهي الجبالُ العريضة ، وجعله مسلِّماً مصافحاً ، مذكِّراً العهدَ القديم ، وقال (مصافي ودادٍ) لأنه أراد سلاماً حارًّا بين المحبِّين ، فجاء بالصُّورة اللَّمسيَّةِ الاستعاريَّةِ للبرق في البيتِ الأوَّل ، وشبهه بالصديق المصافح في البيتِ الثاني ، لأنَّه أراد إحياءَ الذِّكرى ، فتخيَّلَ إيماضَه مصافحةً وسلاماً ، فقد كان البرق في الشعر رمزاً بدويًّا للحنين ، درج الشعراء على إيداع شعرهم صورته لدلالتِهِ على ذلك .

---

(١) ديوان ابن فركون ، ص١١٠ .

(٢) الآفاق : الفلك ، وأطراف الثنايا ، انظر : اللِّسان ، مادة (أفق) .

(٣) الثنايا : جبالٌ طوال بعرض الطريق ، انظر : اللِّسان ، مادة (ثني) .

ومن الصُّور اللَّمسيَّة البدويَّة للبرق والغمام قول محمَّد المرِّي[1]:

جادَ الحمى صَوْبَ[2] الغمامِ هتُونُهُ[3] تُزجِي[4] البروقَ سحابُهُ فتعينُهُ
وسقى ديارَ العامريَّةِ بعدمَا وافى بجرعاءِ الكثيبِ معينُهُ

ثم قال[5]:

حتَّى إذا الأرواحُ[6] هبَّتْ بالضُّحَا مَسَحتْ عليه بالجناحِ تبينُهُ[7]
وكأنَّه والرَّعدُ يحدُو خلفهُ صبٌّ يطولُ إلى اللِّقاءِ حنينُه

فاستعار الشاعر للرياح الجناحَ من الطائر في قوله (حتى إذا الأرواح . . مسحت) ، فجاء بصورةٍ لمسيَّةٍ جعلها فيها تمسح على الغمامِ فيصبُّ المطر ، ثم جاء بصورةٍ بصريَّةٍ شبَّه فيها الرَّعدَ بالحادي ، والغمام بالقطيع من الإبل ، وجعلها مشابهةً لصورةِ محبٍّ يذكر العهد ، وينزعُ إلى اللقاء ، فيرفع صوته بنغمٍ حزينٍ يشبه الحنين ، وهي صورة سمعيَّة ، والصُّورة اللمسيَّة في مسح جناحِ الرياح للغمام ، قريبةٌ من التشبيه البدويِّ لانهمار المطر من السحب بمري ضرع النَّاقةِ لاستدرار اللَّبن ، مستلهمةً منها ، لأنه جاء بعدها بصورة الرعد ، والحادي والقطيع من الغمام في البيت التالي ، وهي الصُّورة البدويَّة التي جاءت أيضاً في قول ابن خفاجة يصف (عارض رحمة)[8]:

---

(١) الإحاطة ، لسان الدين بن الخطيب ، ١٦٩/٣.

(٢) الصوب : المطر ، انظر : اللِّسان ، مادة (صوب).

(٣) الهتون : المطر الضعيف الدائم ، انظر : اللِّسان ، مادة (هتن).

(٤) تزجي : تسوق برفق ، والريح تزجي سحاباً أي تسوقه سوقاً رفيقاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (زجا).

(٥) الإحاطة ، لسان الدين بن الخطيب ، ١٦٩/٣.

(٦) هبَّت الرياح : ثارت وهاجت ، انظر : اللِّسان ، مادة (هبب).

(٧) تبينه : تظهره ، انظر : اللِّسان ، مادة (بين).

(٨) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٧٤.

والعارض : السحاب المطلُّ يعترض في الأفق ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرض).

زجلَ[1] الرُّعودِ كأنَّمـا مَسَـحتْ بـهِ كـفُّ الصَّـبا عـن ناقـةٍ عشـرَاءِ[2]

فاستعار لريح الصَّبا الكفَّ تمسح بها السحب ، واستعار للغمامِ صفة الناقةِ العشراء ، التي إذا مُسحَ ضرعُها أدرَّت اللَّبن ، وخصَّ العُشَراء ، وهي حديثة العهدِ بالنتاج لأنَّه أملأ لضرعها باللَّبن ، ولأنَّه أراد مطراً كثيراً غزيراً مغدقاً ، وصورة الناقة في السحابة ولمسُ الرياح لها ، ومسحها ، صورة قديمةٌ في الشعر أراد بها الشعراءُ دلالات الخصب والنماء والخير في المطر ، فربطوها بقطعان الإبل .

وهي صورةٌ لمسيَّةٌ بدويَّة ، استلهمها ابن هانئ في المدح ، فقال[3]:

في الغيـثِ شـبهٌ مـن نـدالكَ كأنَّمـا مَسَحتْ على الأنواءِ[4]منـكَ يـمـينُ

فشبَّه جودَ الممدوح بالمطر الذي ينهمر ويُدرُّ من مسح الرياح على الغمام ، وهي صورة لمسيَّةٌ قريبة من صورة مسح البدويِّ ضرع ناقته لحلبها ، وذكَرَ الأنواءَ ، لأنَّ العرب في الجاهليَّة كانت إذا سقط نجمٌ وطلع آخر قالوا : لابدَّ أن يكون عند ذلك مطر ، لأنَّ العرب كانت تضيفُ الأمطار إلى الساقط منها فتقول: مطرنا بنوء كذا[5]، ولذلك كانوا يتتبعون مساقط الأنواء لثقتهم بالمطر ، وفي ذكر ابن هانئ ذلك إشارةٌ إلى معرفته بالفلك والنجوم ، وما كان من اعتقاداتِ

---

(١) الزجل : سحاب ذو زجل أي ذو رعد ، وغيث زجل لرعده صوت ، انظر : اللِّسان ، مادة (زجل) .

(٢) العشراء : الناقة التي وضعت ما في بطنها ، وهي الحديثة العهد بالنتاج ، وقد وضعت أولادها ، وأحسن ما تكون الإبل وأنفسها عند أهلها ، إذا كانت عشاراً ، انظر : اللِّسان ، مادة (عشر) .

(٣) ديوان ابن هانئ ، ص٣٥٣ .

(٤) النوأ : النجم ، انظر : اللِّسان ، مادة (نوأ) .

(٥) انظر : اللِّسان ، مادة (نوأ) .

عرب الجاهليَّة فيها[1]، ومعرفتهم بها ، وقوله (يمين) فيه دلالةُ البركةِ والإسعاد ، والتفاؤل والسماحة ، لأنَّ اليمن البركة[2].

ومن الصُّور اللَّمسية الاستعارية البدويَّة ، ما يصف فيها الشعراء الرياح ، وحركتها في الديار البدويَّة وبين نباتاتها ، وتشبيه هـذه الحركـة بالاعتنـاق ، أو المسح أو اللمس أو المصافحة وغيرها ، ومن ذلك قول ابن الزَّقَّاق[3]:

أجرُّ ذوابلـي[4] مـن أرضِ نـجـدٍ ... خـلالَ مجـرٍّ أذيـالِ الغمـامِ
على ميثاءَ[5] رفَّ[6] بـهـا الخزامـى ... وأضـحى الزَّهـرُ مفضـوضَ الختـامِ
تلـفُّ غصـونَها ريـحٌ بليـلٌ ... فيعتنـقُ الأراكَ مـع البَشَـامِ

والصُّورة فيها وصف خيلاءِ الشباب ، ونضارته ، وغضارته ، ورونقه ، فهو يجرُّ ذوابله على أرضٍ سهلةٍ لينةٍ من نجد ، جرَّر فيها الغمامُ أذياله في استعارةٍ له من المرأةِ وثيابها ، وهي صورة بصريَّة ، جمع إليها الصُّورة الشميَّة في وصفه رائحة الخزامى التي تشبه غاليةً فُضَّ ختامُها فشاعت رائحة الطيب وسطعت ، وقوله (رفَّ) فيه دلالة الاهتزاز ، والحركة ، وأيضاً (التنعُّم) المناسبةِ لصورة جرِّ الذيل ، ثمَّ أردف هذه الصُّورة بالصُّورة اللمسيَّة لريح ناعمة بليلة

---

(١) ((فقد كانت العرب تزعم أن ذلك المطر الذي جاء بسقوط نجمٍ هو فعلُ النجم ، وكانت تنسب المطر إليه ، ولا يجعلونه سقياً من الله تعالى ، وإنْ وافق سقوط ذلك النجم المطر يجعلون النجم هو الفاعل)). انظر اللسان مادة (نوأ) وفي الحديث قوله عليه السلام مخبراً عن الله عز وجل « من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب» الراوى زيد بن خالد الجهنى ، المحدث مسلم ، المصدر صحيح مسلم ، ص ٧١ .

(٢) انظر : اللِّسان ، مادة (يمن) .

(٣) ديوان ابن الزَّقاق ، ص٢٥٣ .

(٤) ذوابلي : الذابل الرمح الدقيق ، انظر : اللِّسان ، مادة (ذبل) ، يقال : رماح ذوابل ، وهو من المجاز ، انظر : أساس البلاغة ، الزمخشري ، ٢٩٤/١ ، مادة (ذبل).

(٥) الميثاءَ : الأرض اللينة من غير رمل ، انظر : اللِّسان ، مادة (ميث) .

(٦) رفَّ : اهتزّ وتنعَّم ، انظر : اللِّسان ، مادة (رفف) .

استعار لها صفة العناق ، وجعلها تحيط بذراعيها الأراك والبشام ، وهي نباتاتٌ بدويَّةٌ ذات روائح عطرة ذكيَّة .

وصورة الشباب الغضّ النضر ، بثَّ فيها الحركة والحياة غناها بالحواسِّ في البصر والشمِّ واللَّمس ، من خلال وصف المشية ، والرائحة ، والاعتناق ، وتوظيف هذا الوصف للدلالة على زمن الشباب وما فيه من انطلاق واجتناء ملذات .

ومن الأمثلة الأخرى على الصُّور اللمسيَّة البدويَّة قول محمَّد الأستجي[1]:

سَرَتْ من رُبى نجدٍ معطَّرةَ الرِّيا ... يموتُ لها قلبي وآونةً يَحيَا

تمسَّحُ أعطافَ الأراكِ بليلةً ... وتنشرُ كافُوراً على التُّربةِ اللَّميَا

فاستعارَ للرِّيح العطرةِ التي تأتي من قِبَل روابي نجدٍ ، وأعاليها ، صفة المسح على الأراكِ الذي استعار له الأعطاف ، لأنَّه أراد تشخيص الريح والنَّبات ، واستعار للتُّربة الخصبة السَّمراء ، صفة الشّفاه السُّمر القريبة من السواد ، وأراد بها الدلالة على خصوبة الأرض وازدهارها ، ممَّا أنبت زهراً له رائحة الكافور العبق ، فالصُّورة اللمسيَّة في المسح ، جمع لها الشميَّة في العطر والكافور ، واللَّونيَّة في قوله (اللَّميا) .

ومن هذه الصُّور اللمسيَّة الاستعاريَّة البدويَّة ما جاء في خلال استلهام صورة الطلل ، من مثل قول ابن حمديس يمدح[2] :

ألا حبَّذا العيدُ الذي عَكَفتْ بهِ ... على كفِّكَ الأمواهُ[3] تمطرها قُبْلا

ويا حبَّذا دارٌ يدُ اللهِ مسَّحتْ ... عليها بتجديدِ البقاءِ فما تبلى

فشبَّه كف الممدوح وقد بسطها للتقبيل ، بنبع الماءِ الذي يفيض فتسيل منه المياه والمسايل ، وشبَّه المقبِّلين بهذه المسايل التي اغترفت من جوده وكرمه ، فعكفت على يده .

---

(١) الإحاطة ، لسان الدين بن الخطيب ، ٣١٨/٢ .

(٢) ديوان ابن حمديس ، ص٣٧٨ .

(٣) الأمواه : جمع مياه ، انظر : اللِّسان ، مادة (موه) .

كما استعار في البيت الثاني المسحَ على دار الممدوح ، التي جعل مسحها تجديداً لها وإحياءً ، ممَّا يشبه مسح الطلل وتجديده بفعل المطر أو الرياح ، وهو ما أشار إليه بقوله (فما تبلى) ، فنفى عنها البلى لأنه أراد أنها ظلَّتْ في عناية الله تعالى مجدِّدةً دائماً ، والصُّورة لمسيَّةٌ ، في ذكر الكف المبسوطةِ للتقبيل ، وفي استعارة المسح على الديار .

ويستلهم أيضاً ابن خفاجة من البداوة ، في صورة لمسيَّة استعاريَّة فخر فيها بقصيدته فقال (وإليكَ من حوكِ[1] البديعِ قوافياً)[2] ، وفيها[3] :

مَسَحتْ جفونَ الرَّكبِ من سنةِ الكرى ولوتُهمُ طَرَباً على الأكوارِ

فاستعار للقصيدةِ مسح جفونِ الرَّكب ، وجعل الممسوح النوم القليل الذي كاد يطبقُ الجفون ، وضمَّ إلى هذه الصُّورة اللمسيَّة ، الصُّورة السمعيَّة في ذكره الطرب لسماع القوافي ، وإنشادها ، وهما صورتان أراد الشاعر بهما الإشادةَ ببيانِهِ وبراعتِهِ في الشعر ، فجعل سماع قصيدهِ ، يُذهبُ النوم عن الرَّكب تيقُّظاً واستنفاراً للسماع ، ويلويهم على ظهور الرواحل استمتاعاً بالإنشاد .

وهكذا نَرَى . . أنَّ الصُّورة الحسيَّة اللمسيَّة ، في الشِّعر الأندلسيِّ البدويِّ تضفِي على هذا الشِّعر حيويَّة وحياةً ، وتجسِّد المعنويَّات والمعقولات ، حتَّى تجعلها عن طريق التخيُّل واقعاً ماثِلاً ، يُلمس باليد ، ممَّا يثري الصُّورة الشعريَّة ، ويغنيها حسيًّا .

تداخل الحواسّ في الصُّورة :

لاحظنا من العرض السابق للصُّور الحسيَّة ، أنَّ هذه الصُّور قد تختلط فيها الحواسُّ جميعها أو بعضها ، وقد صنَّفناها حسب الحاسَّة الغالبةِ في الصُّورة ، التي تجعلها بصريَّة أكثر ، أو سمعيَّةً أكثر ، أو غيرها من الحواسّ الأخرى .

---

(١) حوك الشعر : نسجه ولاءم بين أجزائه ، انظر : اللِّسان ، مادة (حوك) .

(٢،٣) ديوان ابن خفاجة ، ص٣٩ .

ولكنَّ ((الحواسَّ مختلطةٌ متداخلةٌ ، تفترق لتلتقي ، وتختلف لتتفق ، وتسيرُ كلُّها جنباً إلى جنبٍ في نقل الإدراك ، أو الإحساس)) [1] ، ومن هنا فقد نجدُ بعض الصُّور التي تجتمعُ فيها عدَّةُ حواس ، لا تُغَلَّبُ فيها واحدةٌ على أخرى ، ولكنَّها تتكامل وتتفق .

ومنها قول سعيد بن عثمان المروانيّ ، يصوِّر الظعائن[2] :

رفعوا الـهـوادجَ للرَّحيلِ وأعتمُـوا[3] ... فغـدتْ لبينـهمُ المـدامعُ تسـجمُ[4]

وسَـرَوْا وأروقـةُ الظـلامِ[5] تُكـنِّهم ... فكأنَّهم مـن تحـتِ ذلـكَ أنـجـمُ

واستكتَموا بـمـسـيرهم تحتَ الـدُّجى ... فـأبى نسـيمُ المِسْـكِ أن يَسْـتَكْتِمُوا

وهي صورةٌ لركبٍ سروا في الليل ، مستترين بالعتمة وهي أوَّله ، وشبَّههم في ذلك بنجومٍ أضاءت ظلام السَّماء ، إلاَّ أن رائحتهم الطيبة الذكيَّة نمَّتْ عنهم ، وكشفت استتارهم .

والصُّورة بصريَّة : لهوادجَ تشبه النجوم ، وسماء مضيئةٍ بها .

ولونيَّة : في مطابقة العتمة والظلام لليل بالنور في النجوم .

وشميَّة : في المسك الذي شبَّه رائحتهم به .

وفي مثل هذه الصُّورة يقول أبو جعفر بن الزبير[6] :

---

(١) الصُّورة في شعر بشار بن برد ، دكتور عبد الفتاح نافع ، ص١٣٣ .

(٢) شعر بني أميَّة في الأندلس ، دكتور السيد أحمد عمارة ، ص٤٦٨ .

(٣) أعتموا : العتمَّة إذا مرَّ قطعة من الليل ، وهي ثلث الليل الأوّل ، وأعتموا ، صاروا في ذلك الوقت ، انظر : اللِّسان ، مادة (عتم) .

(٤) تسجم : تسيل ، انظر : اللِّسان ، مادة (سجم) .

(٥) أروقة الظلام : الرواق سترٌ يُمدُّ دون السقف ، انظر : اللِّسان ، مادة (روق) .
وأروقة الظلام ، من المجاز ، انظر : أساس البلاغة ، الزمخشري ، ٢/٩٨، مادة (عتم).

(٦) الإحاطة ، لسان الدين بن الخطيب ، ٢/٤٧٧.

رحلوا الرَّكائب[1] موهناً[2] ليكتّموا ظعنَ الحمولِ وهل تُوارى الأنجمُ
فأذاعَ سرَّهمُ السُّنَا ورمى بهم فلُّ[3] الذميلِ[4] شذاهمُ المتنسِّمُ
كم حفَّ[5] حملَ قبابِهم وركابِهم من ليثِ غابٍ في براثنِهِ الدَّمُ

وهي تشبه الصُّورة السابقة في اختيار الرَّكب وقت الليل للمسير ، بدافع الرَّغبة في الاستتار بالظلام ، وتشبيههم فيه بالنجوم الساطعة التي أدَّى نورُها لكشف استتارهم ، إضافةً لعبيرهم الذي أظهر ما كان خافياً ، ولكنَّ الشاعر أضاف إلى الصُّورة الفوارسَ يحيطون بالقباب يحرسون من فيها من النساء ، وشبَّههم بالأسود ، وأشبع الصفة بذكره الدَّم في أظافرهم في دلالةٍ على الشجاعة والبسالة .

فالصُّورة بصريَّة : في مشهد الهوادج تسير بليل ، وتحفّ بها الفوارس كالأسود .

لونيَّة : في ذكر الشاعر الظلام وسواد الليل ومطابقته بإنارة النجوم ، ووصف الدم الأحمر في أظافر أسودهم أو رجالهم .

صوتيَّة : في ذكره (فلَّ الذميل) أي ضرب الأرض وكسر الحصى من وقع السَّير .

شميَّة : في ذكر رائحتهم العطرة الطيبة .

ومن الأمثلة على هذه الصُّور التي تتداخل فيها الحواس ، قول ابن الصائغ[6]:

---

(١) في الإحاطة (الرّكاب) وهو خطأ عروضي والصواب ما أثبتناه .
(٢) الموهن : نحو من نصف الليل ، انظر : اللّسان ، مادة (وهن) .
(٣) فلٌّ : ضربٌ وكسرٌ ، انظر : اللّسان ، مادة (فلل) .
(٤) الذميل : ضربٌ من سير الإبل ، انظر : اللّسان ، مادة (ذمل) .
(٥) حفّ : حفَّ القوم بالشيء أحدقوا به وأطافوا به ، وعكفوا ، واستداروا ، انظر : اللّسان ، مادة (حفف) .
(٦) نفح الطيب ، المقرّي ، ٢٧/٧ .

ضربوا القبابَ على أقاحي[1] روضةٍ ... خطر[2] النسيم بها ففاحَ عبيرا

وتركتُ قلبي سَارَ بين حُمُولهم ... دامي الكلومِ[3] يسوقُ تلكَ العِيرَا

هلاّ سألتَ أميرهم هل عندهم ... عانٍ يُفَكُّ ولو سألتَ غيورا

لا والذي جعلَ الغصونَ معاطفاً[4] ... لهمُ وصاغَ الأقحوانَ ثغورَا

ما مرَّ بي ريحُ الصَّبا من بعدهمْ ... إلا شهقتُ له فعادَ سَعِيرَا

فشبَّه النساءَ في الهوادج بالزهور في روضةٍ مرَّ بها النسيمُ فأظهر رائحتها الطيبة ، وشبه قلبه المجروح بعدهم بالحادي الذي يسوق البعير ، ثمَّ جعل معاطفهم غصوناً ، وهي كناية ، عن ليونتهنَّ ونعومتهنَّ ، وشبَّه أسنانهنَّ في بياضها بالأقحوان من الزهر ذي اللَّون الأبيض[5] ، وهو تشبيه قديم ، وصوَّر نفسه بعدهم يردِّد النفس ، فيزفره من صدره سعيراً ملتهباً ، وأراد به وصف نار الشوق وتأجُّجها .

والصُّورة شميَّة : في ذكره الأقحوان ، والروض والعبير .

لونيَّةٌ : في ذكره دماء الجروح ، ولون الثغور الأبيض ، والسعير الأحمر المتأجج من أنفاسه .

بصريَّة : في ذكر القلب الحادي ، والقباب المضروبة .

صوتيَّة : في ذكره الشهيق لأنه ترديد بكاءٍ مع صوت .

ومن هذه الصُّور الحسيَّة أيضاً ، قول ابن خفاجة يرثي[6] :

---

(١) الأقاحي : الأقحوان نبات له نور أبيض طيب الريح ، انظر : اللِّسان ، مادة (قحا).

(٢) خطر : في مشيه تمايل وتبختر ، انظر : اللِّسان ، مادة (خطر) .

(٣) الكلوم : الجروح ، انظر : اللِّسان ، مادة (كلم) .

(٤) المعاطف : الأردية ، وسمي الرِّداء عطافاً لوقوعه على عطفي الرجل ، انظر : اللِّسان ، مادة (عطف) ، يقال (امرأة لينة المعاطف) ، انظر : أساس البلاغة ، الزمخشري ، ١٢٦/٢ ، مادة (عطف).

(٥) انظر : اللِّسان ، مادة (قحا) .

(٦) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٢٥ .

ألا ليتَ لمحَ البارقِ المتألّقِ يلفُّ ذيولَ العارضِ المتدفّقِ
ويركبُ من ريح الصَّبا متنَ سابحٍ[1] كريمٍ ، ومن ليلِ السُّرى ظهرَ أبلقِ[2]
فيهدي إلى قبرٍ بحمصَ تحيّةً مشى تحتملها راحةُ الريحِ تعبقِ

وفيها[3] :

وكيف بشكوى ساعةٍ أشتفي بها ودونَ التّلاقي كلُّ بيداءَ سَمْلقِ[4]

وفيها[5] :

وقد أذكرتني العهدَ بالأمسِ أيكةٌ فأذكرتُها نوحَ الحمامِ المطوَّقِ[6]
وأكببتُ[7] أبكي بين وجدٍ أظلّني حديثٍ وعهدٍ للشبيبةِ مُخلَقِ[8]
وأنشقُ أنفاسَ الرياحِ تعلُّلاً فأعدمُ فيها طيبَ ذاكَ التنشُّقِ

وفيها[9] :

عطفتُ[10] على الأجداثِ أجهشُ[11] تارةً وألثمُ طوراً تربَهَا من تشوُّقي

وابن خفاجة ذكر في الصَّورة البدويَّة البرق المتألّق ، والصَّبا ، والحمامة ، لأنها من رموز التشوُّقِ البدويَّة ، وكان السِّياقُ في الرثاء ، وهو سياق تشوُّقٍ إلى

---

(١) السابح : الخيل لأنها تسبح ، وهي صفة غالبة ، والفرس سابح ، يسبح في سيره ، انظر : اللِّسان ، مادة (سبح) .
(٢) أبلق : البلق سوادٌ وبياضٌ في الخيل ، انظر : اللِّسان ، مادة (بلق) .
(٣) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٢٥ .
(٤) سملق : القفر الذي لا نبات فيه ، انظر : اللِّسان ، مادة (سملق) .
(٥) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٢٦ .
(٦) المطوَّق : الحمامة التي في عنقها طوق ، انظر : اللِّسان ، مادة (طوق) .
(٧) أكببتُ : أكب الرجل إذا ما نكَّسَ ، وأكبَّ على الشيء أقبل عليه ولزمه ، انظر : اللِّسان ، مادة (كبب) .
(٨) مخلق : بالٍ ، انظر : اللِّسان ، مادة (خلق) .
(٩) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٢٦ .
(١٠) عطفت : انحنيت ، انظر : اللِّسان ، مادة (عطف) .
(١١) أجهش : بكى بصوت ، انظر : اللِّسان ، مادة (جهش) .

من لا سبيل إلى لقائه ، أو ردّه ، ولذا كان عنصرُ الحنين في الصُّورة طاغياً ، فهو يتمنّى أن يلفَّ ضوءُ البرق بإيماضِهِ المطر المتدفّق ، ويمتطي الريح إلى قبرٍ بحمصَ في الأندلس ، وهو دعاءٌ بدويٌّ قديمٌ بالسُّقيا كانوا يخصُّون به ديار من يهوون ، ومنازلهم ، وقبورهم ، لأن المطر دعاءٌ بالخير والرَّحمة ، وجاء ابن خفاجة بهذا المطر في صورة استعاريَّةٍ شخَّص فيها البرق ، وجعله يلفُّ ذيول المطر ، ويمتطي ريح الصَّبا التي استعار لها صفة الفرس السابح الأبلق ، وذكر السابح لأنه أراد سرعةً تصل بالبرقِ إلى هذا القبر ، كما ذكر الأبلق لأنَّه الفرس الذي يخالطه سوادٌ وبياض ، وهو مشابهٌ لصورة البرق الذي يومض في ليل السُّرى ، ـ وابن خفاجة زاوج في الصُّورة بين الطبيعةِ والمخلوقات الحيَّة ، فجعل البرق فارساً ، والريح فرساً ، على غير الصور المعتاد فيها تشبيه الفارس بالبرق ، والفرس بالريح ، وهي طريقة في التصوير تميَّز بها شعر ابن خفاجة كثيراً ـ وهذا البرقُ الذي لفَّ ذيول المطر ليصبَّ في حمص ، دعاءٌ وتحيةٌ من الشاعر حمَّلها الريح التي استعار لها اليد العبقة بالرَّائحة الطيبة ، ثم ذكر في البيت التالي الحنين المؤرق ، والشوق إلى اللقاء ، الذي كنّى عن استحالته بأنَّ دونه بيداءُ قفرٍ موحشةٍ خاليةٍ من الحياة والنبات ، وقال (كم) وهي هنا للتكثير ، لأنَّه أراد دلالة البعد فجعل الحائلَ بيدٌ وصحارى كثيرة ، وذكر (البيد) وأكَّد وصفها بالسملق أي التي لا نبات فيها ، لأنَّه يصوِّر وحشةَ فراقٍ لموتٍ وانعدام حياة ، ولذلك أردف هذا التشوُّق ـ لمن لا سبيل إلى لقائه ـ بصورة البكاء على العهد القديم ، فذكر نوح الحمام المطوَّق ـ لأنه من رموز التشوُّق ـ وتنشُّق الرياح لمعرفة شذى من غيَّبهُ الموتُ دونَ طائل من هذا التنشُّق ولكنَّه تعبير يشي بلوعةِ الحزن ومرارة الفقد ، وهو يذكر المرثيِّ ، ويربط هذا التشوُّق له بالحنين لأيَّام الصِّبا الآفلة ، والتي استعار لها من الثوب البلى ، للدلالةِ على الشيب ، وتولّي الشباب ، وهو ربطٌ معنويّ عاطفي بين رثاء من ذهب ، ورثاء النفس الباقية التي تتذكر الماضي وتحنُّ إلى العهد القديم بمن كانوا فيه ، والصُّورة جمعت في تشكيلها بين معظم الحواس ، فهي بصريَّة : في صورة لمع

البرق ، تدفق المطر ، ريح الصَّبا المشبهة الخيل ، البيداء الخالية القفر ، الانكباب بالوجه ، الانعطاف على القبر .

ضمَّ إليها اللَّون : في إيماض البرق وتألُّقهِ ، وطابقه بليل السُّرى ، وشبَّههُ ببلق الفرسِ ، لتداخل النُّور مع الظلام .

صوتيَّة : في صورة نوح الحمام المطوَّق والإجهاش بالبكاء .

شميَّة : في صورة عبق الريح وتنشُّق نسائمها .

لمسيَّة : في صورة لثمِ التراب .

ومن الأمثلة الأخرى على هذه الصُّور التي اجتمعت فيها عدّة حواس ، قول ابن الصباغ الجذامي في سياقِ المديح النبوي[1] :

إذا لمعتْ عندَ الأصيلِ بروقُ ... تذكَّر ذو وجدٍ وحنَّ مشوقُ

وإن صدحتْ[2] وُرقٌ بصرحةِ أيكةٍ ... فأشواقُه تحدُو به وتشوقُ

يهيُّجها ذكرُ العقيقِ إذا سَرَى ... وأينَ من الصبِّ القصيِّ عقيقُ

إذا حرَّكَ الأظعانَ حادٍ بشدوهِ ... فقلبي له نحو القبابِ خفوقُ

وفيها[3] :

سروا ولهم عرفٌ تأرَّجَ طيبُهُ ... كما شيبَ بالمسكِ الفتيقِ[4] خَلُوقُ[5]

والسياقُ في الحنين والتشوق للزيارة النبويَّة ، ولذا ذكر البرق ، والحمام ، والعقيق ، وهي من الرموز البدويَّة للحنين ، فصوَّر الوجدَ الذي يهيجهُ لمع البروق ، وأضاف إليه رفعُ الحمامةِ الصَّوت ، وصورة الحداء الذي استعاره للشوق ، وضمَّ إليه الذكرى التي استعار لها السريان من الأرض التي يحنُّ إليها

---

(١) ديوان الجذامي ، ص٣١ .

(٢) صدحت : رفعت الصوت بالغناء وغيره ، انظر : اللِّسان ، مادة (صدح) .

(٣) ديوان ابن الصباغ الجذامي ، ص٣١ .

(٤) الفتيق : فتقُ المسك بغيره استخراج رائحته بشيء تدخله عليه ، انظر : اللِّسان ، مادة (فتق) .

(٥) الخلوق : ضربٌ من الطيب ، وقيل الزعفران ، انظر : اللِّسان ، مادة (خلق) .

في الحجاز ، ثم صوَّر الظعائن التي يشدو لها الحادي يسوقها ، والقلب الخافق في إثر القباب التي كانت لها رائحة المسكِ المخلوطِ بالخلوق ، وهو طيبٌ ساطع الرائحة ظاهر العبق ، والصُّورة جمعت في تشكيلها بين حواسَّ عدَّة ، البصر : في ذكرلمع البرق ومشهد الظعائن والقباب ، ضمَّ إليها اللَّون : في ذكر المسك الأسود الذي يُخلط بالخلوقِ وهو طيبُ الزعفران الأصفر ، والسمع : في ذكر الحنين ، وصدح الحمام والحداء ، والشمُّ : في ذكر العرف ، وتأرُّج الطيب وأخلاطه .

وهكذا . . . نجد من الأمثلة السابقة ، أنَّ الصورة قد تنقل لنا إدراكاً حسيًّا ، يُرى بالعين ، أو يسمع بالأذن ، أو يشمُّ بالأنف ، أو يلمس باليد ، أو يذاق ، وأنَّ هذه الحواس قد يختلط بعضها أو معظمها في الصُّورة البدويَّة ، ممَّا يضيف لها ثراءً ، ويمنحها حيويَّة .

الصُّورة الحركيَّة :

وهي الصُّورة التي تعتمد على الحركة في عرضِ المشهد الشعري ، ممَّا يضفي على المعاني حياةً وجاذبيَّة ، وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى جمال الحركة في الصُّورة بقوله ((اعلم أن ممَّا يزداد به التشبيه دقَّةً وسحراً ، أن يجيء في الهيئات التي تقع على الحركات)) [1] والصُّور الحركية البدويَّة في الشعر الأندلسيّ كثيرة ، ومنها ما كان متّصلاً بالإبل ، وحركتها ، وتفصيل الشعراء في هيئةِ سيرها ، ومنه قول ابن شكيل[2] :

تـــخـــدي[3] النجائبُ حولاً في نفانفها[4] لا يـــــأتيهنَّ إعيـــــاءٌ وتطلـــــيحُ[5]

---

(١) أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، ص١٨٠ .

(٢) ديوان ابن شكيل ، ص٤٧ .

(٣) تخدي : الوخد ضربٌ من سير الإبل ، وهو سعةُ الخطو في المشي ، انظر : اللِّسان ، مادة (وخد) .

(٤) نفانفها : النفنف : المفازة ، انظر : اللِّسان ، مادة (نفنف) .

(٥) تطليح : إعياءٌ وتعب ، انظر : اللِّسان ، مادة (طلح) .

فصوَّر حركة الإبل في السير الواسع الخطو ، وقرن الهيئة بصفة عدم التعب ، والكلل ، بما أراد به قوَّة الحركة ، وشدَّة النشاط .

ومن هذه الصُّور قول لسان الدين بن الخطيب[1] :

يميناً بربِّ الراقصاتِ إلى (منى) وحرمةِ ما بينَ المقامِ إلى الحِجْرِ

والقسمُ بربِّ الراقصات ، قسمٌ قديمٌ في الشعر ، ومنه قول الأعشى[2] :

حلفتُ بربِّ الرَّاقصاتِ إلى مِنى إذا مَخرِمٌ[3] جاوزتَه بعد مَخْرِمِ

فقد كان الجاهليّون يعظمّون البيت الحرام ، وكان الرقص من الصور الحركية لسير الإبل ، فالعرب تقول رقص البعيرُ إذا أسرع السّير[4] ، وحركةُ الرَّقص فيها حيويَّةٌ ، ونشاط ، وهمَّة ، وأرادوا ما وراء صورة هذه الحركة من الدواعي الإيمانيَّة التي تنفض صور السكون والخمول ، في سبيل القيام بشعيرة ربَّانيَّة روحانية مقدَّسة ، وجدوا في نفوسهم لها خفَّةً ونشاطاً .

وقد تأتى صورة الرقص في وصف حركة الإبل السريعة النشيطة في سياق المدح ، ومنه قول ابن فركون[5] :

وقد ظنَّت البيداءَ روضاً مفوَّفاً[6] يغنِّي الصَّدى[7] من جانبيها فترقصُ[8]

فصوَّر الشاعر حركة الإبل السريعة في المشي ، وهي الرقص ، وقرنها في هذه الصُّورة الحركيَّة ، بالانتشاءِ لفعل الصَّوتِ المردَّدِ في الصَّدى ، وهي سعادةٌ

---

(١) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢/٣٧٥ .

(٢) ديوان الأعشى ، ص٣٤٨ .

(٣) المخرم : الطريقُ في الجبل أو الرمل ، انظر : اللِّسان ، مادة (خرم).

(٤) انظر : اللِّسان ، مادة (رقص) .

(٥) ديوان ابن فركون ، ص٣٤٩ .

(٦) مفوَّفاً : الفوف ضرب من برود اليمن رقيقٌ موشَّى ، انظر : اللِّسان ، مادة (فوف).

(٧) الصَّدى : ما يجيبك من صوت بمثل صوتك ، انظر : اللِّسان ، مادة (صدي).

(٨) ترقص : الرقص ، الخبب ، ويقال رقص البعير إذا أسرع في سيره ، انظر : اللِّسان ، مادة (رقص) .

للقاء الممدوح ، جعلها الشاعر تظنُّ بسببها البيداءَ روضاً مفوَّفاً ، في تشبيهٍ للرَّوض بأزهاره ورياحينه بالبرد اليمانيّ الموشّى ، وكان الشعراء كثيراً ما يشبّهون الزهور بالبرود ، ومن أوّلهم امرؤ القيس الذي شبَّه الخصب بعد المطر بـ (نزول اليماني ذي العياب المحمَّل) [1] ، وقد قرن ابن فركون الصُّورة الحركيَّة للرَّقص هنا ، بالصُّور الحسيَّة الصَّوتية في ذكر الصَّدى والغناء ، والشميَّة البصريَّة في ذكره الروض المفوَّف .

وقد يصوِّر الشاعر حركة النسائمِ في الرَّوض ومنه قول ابن خفاجة في صورةٍ قال فيها :

(واستسقِ للأيكة الغَمامَا) [2]

وفيها[3] :

وقد تَهادَى بها نسيمٌ حيَّتْ سُليمى بها سَلامَا

فشخَّص النسيم ، ومنحه صفة التهادي في المشي والتثاقل ، ممَّا توصف به النساء ـ عادةً ـ وقرن هذه الحركة بالسلام من محبوبةٍ بدويَّة الاسم (سليمى)، في مجانسةٍ بينه والسَّلام ، وأراد بهذين اللفظين ما يحملانه من دلالاتِ نقاء ، وصفاء ، وبراءة ، أحيت الرَّوض ، وبثَّت فيه حركةً وحياةً ، ولذلك قال (حيَّت).

ومن الصُّور الحركيَّة للطبيعة ، ما ذكر فيها ابن خفاجة مطاولة الليل ، فقال[4] :

---

(١) ((يقول ألقى هذا الحيا ثقله بصحراء الغبيط ، فأنبتَ الكلأ وضروب الأزهار ، وألوان النبات ، فصار نزول المطر به كنزول التاجر اليماني صاحب العياب المحمَّل من الثياب حين نشر ثيابه يعرضها على المشترين ، شبه الشاعر نزول هذا المطر بنزول التاجر ، وشبه ضروب النبات الناشئة من هذا المطر بصنوف الثياب التي نشرها التاجر عند عرضها للبيع)) ، شرح المعلقات السبع ، الزوزني ، ص٥٩ .

(٢،٣) ديوان ابن خفاجة ، ص٧٠ .

(٤) ديوان ابن خفاجة ، ص٢٤٤ .

جاذبته[١] فضل[٢] العنانِ[٣] وقد طغى[٤] فانصاع[٥] ينساب[٦] انسياب[٧] الأرقمِ[٨]

والصُّورة الحركيَّة فيها تشخيصٌ لليَل الذي جاوز الحدَّ في الطول ، فاستعار له ابن خفاجة صفة فارسٍ تنازع معه على بقيَّةِ هذا الليل الذي شبهه بالعنان ، وشبهه في رجوعِهِ ومضيّه مسرعاً ، وتولّيه ، وانقشاعه ، بانسياب الأرقم من الحيَّات ، ونكوصها ، وذكر الأرقم لأنها حيّة فيها سوادٌ وبياض ، أراد من صورتها اختلاط الليل بالنهار ، لأنه يتحدَّث عن توالي اللَّيل أو بقيته .

والصُّورة حركيَّة في ذكره المجاذبة ، والانصياع والانسياب ، أضاف لها صورةً بصريَّة لونية ، في ذكره طغيان الليل الأسود ، والأرقمَ من الحيّات .

ومن الصُّور الحركيَّة البدويَّة في الشعر الأندلسيّ ، ما صوَّره ابن هانئ ، في سياقِ تداعي الذكريات ، فخاطب الدار (يا دارُ) [٩] ثم قال[١٠] :

هــلاّ كعهــدكِ والأراكُ[١١]أرائــكٌ[١٢] والأثلُ[١٣]بانٌ[١٤]والطلــولُ خمائــلُ[١٥]

---

(١) جاذبته : نازعته ، وغالبته ، انظر : اللِّسان ، مادة (جذب) .

(٢) الفضل : البقية من الشيء ، انظر : اللِّسان ، مادة (فضل) .

(٣) العنان : السير الذي تمسك به الدابة ، انظر : اللِّسان ، مادة (عنن) .

(٤) طغى : جاوز الحدَّ ، انظر : اللِّسان ، مادة (طغي) .

(٥) انصاع : ذهب مسرعاً ، وانفتل راجعاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (صوع) .

(٦) ينساب : يمشي مسرعاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (سيب) .

(٧) انسياب : سابت الحيّة مضت مسرعة ، انظر : اللِّسان ، مادة (سيب) .

(٨) الأرقم : الحيّة فيها سوادٌ وبياض ، انظر : اللِّسان ، مادة (رقم) .

(٩،١٠) ديوان ابن هانئ ، ص٢٩٣ .

(١١) الأراك : شجر معروف يستاك بفروعه طيب الرائحة ، انظر : اللِّسان ، مادة (أرك).

(١٢) الأرائك : الفرش في الحجال ، والأسرَّة ، والأريكة ، انظر : اللِّسان ، مادة (أرك).

(١٣) الأثل : شجر ذو أصولٍ غليظةٍ تتخذ منه الأبواب وغيرها ، انظر : اللِّسان ، مادة (أثل) .

(١٤) البان : ضرب من الشجر ، انظر : اللِّسان ، مادة (بون) .

(١٥) الخمائل : جمع خميلة وهي الشجر الكثير المجتمع الملتف الذي لا يرى فيه الشيء إذا وقع في وسطه ، انظر : اللِّسان ، مادة (خمل) .

إذ ذلـك الـوادي قنـاً[1] وأسـنَّةٌ[2] وإذ الـديارُ مشـاهدٌ[3] ومحافـلُ[4]
وعوابسٌ[5] ، وقوانسٌ[6] ، وفوارسٌ[7] وكـوانسٌ[8] وأوانـسٌ[9] وعقائـلُ[10]
وإذا العراصُ[11] تبيتُ يسحبُ لأمةً[12] فيها ابن هيجاءٍ[13] ويصفنُ[14] صاهلُ[15]

---

(١) القنا : الرماح ، انظر : اللّسان ، مادة (قنا) .

(٢) الأسنّة : أطراف الرماح ، انظر : اللّسان ، مادة (سنن) .

(٣) المشاهد : جمع مشهد وهو محضر الناس الذي يجتمعون به ، انظر : اللّسان ، مادة (شهد) .

(٤) محافل : جمع محفل وهو مجتمع الناس ، انظر : اللّسان ، مادة (حفل) .

(٥) العوابس : عبس قطّب ما بين عينيه ، والعبّاس الأسد الذي تهرب منه الأسد ، انظر : اللّسان ، مادة (عبس) .

(٦) القوانس : جمع قونس وهي أعلى بيضة الحديد ، انظر : اللّسان ، مادة (قنس) .

(٧) الفوارس : جمع فارس ، وهو صاحب الخيل الثابت عليها والحذق بأمرها ، انظر : اللّسان ، مادة (فرس) .

(٨) الكوانس : الكناس ، مولج الوحش من الظباء ، والكوانس الظباء ، انظر : اللّسان ، مادة (كنس) .

(٩) الأوانس : جمع آنسة ، وهي الجارية الطيبة الحديث والنفس ، انظر : اللّسان ، مادة (أنس) .

(١٠) العقائل : جمع عقيلة وهي الكريمة المخدّرة من النساء ، انظر : اللّسان ، مادة (عقل) .

(١١) العراص : جمع عرصة ، وهي كلُّ موضع واسع لا بناء فيه ، انظر : اللّسان ، مادة (عرص) .

(١٢) اللأمة : الدرع ، انظر : اللّسان ، مادة (لأم) .

(١٣) الهيجاء : الحرب ، انظر : اللّسان ، مادة (هيج) .

(١٤) يصفن : صفنت الدابة ، قامت على ثلاث ، انظر : اللّسان ، مادة (صفن).

(١٥) الصاهل : الفرس ، والصهيل صوته ، وهي حدّة الصوت مع بحّة ، انظر : اللّسان ، مادة (صهل) .

وتضجُّ[1] أيسارٌ[2] ويصدحُ[3] شاربٌ[4] وترنُّ[5] سُمَّارٌ[6] ويهدرُ[7] جاملُ[8]

بُعداً[9] للـيلاتٍ لنا أفدَتْ[10] ولا بعُدتْ ليالٍ بالغميمِ[11] قلائلُ

تشوَّق ابن هانئ إلى الديار ، والزمن الآفلِ الجميل ، فجاء بصورةٍ بدويَّةٍ تضجُّ بالحياةِ والحيويَّة ، والحركة .

وبدأ هذه الصُّورة للعهد القديم بقوله (هلاّ) وهو حرفٌ معناه الحثُّ والتحضيض[12] ، وأراد به تمنِّي العودة إلى ما مضى ، أي : (عودي أيتها الدارُ إلى عهدك) ثم أفاضَ في صورة هذا العهد ، حيث كان (الأراك) النبات البدويُّ (أرائك) أي سررٌ منجدةٌ ذوات ستور ، و (الأثل) وهو الشجر ذو الأصول الغليظة (بان). وهو أيضاً من أشجار البادية تُتَّخذ منه الرماح اللَّينة ، وأضاف إلى المشهد (الطلول) التي كانت أشجاراً كثيرة ملتفَّةً وخمائل ، وأراد بالكناياتِ

---

(١) تضجُّ : ضجَّ القوم ، صاحوا فجلبُوا ، انظر : اللِّسان ، مادة (ضجج) .

(٢) أيسارٌ : جمع ياسر ، وهو الذي يلي قسمة الجزور ، وقيل الياسر الجزَّار ، والياسر اللاعب بالقداح ، والجمع أيسار وهم الضاربون بالقداح ، والمتقامرون على الجزور ، انظر : اللِّسان ، مادة (يسر) .

(٣) يصدح : يرفع صوته بغناءٍ أو غيره ، انظر : اللِّسان ، مادة (صدح) .

(٤) شاربٌ : شاربٌ للخمر ، انظر : اللِّسان ، مادة (شرب) .

(٥) ترن : الرنين صوت حزين عند الغناء أو البكاء ، والرنين ، الصوت الشجيّ ، انظر : اللِّسان ، مادة (رنن) .

(٦) السمّار : الجماعة الذين يسمرون ، ويتحدّثون بالليل ، انظر : اللِّسان ، مادة (سمر) .

(٧) يهدر : هدر البعير صوّت في غير شقشقةٍ وردّد صوته في حنجرته ، انظر : اللِّسان ، مادة (هدر) .

(٨) الجامل : قطيع من الإبل معها رعيانها ، وأربابها ، انظر : اللِّسان ، مادة (جمل) .

(٩) بعداً : منصوب على إضمار الفعل غير المستعمل إظهاره ، أي أبعده الله ، انظر : اللِّسان ، مادة (بعد) .

(١٠) أفدت : حضرت وأسرعت ، وعجلت ، انظر : اللِّسان ، مادة (أفد) .

(١١) الغميم : موضع بالحجاز ، انظر : اللِّسان ، مادة (غمم) .

(١٢) انظر : اللِّسان ، مادة (هلل) .

السابقة صورة العيشِ الرغد ، والحياة الناعمة ، وضمَّ إلى هذه الصُّورة ـ بعد (إذ) التي لما مضى من الزمان ـ ، مشهدَ القَنَا والأسنَّة بها ، وأراد الفوارس الذين يحملونها ، حيث كانت الديار (مشاهد) و (محافل) تضجُّ بأهلها المجتمعين فيها ، وأضاف إلى صورة الفوارس في ذكره القنا والأسنَّة ـ مما دلَّ به على شجاعتهم وتهيؤهم للحرب ـ قوله (عوابس ، وقوانس ، وفوارس) والعوابس : جمع عابس ، وهو المقطِب المتجهِّم الوجه ، وأراد بهذه الصفة صورة الفارس الشديد المناسبة لاتخاذ القنا والأسنة ، والتهيُّؤ للقتال ، وقد يكون أراد تشبيههم بالأسد ، لأن الأسد يقال له عابس ، والقوانس : الخوذ التي تُلبس على الرأس ، كنَّى بها عن الفرسان ، فذكر القوانس التي تتخذ للحرب ، وأراد نسبة صفة الشجاعة للفرسان الذين يلبسونها ، والفوارس : وهم الرجال الأشدَّاءُ من أهل الحيّ ، وقابل هذه الصُّورة بصورة النساء الجميلاتِ المشبهاتِ الظباء ، الناعمات ، المؤنسات بحديثهنَّ وطيبه ، الكريمات ، المخدَّرات ـ مما دلَّ به على طيبِ العيش ولذَّته ـ ثم أردف هذه الصُّورة ، بكناية أخرى عن الفارس بقوله (ابن هيجاء) وقال (يسحبُ لأمة) وهي الدّرع ، وهي دليلٌ على الشجاعة ، والقوَّةِ ، والتخايلِ بها ، لأن يسحب (يجرُّ) وفيه استعراضٌ للبسالة ، ولذلك ذكر (صفن الصواهل) وهي مناسبةٌ لـ (سحب اللأمة) لأن الصفن في الخيل الوقوف على ثلاثِ قوائم ، وفيه أيضاً عرضٌ وعجب .

وجاء بعد ذلك بصورة أُنسٍ وبهجةٍ لحيٍّ لجبٍ بأهله ، الذين قسَّمهم على فرق ؛ فمنهم (الأيسار): جمع ياسر ، وهو الجزّار أو الذي يلي قسمة الجزور ، وقد يكون جمع ياسرٍ أي : اللاعبون بالقداح ، المتقامرون على الجزور ، وقال : (تضجُّ) : وفي الصَّوتِ صياحٌ وجلبةٌ وصخبٌ ، مناسبٌ لنحر الجزر أو لعب القمار .

ومنهم : المجتمعون على الشراب يتنادمون وقال (يصدح) وهو رفع الصَّوت بالغناء وغيره ، وهو مناسب للشرب الذي يبعثُ على الانتشاء ، بما قد يدير

الرؤوس ، فيرفع الندامى الصوت بالغناء ، ومنهم (السُّمار) : وهم القوم الذين يسمرون أي يتحدَّثون بالليل ، وقال (ترنُّ) وهو صوتٌ شجيٌّ لأنَّ المتسامرين بليلٍ يتحدَّثون حديثاً رقيقاً ، شجيًّا ، ناسبه الرنين ، الذي هو مختلف عن الضجيج والصدح للأيسار والشاربين .

ثم ذكر منهم (الجامل) وهو القطيع من الإبل معها رعيانها وأربابها ، وقال (يهدر) لأنه صوت الإبل وترديده ، وختم الصُّورة بالدُّعاء فقال (بعداً) : وهو منصوبٌ على إضمار فعلٍ أي أبعد الله هذه الليالي الحاضرة التي أفدت أي جاءت مسرعةً و (لا بعدت) ـ وفيها مطابقة ـ ليالي الغميم التي وصَفَهَا بأنَّها قلائل ، وقوله (قلائلٌ) تعبيرٌ يشي بواقع أن السرور والسعادة تقصّر الوقت مهما طال ، فلا يُشعَر به ، ويظنه الذي عاشه سويعات أو لحظات ، مع أنها قد تكون سنين طُوال ، والعكس صحيح .

والصُّورة في مجملها ، وتفصيلاتها ، تضجُّ بالحياةِ ، والحركة ، والحيويَّة ، لزمانٍ مضى ، ساعدَ في إبراز حيويتها ، استخدامه الألفاظ الموحية الدالة على ذلك ، في ذكر المشاهد ، والمحافل ، وصورة الفرسان والنساء على اختلافهم ، والأفعال المضارعة في قوله (يسحب) و (يصفن) و (تضجُّ) و (يصدح) و(ترنّ) و (يهدر) ، وهي أفعالٌ مضارعةٌ تدلُّ على الحركة ، وجاء بصورة مشاهدٍ ومحافلٍ ، ثمَّ فصَّل في صورة الحيِّ والقوم ، لأنَّه أراد صخباً ، ولجباً ، لحيّ كثيرٌ أهلُه ، وإذا كثر الناس ، زادت الحركة ، وتعدَّدت الاهتمامات ، وظهرت أصواتٌ مختلفة ، وتداخلت وتباينت .

والصُّورة إضافةً للحركة التي تطبعها بطابع الحياة ، وتعيد الذكريات عن طريق التمثيل ، زاد في بروزها استخدامه التصوير البصري ، إضافةً للصُّورة الصوتيَّة ، ممَّا أضاف لها متعة المشاهدة الحيَّة ، وهذه الصُّورة بما رمزت إليه

من ذكريات شباب وأهل وديار ، أو غيره ، مثلّها الخيال الشعري في صورة حيٍّ بدويّ يضجُّ بالحركة والحياة .

وممَّا تعلّق بالبداوة من الصُّور الحركيَّة ، ما كان متصّلاً بالوصف المادي للمرأة ، ومنه ما جاء في صورة مشية المرأةِ وتمايلها ، وتهاديها ، ممَّا أكثر الشعراءُ من ذكره في الشعر ووصفه ، لما في هذه الصُّورة من دلالةِ الأنوثة والجمال ، يقول ابن شهيد[1] :

فجاءَتْ تـــهـــادى[2] كمثلِ الـــرؤومِ[3] تراعـــي غـــزالاً بـــاعلى يفـــاع[4]

والتهادي في المشية حركةٌ فيها تثاقلٌ وتمايلٌ ، وسكون ، وهي مشيةٌ كثر وصفها في الشعر القديم ، لأنها أيضاً تدلُّ على امتلاء القوام ممَّا كان محبَّباً في الصُّورة البدويَّة للمرأة ، فشبَّه ابن شهيد مشيتها هنا ، بمشية الظبية التي تراعي ولداً لها ، وهي صورةٌ أراد بها زيادة الترويّ في الحركة ، لأن مراقبة الابن أو الغزال ، تحثُّ على الإبطاء والتأنّي ، وهو أدعى لثقل الحركة ، وجعلها بأعلى يفاع ، وهو المشرف من الأرض ، ولعلَّه أراد بذلك إشراف قامتها ، وصورة العزَّة والدلال في حركة مشيتها ، ممَّا يدل على كرم الأصل ، الذي قد يكون كنَّى عنه باليفاع .

ومن الصُّور الحركية البدويَّة في وصف المرأة قول ابن الزَّقَّاق[5] :

---

(١) ديوان ابن شهيد ، ص٩٣ .

(٢) التهادي : مشي النساء الثقال ، وهو مشيٌ في تمايل وسكون ، انظر : اللِّسان ، مادة (هدي) .

(٣) الرؤوم : العاطفة على ولدها ، والرئم : الخالص من الظباء ، وقيل ولد الظبي ، والآرام من الظباء البيض الخالصة ، انظر : اللِّسان ، مادة(رأم) .

(٤) اليفاع : المشرف من الأرض والجبل ، انظر : اللِّسان ، مادة (يفع)

(٥) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي ، دكتور إبراهيم بن مراد ، ص١٥٤.

ومهفهفٍ[1] نبتَ الشَّقيقُ[2] بخـــدِّه واهتزّ[3] أملـودُ[4] النَّقـا[5] في بُـرْدِه[6]

وابن الزَّقاق يصف امرأةً ضامرة البطن ، دقيقة الخصر ، خدُّها أحمر كزهر شقائق النعمان ، تلبس ثوباً موشَّىً ، وأضاف لجمال الشكل جمال الهيئة والحركة في مشيتها ، فقوامها أملودٌ ناعم ، شبَّه اهتزاز أردافها منه في مشيتها بالقطعة المحدودبة من الرمل ، وهو تشبيهٌ بدويٌّ قديم ، درج فيه الشُّعراء على الجمع بين النَّقا أو الكثيب وأرداف المرأةِ الممتلئة ، بجامع الضخامة والاستدارة والليُّونة والحركة .

ومن الصُّور الحركيَّة للمرأة في الشعر الأندلسيّ ، قول ابن حمديس[7]:

أمَا تضـوَّع[8] مـن أرادافهـا أرجٌ[9] كأنما مسكُ دارين[10] بـه فُتِقَـا[11]

أما تـألَّقَ مـن سَـمْطي[12] تبسُّـمِهَا بـــرقٌ إذا مـــا رآه نـــاظرٌ بَرَقـــا

---

(١) مهفهف : المهفهفة الجارية الخميصة البطن ، الدقيقة الخصر ، وامرأة مهفهفة أي ضامرة البطن ، انظر : اللِّسان ، مادة (هفف).

(٢) الشقيق : شقائق النعمان ، سميت بذلك لحمرتها على التشبيه بشقشقة البرق ، والشقيق نور أحمر ، انظر : اللِّسان ، مادة (شقق).

(٣) اهتزَّ : اضطرب وتحرَّك ، انظر : اللِّسان ، مادة (هزز).

(٤) أملود : امرأة أملود ناعمة مستوية القامة ، وغصن أملود ، ناعم ، انظر : اللِّسان ، مادة (ملد) .

(٥) النّقا : قطعة من الرمل محدودبة ، انظر : اللِّسان ، مادة (نقا).

(٦) البرد من الثياب : ثوب فيه خطوط ، وخصَّ بعضهم الوشي ، انظر : اللِّسان ، مادة (برد) .

(٧) ديوان ابن حمديس ، ص٣٣٦ .

(٨) تضوَّع : تحرَّك وتهيَّج ، انظر : اللِّسان ، مادة (ضوع).

(٩) الأرج : نفحة الريح الطيبة وتوهجها ، وتهيجها ، انظر : اللِّسان ، مادة (أرج).

(١٠) دارين : اسم فرضة بالبحرين ينسب إليها المسك ، يقال : مسك دارين ، انظر : اللِّسان ، مادة (درن) .

(١١) فتقا : الفتق : أن تفتق المسك بالعنبر ، انظر : اللِّسان ، مادة (فتق).

(١٢) سمطي : القلادة ذات سمطين ، أي ذات نظمين ، انظر : اللِّسان ، مادة (سمط).

هيفاءُ[1] يقلقُ[2] في الخصرِ الوشاحُ[3] لـها كـأنَّ قلـبي منـه عُلِّـمَ القَلَقـا
كأنّما مالَ خـوطٌ[4] في ملاءتـهـا[5] بالشَّمسِ ، واهتزَّ[6] منها في كثيبٍ[7] نَقَـا

والصُّورة عند ابـن حمديس لامـرأةٍ ذات رائحةٍ زكيَّةٍ عطرةٍ ، تفوحُ من أرادنها ، شبَّهها بمسكٍ جُلِبَ من دارين المشهورة به في البحرين ، فُتِقَ أي خُلِط بغيره لتظهر رائحته ، وتسطع ، ثمَّ شبَّه أسنانها في التنضُّد بخيطين من قلادة ، نظم فيهما اللؤلؤ أو غيره ، وأراد تنضُّد الأسنان وجمالها ، وأضاف إليها صورة الإيماض للبرقِ بجامع الإنارة والوضاءة ، والبياض ، وهو ما تشبَّه به الأسنان عادة ، ثمَّ صوَّر قامتها ، فهي هيفاء أي رقيقةُ الخصر ، ضامرة البطن ، زاد في صورة رقَّة خصرها ، حركة الوشاح القلقة التي أراد بها جولانه ، وعدم استقراره ، ممَّا دل به على الضمور ، وشبَّه الوشاح في هذه الصورة بقلبه المنزعج غير المستقرّ ، ثمَّ صوَّر حركة التَّهادي والتمايل في مشيتها في قوله (كأنَّما مال خوطٌ في ملاءتها) فشبَّه قامتها بالغصن النَّاعم في التثنِّي ، كما شبَّه أرادفها في اهتزازها بالكثيب من الرَّمل في قوله (واهتزَّ منها في كثيب نقا) وأضافَ إليها صورة الإشراق ، والوضاءة في تشبيهها بالشمس ، وهي صورة ملائمة لذكره البرق المشبَّه به الأسنان .

---

(١) هيفاء : رقيقة الخصر ، ضامرة البطن ، انظر : اللِّسان ، مادة (هيف) .

(٢) يقلق : امرأة مقلاق الوشاح أي لا يثبت على خصرها من رقته ، وأقلق الشيء من مكانه وقلقه حرَّكهُ ، والقلق أن لا يستقرَّ في مكان واحدٍ ، ويضطرب ، انظر : اللِّسان ، مادة (قلق) .

(٣) الوشاح : ما ينسج من أديم عريض ، ويرصع بالجواهر ، وتشدّه المرأة بين عاتقيها وكشحيها ، انظر : اللِّسان ، مادة (وشح) .

(٤) الخوط : الغصن الناعم ، انظر : اللِّسان ، مادة (خوط).

(٥) ملاءتها : إزارها ، انظر : اللِّسان ، مادة (ملأ).

(٦) اهتزّ : اضطرب وتحرَّك ، انظر : اللِّسان ، مادة (هزز).

(٧) الكثيب : من الرمل ، القطعة تنقاد محدودبة ، انظر : اللِّسان ، مادة (كثب).

والصُّورة إضافةً لأنَّها بصريَّة : في ذكر التبسُّم ، والتَّهادي ، وشميَّة : في ذكر الأريج ، والمسك ، ولونيَّة : في ذكر المسكِ أيضاً ، والبرق ، والشمس ، إلاَّ أنَّها صورة تشيع فيها الحركة ؛ في ذكره : التضوُّع للأريج ، وهي حركة الرائحة وتوهّجها ، بما دلَّ به على انتشارها لتحرُّكها ، وذكره : القلق للوشاح ، وأراد به اضطرابه ، وتحرُّكه ، وعدم استقراره ، وكذلك القلب ، وذكره أيضاً : التمايل في المشيَة ، والاهتزاز في القوام .

وفي مثل هذه الصُّورة يقول ابن هانئ[1] :

أريَّاكِ[2] أم رَدْعٌ[3] من المسكِ صائكُ[4] ولحظُكِ أم حدُّ من السَّيفِ باتكُ[5]

وأعطافُ[6] نشوى[7] أم قوامٌ مهفهفٌ[8] تأوَّدَ[9] غصنٌ فيه وارتجَّ[10] عانكُ[11]

والصُّورة لامرأةٍ شبَّه فيها الشَّاعر رائحتها العطرة النفَّاذة ، بالمسكِ الذي ينتشر عبقه فيعلق في الجسد ، ويلصق ، وهي صورة شميَّة ، وشبَّه لحظَ عينها بحدِّ السَّيفِ القاطع لما يفعله نظرها في قلبه ، وهي صورة بصريَّة ، وأضاف لها الصُّورة الحركيَّة ، في وصفه هيئةِ مشيتها في التثنّي ، والتمايل ، وتشبيهه إيَّاها بالسَّكرى ، لما يفعله السُّكر من التمايل ، والترنُّح .

---

(١) ديوان ابن هانئ ، ص٢٤١ .

(٢) ريّاك : الريا : الرائحة الطيبة ، انظر : اللِّسان ، مادة (روي) .

(٣) ردعٌ : أثر الخلوق والطيب في الجسد ، انظر : اللِّسان ، مادة (ردع) .

(٤) الصائك : لاصق ، لازق ، انظر : اللِّسان ، مادة (صأك) .

(٥) باتك : قاطع ، انظر : اللِّسان ، مادة (بتك) .

(٦) أعطاف : يتعاطف في مشيته بمنزلة يتهادى ، ويتمايل من الخيلاء ، والتبختر ، والأعطاف الأردية ، انظر : اللِّسان ، مادة (عطف) .

(٧) نشوى : سكرى ، انظر : اللِّسان ، مادة (نشي) .

(٨) مهفهف : المهفهفة الجارية الخميصة البطن ، الدقيقة الخصر ، انظر : اللِّسان ، مادة (هفف) .

(٩) تأوّد : تثنّى ، انظر : اللِّسان ، مادة (أود) .

(١٠) ارتجّ : اضطرب وتحرَّك ، انظر : اللِّسان ، مادة (رجج) .

(١١) العانك : الرمل المتعقّد المرتفع ، انظر : اللِّسان ، مادة (عنك) .

كما شبَّه تثنِّي قوامها بتعطُّف الغصن النَّاعم ، وشبَّه ردفها في حركته ، واضطرابه بالكثيب وهو الرَّمل المتعقِّد المرتفع .

جمع إلى وصف حركة هذا القوام ، صورة الخصر الدقيق ، والبطن الضامر ، في قوله (مهفهف) .

وقد جاء الشاعر بالمشبَّهات بها بعد (أم) التي للتخيير ، لأنه أراد أن الصِّفة قويت في المشبه ، حتّى يصحّ أن يكون مشبهاً به ، على سبيل المبالغة .

وصورة الحركة التي فصَّل الشاعر فيها وصف قوام هذه المرأة تشيع فيها معاني الأنوثةِ والدلال التي تعكس انتشاءً بالوصف .

كما تعكس هذه الصُّورة هيمنة الذَّوق البدوي القديم في النظر لمقاييس الجمال الجسديّ في المرأة والذي كان أبرزه : لين القوام ، ودقة الخصر ، وضمور البطن ، وامتلاء الأرداف .

ومن الصُّور الحركيَّة البدويَّة للمرأة في الشعر الأندلسيّ ، ما جاء في قول ابن خفاجة[1] :

حدَرَ[2] القناعَ عن الصَّباحِ المسفرِ ... ولوى القضيبَ[3] على الكثيبِ الأعفرِ[4]

وتملَّكتهُ هزَّةٌ[5] في عزَّةٍ[6] ... فارتجَّ[7] في ورقِ الشباب الأخضرِ

متنفِّساً عن مثل نفحةِ[8] مسكةٍ ... متبسِّماً عن مثل سِمْطَي جوهرِ

---

(١) ديوان ابن خفاجة ، ص٤٨.

(٢) حدر : حطّ ، انظر : اللِّسان ، مادة (حدر).

(٣) القضيب : الغصن ، انظر : اللِّسان ، مادة (قضب).

(٤) الأعفر : الرمل الأحمر ، والأعفر من الظباء الذي تعلو بياضه حمرة ، انظر : اللِّسان ، مادة (عفر).

(٥) هزّة : اضطرابٌ وحركة ، انظر : اللِّسان ، مادة (هزز).

(٦) العزّة : المنعة ، ورجل عزيز منيع كريم لا يقهر ولا يغلب ، انظر : اللِّسان ، مادة (عزز).

(٧) ارتجّ : اضطرب وتحرّك ، انظر : اللِّسان ، مادة (رجج).

(٨) النفحة : دفعة الريح الطيبة وأريجها ، انظر : اللِّسان ، مادة (نفح) .

وفيها[1]:

سـلّتْ عليَّ سيوفَها أجفانُـهُ[2] فلقيتهنَّ من المشيبِ بمغفرِ[3]

متجلّداً[4] أبأى بنفسي[5] أن يُرى هذا الهزبرُ[6] قتيلُ ذاكَ الجؤذرِ[7]

فحَشَا بطعنتِهِ حَشَى[8] متنفّسٍ تحت الدُّجى[9] عن مارجٍ[10] متسعّرِ[11]

يَغْشى[12] رماحَ الخطّ[13] أوّل مقبلٍ ويكرُّ يومَ الرَّوعِ آخرَ مدبرِ

وابن خفاجة في هذه الصُّورة يقصُّ علينا مشهداً بينه وفتاةٍ شبّه وجهها حين حطَّتْ عنه القناع بإشراق الصَّباحِ وإسفاره ، وشبَّه قوامها بالغصن الناعم (القضيب) ،وردفها بالكثيب وهو القطعة المحدودبة من الرمل الأعفر ، وقال (الأعفر) أي الرمل الأحمر ، للاشتراك في الصفة بينه والظبي الأعفر أي الذي تعلو بياضه حمرة ـ وهو لون محبب في النساء ـ وأشار بهذه الصفة المشتركة إلى تشبيه الفتاة بالظبية .

---

(١) ديوان ابن خفاجة ، ص٤٨.

(٢) أجفانه : جفن العين ، غطاء العين ، والجفن غمد السيف ، انظر : اللّسان ، مادة (جفن).

(٣) المغفر : غفر الشيب بالخضاب ستره وغطّاه ، والمغفر : ما يلبسه الدارع على رأسه تحت القلنسوة ، انظر : اللّسان ، مادة (غفر).

(٤) متجلّدا : التجلّد تكلّف الجلادة ، وإظهار الجلد ، انظر : اللّسان ، مادة (جلد).

(٥) أبأى بنفسي : أمنع نفسي ، انظر : اللّسان ، مادة (أبي).

(٦) الهزبر : من أسماء الأسد ، انظر : اللّسان ، مادة (هزبر).

(٧) الجؤذر : ولد البقرة الوحشية ، انظر : اللّسان ، مادة (جذر).

(٨) الحشى : ظاهر البطن ، وهو الحضن ، انظر : اللّسان ، مادة (حشا).

(٩) الدُّجى : سواد الليل مع غيم ، انظر : اللّسان ، مادة (دجا).

(١٠) المارج : النار المختلط لهبها بسوادها ، انظر : اللّسان ، مادة (مرج).

(١١) متسعّر : متهيج متوقدّ ، انظر : اللّسان ، مادة (سعر).

(١٢) يغشى : يباشر الحرب ، انظر : اللّسان ، مادة (غشا).

(١٣) الخطّ : أرض ينسب إليها الرماح الخطيّة ، انظر : اللّسان ، مادة (خطط).

ثمَّ صوَّر هيئة حركة جسديَّة ، لحالةٍ من الحركة النفسيَّة ، في قوله (وتملّكته هزّةٌ في عزَّةٍ) ، وأراد أخذتها أريحيَّةٌ فاهتزَّت واضطربت ، لعزَّةٍ وكرمٍ ومنعةٍ وحسب في نفسها ، فارتجّت وتحرَّكت تحرُّك الورقِ الأخضر ، الذي شبَّه به الشباب ورونقه وينعَه ، وذكر اهتزازها لعزَّتها ، وشبهه بالورق ، لمناسبة الصورة السابقة في حركةِ التواء جسدها كالغصن على ردفٍ كالكثيب ، وذكر الالتواءَ لأنه أراد قواماً مجدولاً متثنيًا ، ثمَّ صوَّر رائحة أنفاسها الطيبة ، وشبَّهها بالمسك ، كما شبَّه تنضُّدَ أسنانها بخيطين من جوهرٍ في قلادة ، ثم جاء بصورةٍ حركيَّةٍ أخرى ، لمفاعلةٍ بينه وإيَّاها ، شبَّه فيها أجفانها في مضائها وأخذها القلوب بالسُّيوف ، وشبَّه خوفه منها واتقَّاءه نظرتها القاتلةِ له ، باتخاذه المغفر ، وهو ما يلبسُه الدارع على رأسه عند المعركة ، فناسب في هذه الصفة بينها والجفون التي شبّهها بالسيوف ، بما أراد به الدلالة على معركةٍ قائمةٍ اتخذ لها العدَّة .

كما أن المغفر أيضاً يعني (خضب الرأس) وقد يكون أراد أنه خضب رأسه الذي ملأه الشيب ، وغيَّر لونه ليعجبها ، وفيه مطابقة بين شبابها الذي شبهه بالورق اليانع ، وشيبه الذي حاول ستره بالخضاب .

وهو لمَّا ذكر المغفر في مقاومتها ، أردفه بذكر التجلُّد وهو تكلُّف الجلادة ، وإظهارُ الصلابة والقوَّة ، والشدَّة في النَّفْسِ ، خشية أن يكون وهو الأسد القويُّ قتيل هذه المهاة الوحشيَّةِ الضعيفة .

وهو تكلُّف جلادة لم يطبَّق في واقع الحال لأنه ذكر قدرتها عليه بتصويره إصابتها حشاه ، ومتنفَّسه ، أي موضع النفس من صدره ، الذي شبَّه حبَّها فيه بتوقُّد النار الملتهبة وسعيرها ، ولاءم بين حمرة النَّار ، والدم الناجم عن الطعن المعتاد ، وهو لمَّا صوَّر انهزامه في الحبّ بفعل عيني هذه الفتاةِ وجمالها ، احترز بصورة شجاعته في الحرب ، فهو يباشر هذه الحرب ، ويلقي بنفسه في

خضمّ المعركة لأنه أوّل من يقبل ، كما أنه فيها آخر من يدبر ، وهي صورةٌ تدل على شجاعةٍ ، وقوّةٍ ، وبسالة ، أراد بها مطابقة الحال فيها بينها وصورة الانهزام والضعف ، عند مغالبته حبَّ فتاةٍ أصابه سهمها ، وهي مقابلةٌ بدويَّةٌ قديمةٌ في الصُّورة ، أرادوا بها التمدُّح بالشجاعة ، يقابله التمدُّح بالاستسلام أمام سلطان الهوى ، وهي قوَّة وفروسيَّة في النفس البدويَّة التي تعشق ولا ترى في سلطان العشق عيباً .

والصُّورة تشيع فيها الحركة ، في قوله : حدر القناع ، لوى القضيب ، هزَّةٌ ، ارتجَّ ، سلَّت ، لقيتهنَّ ، حشا ، يغشى ، يكرُّ ، وهي أفعالٌ تعتمد على الحركة في إظهار المعنى ، إضافة للحركة النفسيَّة الموحية في قوله : عزَّة ، ومتجلِّداً .

ضمَّ إلى هذه الصُّورة الحركيَّة ، الصُّورة البصريَّة اللَّونيَّة في : الصباح المسفر ، الكثيب الأعفر ، الشباب الأخضر ، الجوهر ، السيوف المسلولة ، المغفر ، الدجى المظلم ، المارج المتسعِّر ، والصُّورة الشميَّة : في نفحة المسك .

ومن هذه الصُّور الحركيَّة التي تأتي في سياقِ وصف الهوى ولواعجه قول ابن الأبَّار[1] :

فتاةٌ يفوقُ الوصفَ معجبُ حسنها ... فلا غرو أن تُزْهى دلالاً وتعجبَا

أراعُ[2] لذكراها فأرعدُ[3] خيفةً ... كما زعزتْ[4] غصناً بهبَّتها الصَّبَا

وفيها[5] :

وربَّ يدٍ بيضاءَ عندي لليلةٍ ... تحمَّلتُ فيها الهجرَ حولاً مُحَسَّبَا

---

(١) ديوان ابن الأبَّار ، ص١٠١ .

(٢) أراع : أفزع ، انظر : اللِّسان ، مادة (روع) .

(٣) أرعد : اضطرب ، وارتجف من الخوف ، انظر : اللِّسان ، مادة (رعد) .

(٤) زعزعت : حرَّكت ، انظر : اللِّسان ، مادة (زعع) .

(٥) ديوان ابن الأبَّار ، ص١٠١ .

تراءت لنا وهناً[1] إزاء[2] خريدة[3] تسايرها كالبدرِ قارنَ كوكبَا
وجازَت[4] بنا مذعورةً من شعارنا[5] كجازيةٍ[6] بالرَّملِ تتبعُ ربربَا
وما علمتْ أنَّا قنائصُ لحظها وربَّ مهاةٍ تقنصُ الليثَ أغلبَا[7]

وفيها[8] :

وأقبلتُ استقري[9] خُطَاها مقبِّلا مجرًّا لموشيّ[10] البرودِ ومسحَبَا
وقد جعلتْ تشتدُّ نحو خبائها[11] لتخبأ نوراً مذْ تلألأ ما خبَا
كما أومأتْ بالكفِّ أن كُفَّ وانكَفَا[12] فسمرُ شبابِ الحيّ ماضيَّةُ الشَّبَا[13]
فأبتُ وقد قضَّيتُ بعضَ مآربي وإنْ كنتُ من نجوايَ لم أقضِ مأربَا

---

(١) وهناً : الوهن نحوٌ من منتصف الليل ، انظر : اللِّسان ، مادة (وهن) .

(٢) الإزاء : المحاذاة والمقابلة ، انظر : اللِّسان ، مادة (أزأ) .

(٣) الخريدة : الجارية المخفَّرة ، انظر : أساس البلاغة ، الزمخشري ، ٢٢٢/١ ، مادة (خرد) .

(٤) جازت : قطعت وسلكت ، انظر : اللِّسان ، مادة (جوز) .

(٥) شعارنا : الشعار العلامة في الحرب ، وشعار العساكر أن يسموا علامة ينصبوبها ليعرف الرجل بها رفقته ، انظر : اللِّسان ، مادة (شعر) .

(٦) الجازية : ظبية جازئة استغنت بالرطب عن الماء ، مادة (جزأ) .

(٧) أغلبا : أسد أغلب غليظ الرَّقبة ، انظر : اللِّسان ، مادة (غلب) .

(٨) ديوان ابن الأبار ، ص١٠٢ .

(٩) استقري : أتتبَّع ، انظر : اللِّسان ، مادة (قرا) .

(١٠) الموشيّ : من الثياب معروفه ، ووشى الثوب حسَّنهُ ، ونمنمه ، ونقشه ، وحسنه ، انظر : اللِّسان ، مادة (وشيَ) .

(١١) خبائها : سترها ، والمخبَّأة من الجواري المخدَّرة التي لا بروز لها ، انظر : اللِّسان ، مادة (خبأ) .

(١٢) انكفأ : انقلب ، انظر : اللِّسان ، مادة (كفأ) .

(١٣) الشبا : شباة كلِّ شيء حدُّ طرفه ، انظر : اللِّسان ، مادة (شبا) .

والصُّورة عند ابن الأبـَّار قريةٌ من صورة ابن خفاجة للفتاةِ المشبهة الظَّبية التي تُصْمِي الأسد ، وهي صورةٌ مغايرةٌ للطبيعة ، أراد الشعراء بها الدلالة على سطوة الجمالِ وسلطة الحبِّ .

وفتاةُ ابن الأبـَّار ذاتُ جمالٍ ، ودلالٍ يفوق الوصف ، كان لقوَّة تأثيرها في قلبه أنَّ ذكراها تُهيِّج الْلَّواعج والأشواق ، وهو لشدَّة هذه العواطف في نفسه ، يذعر ويفزع للذكرى ،وشبَّه نفسه في ذلك بالغصن وقد زعزعته وحرَّكته بشدَّةٍ ريحُ الصَّبا العليلة ، وذكر الصَّبا من الرياح ، لأنه أراد محبوبة ناعمةً رقيقةً ، تشبه ذكراها الصَّبا في ضعفها ولينها ، ولكنَّها قويَّةُ التأثير في نفسه .

ثم قال : (وربَّ يدٍ بيضاء عندي لليلةٍ) أي معروفٌ وجميلٌ لهذه الليلةِ في نفسِهِ ،مَدَحها بالبياضِ في كنايةٍ عن إشراقِ فِعْلِهَا في قلبه ، واستعار لها اليد ، بما أراد به الخير الذي وهبته له ، ولذلك ذكر أنَّه هانَ عنده الهجرُ لسنةٍ بعدها ، لما أشاعته في نفسِهِ من بهجةٍ ، حَمَد على أثرها حتّى المعاناة ، وذكَرَ أنَّ في هذه الليلة أو نحوٍ من منتصفها ـ لأنَّه قال (وهناً)ـ ، ظهرت هذه الجارية الخفرة ، وشبَّه الشاعر تجلِّي المحبوبةِ في الليل الأسود المدلهم ، ومصاحبتها له في الظهور ، بمصاحبةِ النجم للبدر في ذلك ، وطابق بين ظلامِ الليل ونور النجم والبدر ،اللَّذين أراد بهما وضاءتها وإشراقها في نفسه العاشقة ، وجمع إلى ذلك صورة حركةِ مرورها ، واجتيازها به ، وذعرها من شعاره ، وهو ما يتخذه الفرسان كعلامةٍ للحرب ، وشبَّهها في هذه المشيةِ والنظرةِ المذعورة ، بالظبيةِ تتبع سرباً ، ثمَّ طابق بين صورتها هذه ، وفعلها في نفسه ، فهي تقنصه ، وتصيده ، مع أنه يشبه في الشجاعة الليث الأغلب ، ثم أردف هذه الصُّورة بمعانٍ عذريَّةٍ لفعل الهوى الذي يجعل صاحبه يتتبَّعُ مواطئ ، ومجرَّ ، ومسحب بردها ، فيقبلّه ، وصوَّر مرَّة أخرى هيئة الحركةِ في إغذاذها السير ، والسرعة في المشي إلى خباءٍ ترجو التستُّر فيه ، وهي كوكبٌ متلألأ لا يُطفأُ نوره ، وأضاف إلى هذه الصُّورة ، الإشارة بالكفّ ، التي فهم منها طلبها الامتناع

والرجوع والعودة عنها لوجود أهلها من الشباب الذين يحدّون أسلحتهم دفاعاً عنها ،في ربطٍ بين هذه الصُّورة وذعرها لرؤيته وقد اتخذ للحرب عدَّتها .

والصُّورة تشيع في أجوائها البدويَّة الحركة ، في ذكره : الارتياع ، والإرعاد ، والزعزعة ، والهبوب ، والترائي ، والتساير ، والاجتياز ، والذعر ، والقنص ، والاستقراء ، واشتداد السّير ، والإيماء بالكفّ .

أضاف إليها الصُّور البصريَّة اللَّونيَّة في ذكره : البياض ، والبدر ، والكوكب ، والنور ، والتلؤلؤ ، والإشارة ، وطابق بين (الليل وبياض الكف) وبين (الليث والظبية) كما جانس بين (جازت ، جازية) و (قنائص ، تقنص) ، و (خبائها ، تخبَّ ، خبا) ، و (الكف ، كفَّ ، انكفا) .

ومن الأمثلة على الصُّور الحركيَّة البدويَّة في سياقٍ آخر ، وهو المدح ، قول الرُّصافي البلنسي[1] :

أتتني مـن تلـكَ السَّـجايَا[2] بنفحـةٍ ... هززتُ لـها في الحيِّ عطفيَ من عُجْـبي

ومـا ذاكَ إلاَّ أنَّ عَـرْفَ[3] تحيَّـةٍ ... نفضت بـها مسكاً على الشرقِ والغرب

تصدَّى بـها الرَّكبُ المغرِّبُ غـدوةً[4] ... فقلتُ : أمن دارين مـدَّلجُ الرَّكـب؟[5]

فالشَّاعر يصوِّر تحيَّةً بعث بها الممدوح إليه ، تشي بشمائل هذا الممدوح وخلقه وطبيعته السمحة ، فشبَّهها برائحة المسك الشذيّ ، ممَّا خَيَّل للشاعر أن الرَّكب الذي حمل التحيَّة له كان قادماً بها من دارين في البحرين ، وهي بلدةٌ مشهورةٌ بالمسك ، وأراد ما أشاعته تحيته من انتشاءٍ في نفوس الرّكبْ ، وذاتِه .

والصُّورة حركيَّة في ذكره اهتزاز أعطافه ومواضع الرداء منه خيلاءً وعجباً ، لسلامٍ بُعِثَ من قبل هذا الممدوح ، وفي ذكره النَّفْضَ والتحريك لتحيَّةٍ

---

(١) ديوان الرُّصافي البلنسي ، ص٤٠ .

(٢) السجايا : جمع سجية ، وهي الطبيعة والخُلقُ ، انظر : اللِّسان ، مادة (سجا) .

(٣) العرف : الريح الطيبة ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرف) .

(٤) الغدوة : البكرة ما بين صلاة الغداة ، وطلوع الشمس ، انظر : اللِّسان ، مادة (غدا) .

(٥) مدَّلج الرَّكب : الركب الذي يسير الليل كلَّه ، انظر : اللِّسان ، مادة (دلج) .

كالمسك ، وأراد إشاعة جوّ من السَّعادة في الناس في المشرق والمغرب بهذه التحيَّة .

والصُّورة حركيَّةٌ ـ أيضاً ـ في قوله (تصدَّى) ، وهي حركة تعرُّضٍ ، و(تصدَّى للأمرِ) رفع رأسه ، وصدره يتصدَّى للشيء ينظر إليه[1] ، وأضاف لهذه الصُّورة الحركيَّة ، الصُّورة الشميَّة في ذكره : النفح ، والعرف ، والمسك ، ودارين ، واللَّونيَّة في ذكره : الغدوة وهي ما بين صلاة الغداةِ وطلوع الشمس ، والإدلاج وهو المسير في الليل .

ومن هذه الصُّور الحركيَّة البدويَّة ، في سياق المدح أيضاً ، قول ابن خفاجة[2] :

ومن أجلك اهتزَّ[3] القضيبُ على النَّقا ... وأشرقَ نُوَّارُ[4] الرُّبى[5] يتفتَّقُ[6]

وما ذاكَ إلاَّ أن خلقكَ رائقٌ[7] ... يهزُّ كما اهتزَّ الرحيقُ المعتَّقُ[8]

فصوَّر ابن خفاجة سماحة الممدوح ، وخلقه المعجب للجماداتِ والنَّاس ، فمن أجله يتحرَّك ، ويضطَّرب الغصن على النَّقا ، وتشرق وتتفتَّح الزهور البيضُ على الروابي ، وتسطعُ رائحتها ، ولأفعالهِ المعجبة اهتزَّ الناسُ منتشين ، اهتزاز شارب الخمر الجيِّدة المعتّقةِ .

---

(١) انظر : اللِّسان ، مادة (صدي) .

(٢) ديوان ابن خفاجة ، ص١٨٤ .

(٣) اهتزّ : تحرَّك ، واضطرب ، انظر : اللِّسان ، مادة (هزز) .

(٤) النوَّار : زهر أبيض ، انظر : اللِّسان ، مادة (نور) .

(٥) الرُّبا : ما ارتفع من الأرض وربا ، انظر : اللِّسان ، مادة (ربا) .

(٦) يتفتق : فتق الطيب خلطه بعود وغيره ، لتظهر رائحته ، انظر : اللِّسان ، مادة (فتق).

(٧) رائق : معجبٌ ، انظر : اللِّسان ، مادة (روق) .

(٨) المعتّق : الخمر التي عتقت زماناً ، وهي من جيِّد الشراب ، انظر : اللِّسان ، مادة (عتق) .

والصُّورة حركيَّة في ذكره اهتزاز الغصون والناس ، ضمَّ إليها صورة لونيَّة في ذكره النَّوار الأبيض وشميَّة في ذكره التفتُّق .

وهكذا نجد . . . أن الصُّور الحركيَّة البدويَّة في الشعر الأندلسيّ ، تعطي حيويَّةً وحياةً لهذه الصُّور ، في التقاطها جزئياتٍ في المشهد الشعري ، تمنح بالكلمات عرضاً تفصيليًّا ، يضفي على الصُّورة جاذبيَّةً وغنى ، إضافةً لإمتاع المتلقّي بالخيالِ الشعري الموحي الحيّ في الصُّورة .

* * *